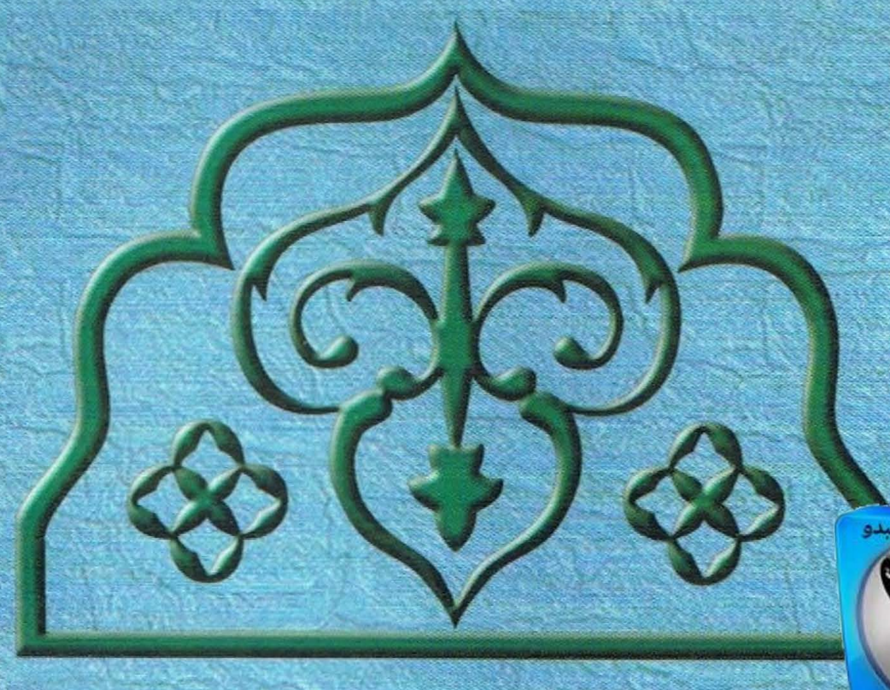


مدونة ابو عبدو

قضايا وحوارات النهضة العربية

سحب وتعديل نبيه محمد نبهان

قضية الملابس

تحرير وتقديم

محمد كامل الخطيب

٠٠٢١

قضية الملابس

محمد كامل الخطيب
قضية الملابس

منشورات - ٢١ ٠ ٠
دمشق - ٢٠٠٨

مطبعة اليازجي
دمشق هـ: ٢٣١١٢٧٩

قضايا وحوارات النهضة العربية

قضية الملابس

تصنيف وتقديم

محمد كامل الخطيب

تقديم

الملابس حاجة من حاجات الإنسان البدائية الأولى، لاتقاء الطبيعة ووقاية الجسد من البرد والحر. وعندما بدأ الإنسان يعي نفسه صارت لـــ: «ستر العورة». أما عندما تدرج في الحضارة، فقد صارت جمالاً ودُرْجَةً «موضة». وفي العصر الرأسمالي الحـــديث صارت صناعة تفرض قوانينها؛ قوانين الرأسمالية في خلق دائم للسلع، بغض النظر عـــن الحاجة الفعلية. فالمهم هو الاستهلاك، والاستهلاك السريع. وهذا ما يكمـــن خلـــف التبدل السريع للزي و«الموضة».

أمر آخر في ملابس المجتمعات الحضرية، وهي أنها رمـــوز ودلالات اجتماعيـــة؛ رموز ودلالات على الغنى والطبقات والمهن والمكانة والسن، بل والمـــذهب الـــديني في أحيان كثيرة، فأحياناً يفرض على مجموعة اجتماعية «لباس محدد» وأحياناً يحرم عليهـــا لباس معين آخر.

من كون الملابس ذات دلالات اجتماعية، جـــاء كونها ذات دلالات فكريـــة ورمزية أيضاً، ونحن نتحدث هنا على المستوى التاريخي والاجتمـــاعي، ولـــيس علـــى المستوى الفردي، فظهور ملابس معينة في حقبة تاريخية معينة، وفي مجتمع محدد، يكون في كثير من الأحيان ذا دلالة رمزية وفكرية، سواء أكان ذلك على مستوى الفرد الذي يرتدي هذا اللباس، أم كان ذلك على مستوى الجماعة أو المجتمع الذي تـــوافر هـــذا اللباس فيهما، أو ساد ودرج.

من هنا؛ من كون الملابس «حقل دلالات ورموز» أتى كون الملابـــس «حقـــل صراع» أيضاً. والملابس المختلفة في رمزها ودلالاتها، صارت مختلفة في تعبيراتها الفكرية ودلالتها الرمزية. ومثلما الأعلام ـــ والتي هي مجرد قطع نسيج ـــ تدل علـــى الـــدول والأوطان، فإن الملابس، وهي من نسيج غالباً، وجلد أحياناً، هي رموز دالة على أفكار المجتمعات والأفراد، وكما تتصارع أعلام الدول، فإن ملابس الأفـــراد والمجموعـــات الاجتماعية تتصارع. أو على الأصح يكون اللباس أحياناً أحد حقول الصراعُ مثلما هو أحد تعبيرات الصراع الاجتماعي. وهنا تخرج الملابس من وظيفتها كحاجة فيزيولوجية بشرية، لتصبح رمزاً وهوية. ومثلما تتصارع الرموز والهويات، فإن الملابس تتصارع، أو تكون أحد ميادين الصراع وأحد حقوله، مثلما هي أحد تعبيراته ورموزه الظاهرة.

ليس من المهم دراسة تطور الملابس، أو دراسة تطور الدرج والأزياء في هذا التقدم، ما يعنينا هو دلالة الملابس في مرحلة تاريخية محددة جرت فيها أكبر عملية «تغيير» اجتماعي ــ تاريخي بما فيها عملية تغيير للملابس في المنطقة العربية في العصر الحديث. وسنحاول أن نقدم هذه العملية التاريخية ــ الاجتماعية ــ الفكرية ــ الرمزية من خلال الصراع والمعارك التي جرت حول «تغيير الملابس» في الثقافة والمجتمع العربيين الحديثين، في الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه أكبر عملية تغيير للأفكار والعادات والتقاليد والنظم والأجناس الأدبية وبنية المجتمع العربي وأفكاره عموماً، وهذه العملية هي عملية دخول «الزي الأوروبي الحديث» مكان الزي العربي التقليدي سواء للرجال أم للنساء. وسنحاول أن نرى كيف عبرت أفكار النهضة العربية عن نفسها عن طريق الملابس. في الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه عملية الدعوة للحداثة والديمقراطية والعلمانية والاشتراكية والرواية والمسرح وفن الرسم...الخ. والملابس كانت أحد ميادين الصراع، مع فارق أنها تمس كل فرد من هذا المجتمع، سواء أكان معنياً بالأمور الثقافية والفكرية والسياسية أم غير معني.

على خط أفكار النهضة العربية نفسه وقف «التقليديون» مع الملابس التقليدية «العربية» القديمة، بينما دعا «الحداثيون» إلى «الزي الأوروبي» الحديث، بدءاً من ملابس المرأة الداخلية «المشد» وصولاً إلى غطاء الرأس، ومن هنا فإن المعركة والجدل حول العمامة والطربوش والقبعة ــ مثلاً ــ إنما كان جدلاً ورمزاً وصراعاً فكرياً ــ اجتماعياً في أساسه، وفي دلالالته، مثله مثل الصراع حول فن الرواية والاشتراكية والعقلانية والديمقراطية والعلمانية وفن الرسم وقضية المرأة وقضية الاشتراكية وقضية الوحدة...الخ وغيرها من القضايا التي جرى حولها الصراع والجدال والحوار الفكري، مباشرة ورمزاً، خلال المائتي عام الأخيرة، أي في الزمن الذي تعارفنا على تسميته: عصر النهضة العربية.

وربما يكون ذا دلالة أن تمرد الطلاب في «مدرسة دار العلوم» في القاهرة عام ١٩٢٥ وعقدهم مؤتمراً طالبوا من خلاله باستبدال اللباس الجديد باللباس القديم (زي الأفندية بدل زي المشائخ) واستبدال الطربوش بالعمامة، ومن ثم تدخل المسؤولين والمشائخ وأولي الأمر، إنما حدث في الفترة التي احتدم فيها الجدال والصراع حول كتاب «الإسلام وأصول الحكم ــ ١٩٢٥» لعلي عبد الرزاق (١٨٨٨ــ١٩٦٦)، وكتاب «في الشعر الجاهلي ــ ١٩٢٦» لطه حسين (١٨٨٩ــ١٩٣٣). وفي هذه

الفترة «المتحولة» ذاتها (١٩٢٧) استبدل أحمد أمين (١٨٨٦ـــ١٩٥٣) الزي التقليدي القديم (الجبة والعمامة والقفطان)، بزي الأفندية المطربشين، فكان هذا التغيير في لباس أحمد أمين ذا دلالة رمزية تعادل انتقاله ـــ في الفترة ذاتها ـــ من «القضاء الشرعي» حيث كان يعمل إلى مدرس «الجامعة المصرية» حديثة النشأة، وبعيدة الدلالة في انتقال التعليم من النمط القديم «الأزهر» إلى النمط الحديث «الأوروبي» الجامعة.

الملابس لم تعد إذن مجرد اتقاء للبرد أو الحر، أو ستر للعسورة، أو دلالة لمرتبة اجتماعية، بل صارت رمزاً لفكر، ودلالة لما تحتها، فللبس القبعة دلالة فكرية غير دلالة لبس الطربوش. والمأساة أن يحدث تضارب بين الرمز ودلالته كما يحدث في المجتمع العربي الحديث، في كثير من الأحيان، إذ أصبحت ترى رجلاً يلبس لباساً حديثاً، ويفكر تفكيراً تقليدياً. وبهذا المعنى فإن العمامة والطربوش صارا داخل الرأس بعد أن كانا فوقه، وهذا ما لاحظه محمد علي باشا عندما أسر ضباط الأسطول العثماني المرتدين زياً عسكرياً أوروبياً «حديثاً» إذ خاطبهم قائلاً:

«يا أبنائي... الفرق بيني وبينكم أنكم تضعون قلنسوة أوروبية على رأس تركي، بينما أضع أنا عمامة تركية على رأس أوروبي»... ومفارقة محمد علي ما تزال قائمة في كثير من الأفراد... وتبلغ هذه المفارقة مداها عندما يبيح الرجل الشرقي لنفسه ارتداء الأزياء الأوروبية ـــ الرجالية ـــ بينما «يجبر» أو «يطلب» من المرأة أن تبقى على حجابها، فكأن الرجل يقبل أن «يتعولم» ويلبس «جينزاً وتي شيرت وخفافة رياضية»، لكن على المرأة أن تبقى في زيها التقليدي. أو أن «تستر وتحجب» زيها الحديث بعباءة تقليدية، كما نشاهد كثيراً، وكأن الأزياء الحديثة، أو الحداثة عموماً، مجرد «عورة» وعلينا سترها طالما لا نستطيع حذفها.

هذا المجلد:

مثل غيره من مجلدات «قضايا وحوارات النهضة العربية» التي تتبعنا فيها الموضوعات الأخرى المثارة في هذه الفترة (١٨٠٠ـــ٢٠٠٠) تتبعنا هنا تتبعاً تاريخياً وحوارياً الحوار حول اللباس منذ القرن التاسع عشر، وبوبنا الموضوعات في أقسام ثلاثة:

١ـــ قضايا اللباس عموماً.

٢ـــ قضية العمامة والطربوش والقبعة.

٣ـــ قضية المشد «الكورسيه».

أما قضية الحجاب، فقد سبق أن قدمناها في مجلد «قضية المرأة».

نأمل أن يجد القارئ في هذا المجلد المتعة والفائدة والطرافة. كما نأمل أن لا تحجب طرافة الموضوع مدى عمقه وجديته وأبعاد دلالاته الفكرية والاجتماعية والتاريخية... والرمزية.

محمد كامل الخطيب

٢٠٠٨

قضية الملابس . . . عموماً

١. في الملابس العثمانية

من كتاب زبدة الصحائف في سياحة المعارف*

تأليف نوفل أفندي نعمة الله نوفل [١٨١٢ـ١٨٨٧]

وكانت الملابس العثمانية واسعة مثل ملابس العرب وكان السلطان عثمان الأول يتعمم على برك خراساني من الجوخ الأحمر ويلبس فراجية من الجوخ المذكور فلما أن تولى ابنهُ السلطان أرخان عقد مجلساً في بروسا لوضع بعض قوانين ونظامات كان من جملة ما ترتب فيه أن البُرك الأحمر يكون للعساكر وأما نفس السلطان وخواصه من الأعوان والأنصار الذين يطلق عليهم لقب عثمانية فيكون البرك الذي يلبسونهُ أبيض ومن ثم صار المتصفون بوصف عثمانية في الخدامات السلطانية المخصوصة يلبسون البرك الأبيض وأما العساكر المعروفون بالأفينجية والأتراك والأكراد فيلبسون البرك الأحمر ولكن ضباط العساكر يتعممون على أسكوف ذهب بعمائم معقدة غير أنهُ مع تمادي الزمان فسد زي تلك العمائم وكذلك الأسكوف صار على نوعٍ آخر وقال البكري في تاريخه أن البرك بضم الباء وسكون الراء يكون من اللباد الأبيض وينثني إلى خلف سمَّاهُ بذلك السلطان مراد الأول وهو أول من اتخذ اليكجرية أي العسكر الجديد من المماليك.

قال العلامة الفاضل خير الله أفندي وكانت تلك العمائم وقتئذ على نوعٍ ما بأهم من شرقي آسيا وقد نظرت عمائم مثل عمائمهم هذه الذي يتعمم بها اليوم أهل خراسان على رؤوس التصاوير التي توجد في خرابات مدينة تسمى جهل منار (أي الأربعين عموداً) كان افتتحها اسكندر المكدوني في بلاد العجم قبل الميلاد بأكثر مثلاثة قرون وحاصل الأمر أن هذا البرك كانت الروم تلبسهُ مذهبًا ويتعممون عليه ولذلك ترتب لهُ معامل مخصوصة في بيلجيك تصطنعهُ وتنسج أيضاً الشاش الذي يتعممون به عليه انتهى.

ثم لما أبطل السلطان محمود الثاني العساكر اليكجرية وغيرها من الوجاقات العسكرية القديمة أبطل أيضاً ما كانوا يلبسونهُ إلى عصرنا هذا من تلك الملابس الواسعة المذكورة وما كنا نراهُ من الفواويق المضرَّية التي كانوا يضعونها على رؤوسهم أشبه بالتيجان والعمائم التي كانوا يتعممون بها عليها من الشاش الأبيض وما كانوا يتعممون

* طبع هذا الكتاب في بيروت عام ١٨٧٣. (م.خ).

به أيضاً على الطرابيش الحمر من الشالات الكشميرية والأغاباني وغير ذلك وهكذا الفراجيات والشخاشير الحمر والنعال من التواسيم والبوابيج والخفاف الصفر وما كانت تحملهُ الغواصة الجاويشية بأياديها أمام الحكام من العصي المفضضة والجوكلانات ذوات الأجراس وما كانوا يتزينون بلبسه في أيام المواسم والأعياد والمواكب الحافلة من الكبابيت والسراويل المخمل الملون المقصبة والأسكوف المذهب وكان على شكل التاج اللباد الذي تلبسهُ اليوم الدراويش المولوية وشيءٌ من اللباد ينثني إلى خلف لكن تثنيتهُ تنسدل من أعلى الرأس إلى القدم وعرضها نحو شبر أو أزود لعلهُ البرك الذي مرَّ ذكرهُ وأبدل ذلك جميعهُ بالملابس الأوروبية الضيقة الملائمة لرشاقة الحركات العسكرية.

وحيث أن الرعية ترغب دائماً في تقليد راعيها بل والواجبات الوطنية تقتضي أيضاً بأن لا يكون بينهما ما يوجب الغرابة في العوائد والأخلاق أو ما يدل على تلك الفروق والتمييزات التي لا تصلح إلاَّ لترغيب الجيوش الغالبة في ابتداء الأمر وليس لها بعد ذلك شيءٌ من النتائج المستحسنة بل ربما كانت تستدعي النفور لكونها تشير دائماً إلى نكبة القسم المغلوب فلا يكون دأب الحاكم إلاَّ إصلاح ذات البين والمحافظة على الفريقين وتشغلهُ التعكيرات التي تحصل بين عياله من النوعين في الداخل عن الذي عنهما ووقايتهما من الأخطار التي يمكن حدوثها من الخارج قد كان يقتضي أن يعدّ من الفطنة وحسن الرأي ميل شعوب هذه المملكة إلى التزيي بزي أصحاب الحكومة كما أن علماء الدين منهم صغروا العمائم وضيقوا الفراجيات وأبدلوا النعال الحمر والصفر بالقوندرات (أي التواسيم السود) ويعتبر ذلك الجاحدي الوسائط التي من شأنها أن تساعد فيما يوجب الاتحاد وليس تفرنجاً كما زعمهُ البعض من الذين مع كونهم كانوا أول من غيروا زيهم ولبسوها من أهالي البلاد جرت أقلامهم بالاعتراض عليها بل كان ذلك من أهالي البلاد تعثمناً محضاً يظهرون به دلائل الحبّ لولاة أمورهم والرغبة فيما يستحقونه.

ومنهم من نسب ذلك إلى عدم الغيرة على شرف الوطن بالمحافظة على عوائد القديمة غير أنه لم يبين فيما كتبه أي نوعٍ من الملابس التي كانت مستعملة في بلادنا يرغب فيه ويريد أن يجعلهُ عادةً وطنية يجب احترامها ليكون تركهُ دناءةً وعدم غيرة هل هو لبس الكفافي والعقالات والكسا والعباءات. لكن على ظني ليس كذلك لكون هذا الزي هو مختص بالبدو وليس بالحضر ولا كذلك يريد لبس القواويق وما يتبعها مما حكم السلطان بإبطاله بل ربما يقصد بذلك الطربوش المشموط والزربول المقيطن للرجال والطنطور والعاقوص للنساء لكن هذا أيضاً لم يكن لبس جميع أهل البلاد قبل

الآن بل لبس قسم مخصوص منهم ومالي أعدد الملابس فإن كل إنسان يعرف كم من أنواع مختلفة من الملابس كانت موجودة في هذه البلاد وإلى كم من الصور تغيرت وتبدلت أقلهُ منذ دخول المصريين أراضي سوريا حتى الآن ولو حوفظ على استعمالها جميعها واحترامها كعادة وطنية لكانت سكان البلاد على اختلاف أنواع ملابسهم يشبهون المساخر الذين يلعبون الألعاب الهزلية في أيام المرافع أو الذين يتبدلون في ليالي الرقص المسماة عند الإفرنج بالبالو.

وهناك قول آخر ذكرهُ بعضهم في بعض مؤلفاته وهو الذي يجب الالتفات إليه دون غيره لأن ما فيه من التهديد المرهب كفاية لردع الناس عن المجاسرة على التلبس بهذه الملابس، وهو أن الإفرنج تنظر إليها وهي على أبناء العرب بعين الأسف كمن ينظر إلى الشيء الموضوع في غير محله وهذا أمرٌ في الحقيقة يستدعي الاعتذار عنه بجهل أهالي بلادنا قدر هذه الملابس لكونهم يتقنونها غاية الإتقان و لم يميزوا علاماتها الدالة على أنها موضوعة للفلاسفة كالبدلات الرسمية مثلاً التي لا يسوغ لبسها لغير أصحاب المراتب والوظائف الملكية والعسكرية ولعلهُ ساقهم إلى هذه الغباوة أيضاً ظنهم بأن هذه الملابس الضيقة كان اختراعها في الأصل شح الذين كانوا يتخذونها من الجلود ليقفزوا بها وقت الصيد خلف الحيوانات كي لا نقول أن أهالي ممالك بجملتها من سكان أوروبا هم والحالة هذه يلبسوها مع كونهم لا يمتازون عن بعض سكان غيرها إلا بكونهم منسوبين إلى قسمٍ من أقسام الأرض الذي يقوم التمدن في بعض أقاليمه وإن كانت بعيدةً عن أوطانهم.

وهنا لا بأس من سؤال نقدمهُ إلى المعترضين المذكورين وهو إذا كان الحال على هذا المنوال فما الذي صيرهم مع كل هذه الملاحظات الدقيقة أن يقدموا هم ذواتهم على لبس هذه الملابس وعلى ظني أنهم يجاوبوننا لهم حق الاستثناء لارتفاع منزلتهم في التمدن ومساواتهم أهالي أوروبا في العلوم والمعارف. نعم نحن لا نستطيع أن ننكر عليهم ذلك لكن ترى هل يحق لعربيٍّ أن يطمع بتنازل أحد من الإفرنج لشهادة حسنة مثل هذه بحقه حالة كونهم يجحدون ما لسلفائنا من الأيادي البيض عليهم ويدعون أنهم لقنوهم علوماً فاسدة أتعبوهم فيما بعد بإصلاحها وكبدوهم أثقالاً في إزالة غلطاتهم وهو والحالة هذه إذا أكلوا طعامنا تشكوا إذا لم يجدوا لهُ ذنباً يشينهُ من ثقله على معدهم لكثرة دسمة ولذة طعمه أو باتوا على فراشنا و لم ينكد عليهم برغوث أدعوا أضراراً تسببت لهم من استغراقهم في النوم لزيادة ليونته وإذا نشروا عنا أخباراً في

رحلاتهم لا بدّ أن يمزجوا ما لا يمكنهم إنكارهُ بما يشوب إكرامنا إياهم بخلل أقلـهُ أن طاولتنا كانت توضع أمامهم منحرفة أو إذا بعثوا إلى بلادهم بشيء من آثارنا بحثوا عن أراكيل القهاوي الدنية وما شاكلها أو عينات من الملبوسات القديمة كطربوش مشموط أو طنطور وما هو من أمثال ذلك ويملأُون منها صناديق يرسلونها إلى بلادهم تتـوزع على أصدقائهم فيظهر لديهم كم هم يقاسون من معاشرتنا ويكابدون مشاقاً في إصلاح أحوالنا فعوايدنا القديمة ينكرون عليها وإصلاحاتنا الجديدة يستخسرونها بنا ونحـن لا نقابلهم إلاَّ بما يجب على التلامذة أن يعاملوا به معلميهم من الاحترام ولا نذكر شيئاً مما كانوا عليه منذ زمن ليس ببعيد حتى ولا نقابل شيئاً من زينا القـديم الـذي لا زالـوا يهزأون بنا بسببه أقلما يكون بتلك الربائط التي كانوا يعلقون بها بنطلوناتهم في أعناقهم منذ خمسين سنة بل نقرع بعضنا بهم ونطلب المسابقة معهم فيما يفاخروننا به من الخطة التي حصلوا عليها بعد جهد بليغ استغرق نحو سبعمائة سنة نحن الذين لم نخـرج مـن المغاير وثقوب الأرض إلا من نحو ثلاثين سنة ضاع أكثرها في طفولية النعم التي سكبتها علينا دولتنا العلية وإذا كان أحد من الشبان بيننا يجهل ذلك فليسـأل أبـاهُ ليخـبرهُ ومشايخهُ ليقولوا لهُ.

ولنختتم كلامنا مع المعترضين الذين أشرنا إليهم بالرجا أن لا يتهددونا إذاً بغيظ الإفرنج عندما يرونا لابسين حلل مجدهم فإن هذا الأمر اعتدنا عليه منهم بل يحثون أبناء وطنهم بما عندهم من الاستعداد الطبيعي للوصول بأقرب وقت إلى تلك الخطـة الـتي وصل إليها غيرهم ويشهد لهم بذلك التقدم الذي بلغوهُ بهذه السنين القليلـة مـع أن غيرهم لم يحصل عليه إلا بأتعاب جزيلة وسنين طويلة وإن كان هو علـى الغالـب في أمور ظاهرية إذ من المعلوم أن المبادئ يجب أن تكون على هذه الطريقة وأول ما يميـل إليه ذوق الإنسان هو التقاليد المنظورة التي بها تتم وحدة الشعب في العوائد والأخـلاق ومنها يتدرجون إلى ما هو فوق ذلك من الأمور العقلية التي يضطرهم حينئذ إلى البحث عنها والاحتياج إليها إذ لا يخفى بأن أول حجر طرح في أساس التمدن هـو التعـاون والتكاتف ورباط الوحدة والاتفاق ثم حصل الاستدراج في طلب الاحتياجات من عمل الأخصاص للوقاية من حرّ الشمس إلى البحث أخيراً عن مقدرا جرمها وبالتبعية إلى ما هو الآن معروف من أعظم الاستكشافات ومدروك من أسرار الطبيعة.

نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي

المصدر: مجلة الجنان ــ بيروت ــ السنة الأولى ــ ج٩ ــ ١٨٧٠.

٢. الملبوس عند العرب والإفرنج

المعلم بطرس البستاني [١٨١٩ـ١٨٨٣]

ممّا اختلفت فيه العرب والإفرنج أمر الملبوس، وعلى الخصوص من جهة ضيقه عند الإفرنج، واتساعه عند العرب. ولا يخفى أنّ المقصود الأصلي من اللُبس، إنّما هو وقاية الجسم الإنساني من البرد والحر، وستره عن النّظر؛ ولهذا كان لكلّ بلاد وفصل ملبوسٌ يوافقه؛ وربّما كان ملبوس كلّ فريق أكثر موافقة لبلاده من ملبوس الفريق الآخر؛ وملبوس الإفرنج الضيّق، يوافق حركتهم السّريعة النّاتجة عن شدّة اعتبارهم لقيمة الوقت، أو حرصهم؛ وملبوس العرب الواسع يوافق حركتهم البطيئة، النّاتجة عن عدم اعتبارهم لقيمة الوقت، وقلة مطامعهم، أو من تغليبهم أمر الرّزانة الأدبيّة، على الرّزانة الطّبيعيّة. ولولا ذلك لما رأيناهم يصرفون جزءاً كبيراً من حياتهم على الطّريق. ولكنّ مزاحمات الإفرنج ساعيةٌ في إثرهم، وستعلّمهم بعد قليلٍ، أنه يفوتهم منافع ومكاسب كثيرةٌ، من بطء حركتهم. وقد ورد في التّواريخ أنّ ملوك القساة كانوا إذا أرادوا قهر رعاياهم وإذلالهم، يلبسونهم اللّبس الطّويل الواسع، لكي يفقدوا بذلك حميّة الرّجال، ونشاطهم، وشجاعتهم. ثمّ ممّا خالف فيه الإفرنج العرب في أمر الملبوس، أنهم يعتنون اعتناءً تاماً، بتدفئة أيديهم بلبس الكفوف، وأرجلهم بلبس الجوارب، ويتركون رؤوسهم مكشوفةً لعناية الطّبيعة؛ خلافاً للعرب، فإنّهم يدفئون رؤوسهم بلبس العراقيّة، ثمّ اللّبادة، ثمّ الطّربوش، ثم العمامة، ويتركون أرجلهم مجردة تهتم بنفسها. ولهذا نظن أن النزولات تأتي الإفرنج من رؤوسهم والعرب من أرجلهم. وربّما كان ما حمل الإفرنج على عادتهم، معرفتهم أن القلب الذي منه يتوزّع الدّم، مصدر الحرارة إلى باقي الأعضاء، هو أقرب إلى الرّأس من الأطراف، وأقل احتياجاً إلى التدفئة؛ فضلاً عن الكساء الطبيعي الذي كساه الله به؛ وبناءً على هذه العادة نرى الإفرنج يدخلون البيوت بأحذيتهم، مكشوفي الرؤوس، خلافاً للعرب فإن الأمر هو بعكس ذلك عندهم. ولا ريب أن عادة الإفرنج، تنافي مبادئ النظافة ولا سيما عند العرب الذين من عاداتهم الجارية الجلوس على الأرض، في المكان الذي يطأونه بأقدامهم؛ فضلاً عن أن أكثرهم يحسبون النّعل مع ما يحمله من الأقذار ينجس ما لامسه. ومن الواضح أن ملبوس رجال الإفرنج ليس في شيءٍ من الظّرف، وما تجاوز منه حدود الاعتدال في القصر والضّيق، بحيث لا يستر من الجسم إلا لونه، شنيع في الغاية، ومضادٌّ للحشمة والأدب، لأنه يفي

بحق الوقاية، ولا يفي بحقّ السُّترة، خلافاً لملبوس العرب. وكنت أريد أن أقطع عرضاً من جُبّة العرب، فأصل به طول جبَّة الإفرنج، التي لا تصل عند البعض إلا إلى ما فوق العجز، وأن أفتق عرضين من سروال العرب، لأصل بهما عرض «البنطلون» الإفرنجي لعلّنا حينئذ نصل إلى ملبوس معتدل، وموافق للفريقين. على أننا نقول إنّ اللّبس في نفسه ليس شيئاً، بالنّظر إلى حقيقة الإنسان. وأحبُّ إليّ أن أرى إفرنجياً في تمدُّنه بلبس عربي، من أن أرى عربياً غير مُتمدّن بلبس إفرنجيّ!...

بطرس البستاني

المصدر: من كتاب المشوق.

٣- اللباس والعمران

المقتطف

حدثنا ثقة من أبناء هذه العاصمة قال: كان لي تجارة واسعة وكنت أضطرُّ إلى مراجعة المحافظة في مسائل كثيرة فأبعث إليها بخادم مالطي كان عندي فيقضي أشغالي على أتم المرام. وذات يوم بدا لي شغل ظننتهُ مشكلاً كبيراً لا يستطيع الخادم حله فمضيت بنفسي ومضى الخادم معي وأنا بالقفطان البلدي والفرجية وهو باللباس الإفرنجي. فلما وصل إلى الباب دخل أمامي والبواب ينظر إليه بالخشوع والإكرام وأردتُ الدخول وراءه فمنعني البواب فوقفت وأنا لا أدري ما السبب. ولما قلت له إني آت لأرى المحافظ شتمني وأغلق الباب في وجهي. والتفت خادمي ورأى أنني لم أدخل وراءه فعاد إليّ وأمر البواب أن يفتح لي الباب وقال له إني سيدهُ. فوقف مبهوتاً وهو لا يصدق ما يسمع واتضح لي حينئذ أن لباسي البلدي جنى عليَّ فعدت من المحافظة إلى مخزن الثياب الإفرنجية ولم أعد ألبس غيرها بعد ذلك اليوم.

ولقد لقينا قُبيل كتابة هذه السطور رجلاً من مسلمي الهند درس وتفقّه في المدارس العليا واطّلع على تواريخ الأمم وأحوالها فسألناه مسائل شتّى عن أحوال بلاده وعن اللباس الذي يلبسه الآن جمهور الرجال الذين تعلموا في أوروبا أو في المدارس الكبيرة المنشأة حديثاً في بلاد الهند فعلمنا منه أن كثيرين منهم اختاروا اللباس الأوروبي لا لأنه أصلح من اللباس الهندي في بلاد الهند ولا لمجرّد التمثّل بالأوروبيين بل لأنهم وجدوا بالاختيار أن من يلبس اللباس الأوروبي يكرم عند قومه وعند الأجانب أكثر مما يكرم أقرانه الذين يلبسون اللباس الأهلي. أي أن أهالي الهند جارون على الخطة التي جرى عليها أهالي مصر وأهالي الشام مع أن الأوروبيين الذين نزلوا بلادهم نفرٌ قليل جدّاً لا يعبأ به بالنسبة إلى عديدهم.

ثم التفتنا إلى بلاد يابان البلاد التي تفتخر بأنها وقفت على رجليها غير معتمدة على غيرها فوجدنا أن لأهاليها لباساً خاصاً تفننوا في إتقانه وزخرفته كما ترى في الصورتين التاليتين وهما صورة الإمبراطور والإمبراطورة باللباس الوطني لكنهم لم يبقوا عليه بل أبدلوه باللباس الأوروبي الكامل فالرجال من الطبقات العليا والوسطى لبسوا كلهم اللباس الأوروبي هم ونساؤهم وكذلك رجال الحكومة على اختلاف طبقاتهم ورجال الجيش والبوليس. وكل رجال البلاد لا يدخلون قصر الإمبراطور

إلاّ باللباس الأوروبي الرسمي والإمبراطورة لا تستقبل نساء اليابانيين إلاّ وهنّ لابسات لباساً أوروبيّاً.

ويذكر سكان هذه العاصمة أن ملك سيام ورجاله كانوا يلبسون اللباس الأوروبي لما مرُّوا بالقطر المصري حتى أن الناظر إليهم لم يكن يفرق بينهم وبين أناس من الأوروبيين السمر الألوان مع أن لباس السياميين الوطني بعيد بعداً شاسعاً عن اللباس الأوروبي كما ترى في الصورة ملكة سيام المرسوم في الصفحة /١١٤/من المجلد التاسع عشر.

وواضح أن بلاد يابان وبلاد سيام اللتين لبس رجالهما اللباس الأوروبي مقتفيتان خطوات الأوروبيين أكثر من الممالك الشرقية وقد ارتقتا أكثر منها كلها أما بلاد الصين وهي اكبر منهما وأغنى وأقدم عمراناً فلم تقتف خطوات الأوروبيين في شيء حتى الآن ولا يزال رجالها ونساؤُها باللباس الوطني القديم الدال على الراحة والرفاهة كما ترى في الصورتين التاليتين وهما صورة أم إمبراطور الصين وصورة البرنس كنغ عمه والتشابه واضح بين لباس الرجال ولباس النساء فلا عجب إذا تشابه الفريقان في حب السكينة وكراهة الحركة.

فعلى مَ دخل الإسكندر ذو القرنين بلاد الفرس فلبس لباس أهلها وهو فاتح ظافر وأقام بنو العباس في العراق فلبسوا لباس أهله من القلانس والطيالس وأما الأوروبيين فيقتدى بهم ولا يقتدون بأحد.

والمعتبر في ذلك لبس الرجال لا لبس النساء لأن للبس الرجال صورة معلومةً محدودةً وأما لبس النساء فلم يزل كثير التغُّير والتقلب وهو يزيد تغيراً وتقلباً كل يوم وينظر فيه إلى الزينة والزخرفة أكثر مما ينظر إلى الفائدة. أما لبس الرجال فيقتصر النظر فيه على الفائدة والامتياز. فإذا نظرنا إلى الأمر الأول أي الفائدة لم نجد اثنين يختلفان في أن الرجل يستسهل العمل والانتقال وهو لابس لباساً أوروبياً أكثر مما يستسهلهما وهو لابس ثياباً واسعة الأردان طويلة الأذيال تعيقهُ في حركاته. فكأن الناموس الطبيعي القاضي بتغلُّب أصلح الأمرين قضى بتغلب اللباس الأوروبي على اللباس الشرقي إذا كان الإنسان مضطرّاً إلى السعي. ولقد كان الموجب الأول لاختلاف اللباس وكونه ضيقاً أو واسعاً برد الأقاليم الشمالية وحر الأقاليم الجنوبية. فأهالي الشمال اضطروا أن يلفُّوا أبدانهم بثيابهم لفّاً لكي لا يدخل الهواء البارد إليها وأهالي الجنوب اقتصروا على ما يظلل أبدانهم من حر الشمس ولا يمنع دخول الهواء إليها لتبريدها. ولا يزال الحرُّ على

حاله في الأقاليم الحارَّة ولكن اللباس الأوروبي المصنوع من نسيج حريري أو قطني رقيق يقي منه ولا يعيق الإنسان عن الحركة فتكون قد اجتمعت فيه المزيتان كما أن اللباس الأوروبي المصنوع من نسيج صوفي سميك يقي من البرد ولا يعيق عن الحركة.

هذا من حيث الفائدة. أما الامتياز وهو الغرض الأول من اللباس كما أبنّا في مقالة مسهبة موضوعها «من الحلى إلى الحلل» فقد اعترف الشرقيون رغماً عنهم أن الأوروبيين فاقوهم في العلوم والفنون وأنهم ممتازون عليهم حتى في بلادهم. فالأوروبي مرعي الجانب أكثر من الوطني في هذا القطر وفي غيره من الأقطار الشرقية وما القصة التي أوردناها في صدر هذه المقالة سوى مثال على ما يحدث كل يوم في المجالس والمخازن والبيوت والحوانيت. أي إذا تساوى اثنان عقلاً وعلماً ومالاً وجاهاً وكان أحدهما باللباس الأوروبي والآخر باللباس الوطني أكرم الأول أكثر مما يكرم الثاني. ولا عبرة بأفراد قلائل من ذوي المقامات العليا الذين يقضي عليهم مقامهم بنبس اللباس الوطني فإن الذي يعرفهم يكرمهم بحسب منزلتهم سواءٌ لبسوا لباساً أوروبياً أو وطنيّاً بل لا يكرمون باللباس الأوروبي كأن اللباس الوطني لا يزال شعاراً مميزاً لهم.

هذا ما يراه كل أحد ولا سبيل لإنكاره ولا لتغييره. والحكيم من جرى على مقتضى الحال وتشبّه بالممتازين حتى لا تبقى لهم مزية عليه. ولكن قضى سوءُ الطالع أو شور الذين ينوون الشرّ للمشرق أن أصرّ ولاة الأمر عندنا على إبقاء مزية يفرق بها بين الوطني والأجنبي وهي «الطربوش» وزين لهم أنه إذا لبس الأوروبي المنتظم في خدمتهم طربوشاً مثلهم كان ذلك علامة ظاهرة على خضوعه لهم. ولا ندري كيف جازت عليهم هذه الحيلة بل هذه الأضلولة وقد كان الأجدر بهم أن يقولوا للأوروبيين إننا رأينا سفنكم أصلح من سفننا فأبدلنا سفننا بها ، رأينا مركباتكم أصلح من مركباتنا فأبدلنا مركباتنا بها وجاريناكم في محاكمنا ومجالسنا ومدارسنا وبيوتنا ومنتدياتنا وأكثر أمورنا فعلى مَ لا نبدل لباس الرأس وهو أسهل إبدالاً من غيره ونحن أنفسنا قد أبدلناه مراراً فلبسنا العمائم والقلانس والطرابيش المغربية والإسلامبولية وترانا نتفنن في هذه فتكون تارة لاصقة بالرأس وطوراً مرتفعة فوقهُ نصف متر والعذبة العالقة بها تطول مرةً وتقصر أخرى وكلها ليس مما يقي الرأس من حر الشمس فلا تفي بالغرض الذي وضعت لهُ.

وخلاصة القول إننا اتصلنا بالأوروبيين ونقلنا عنهم العلوم والفنون وأخذنا منهم الآلات البخارية والكهربائية على تنوُّع أشكالها واختلاف أغراضها واعترفنا لهم بالتقدُّم

علينا واقتدينا بهم في أمور كثيرة لا تنفعنا بل تضرُّهم وتضرُّنا فعلى مَ لا نتمثل بهم في أمور أخرى نافعة بنفسها لهم ولنا وبها يزول امتيازهم الظاهر علينا. ولو استطعنا أن نقنع الأوروبيين ليتمثلوا بنا في كل شيء لكان ذلك أشرف لنا وأدلَّ على امتيازنا عليهم ولكننا لم نستطع ذلك ولن نستطيعهُ فعلى مَ نحاول المحال ونعاف الاقتداء بهم في أمور تنفعنا ولا تضرُّنا.

وغنيٌّ عن البيان أن الاقتداء بهم في اللباس لا يكفي ولا يغني عن الاقتداء بهم في العلم والعرفان والجد والاجتهاد ولكن الاقتداء في اللباس لا بدّ منه إذا أردنا أن نسهل على أنفسنا وأبنائنا سبل السعي ولا نبقي للأوروبيين مزيةً عنينا.

المقتطف

المصدر: مجلة المقتطف ــ ١ حزيران ١٩٠٠ ــ المجلد ٢٤ ــ ج٦.

٤. تغيير الزي الأوروبي

مصطفى بن إسماعيل

فأول الفرائض وجوباً على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها خاصتهم وعامتهم أن يترعوا الزي الأوروبي ويتجملوا بزي الإسلام على الوجه المألوف في شعار أسلافهم. قال عليه الصلاة والسلام: «الهيبة في اللحية والعمامة»، وقال عليه السلام: «تعمموا فإن الملائكة تعممت»، وقد ورد في الأثر أن الملائكة نزلت يوم بدر بعمائم صفر. كما ورد أنه لا يفرق بيننا وبين المشركين إلا العمائم على القلانس. وليس يخفى بأدنى تأمل أن انتشار زي الأعداء بين المسلمين، كان الوسيلة العظمى لتشرب المسلمين بمشاربهم، والأخذ بأهوائهم وانبثاث رذائل مألوفاتهم وقبائح عاداتهم بينهم ثم انحدار ثروتهم إليهم من طريق تكالبهم على التقليد الأعمى في زخارفهم الباطلة، وفي الفاسد من تأنقاتهم العاطلة في سائر المقتنيات حتى وقفوا حيارى في تيه هذا الضلال والخذلان الذي هم عليه الآن ولا نصير لهم. قال الله تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير﴾.

ففي تغيير الزي والقناعة بحلية الكمال والاعتدال مما لدينا في ديارنا أو في ديار من تضمنا بهم جامعة الدين تتمثل حكمة التعطيل على الأعداء في متاجرهم وفتح أبواب الرواج للمسلمين بتبادل المنافع بينهم. ولا يخفى أن المسلمين مأمورون بمتابعة العمل في بوار سوق الأعداء والتنكيل بمهامهم وأمورهم. فانتقال الهيئة إلى زي الأسلاف الذي يوجبه الشرع لمن الأمور الرأسية والمواد الأساسية التي تهيئ شيئاً عظيماً من الانكماش عند الأعداء وتبعث روح الانتعاش في رونق ظهور المسلمين ووجودهم فضلاً عن كونها تزيل أثر التأويل الذي ترجع نتيجته عند أرباب العقول من المؤمنين بتوجيه اللوم والتأنيب على هذه المخالفة التي من شأنها العلم برجوع أمراء المسلمين وقاعدة شؤونهم وسؤاس مصالحهم عن سيرة أسلافهم وإهانة مألوفاتهم التي تأصلت بينهم قاعدة تتخذ بعدهم الحرص والاحترام.

فإن قال قائل إن التشبه بزي الإفرنج ليس من الدين في شيء وإنه لا بأس به ما دام استعماله قد خرج مخرج العادة والتصميم، قيل له إن الاعتبار إنما يقع على مورد الفائدة التي انتزعت من أيدي المسلمين وتحول مجراها إلى أيدي أعدائهم. ويا للعجب كيف لم تحسوا يا

أيها الناس وكلكم من الحيوان الحساس بأضرار هذه البانطالونات والفساتين وأدواتها من تلك الملابس الضيقة التي أزهقت الأرواح، واستوقفت الدم في مجراه في مناطقنا هذه الملتهبة. وذهبت برونق الهيبة والوقار، وتساوى فيها الجليل براعي الخنازير والخمار، وحملت المسلمين على استصعاب النظافة والوضوء، وساعدتهم على ارتكاب السهو عن العبادة والصلاة، ورجعت بهم إلى النجاسة الكلابية المطلقة باستحساس التبول وقضاء الحاجة وهم وقوف بلا استطابة ولا استبراء وألجأتهم باخمنة إلى نبذ تلك الآداب التي ازدهت الحنيفية بجمالها، وتطهرت بكمالها، وازينت بمكارمها الحسناء؟!!

وهل تجهلون أن هذا التشبه الممقوت قد استلزم منا فوق ذلك واقتضى سرعة التدرج إلى ما سواه من العادات والأخلاق التي تطور الغربيون بها واستمدوا نشأتها عندهم من حرية الفسق والفساد فلم تشرأب نفوسنا إلا إلى ما زاد في القبح منها واسترذل ضرورة النفوس إذا لم تلق ضابطاً ممن أقامهم الله لمراقبتها بما في أيديهم من شريعة الاستقامة والصلاح فلا تأمر ذويها إلا بالسوء ولا تتطلع إلا إلى الباطل العاطل وما يشين؟

وإننا نناشدكم الحق يا أولي البصائر والأبصار أن تلقوا النظرة منكم إلى ما قارب عدده عدد المنازل والبيوت من تلك القهاوي والبارات منتديات اللعب والنزلات، ومراسح اللهو والغفلات، ومجالس الهوى والسيئات، ومجامع الفسوق والمنكرات في منعرجات الأزبكية ومنعطفاتها، وشوارع المدينة وفسحاتها وفي غيرها من أمصار المسلمين وبقاعهم التي فاقت من بينها البقعة الرئيسية بتلك الخمامات المخصوصة وقد فتحت أبوابها لأولئك المجرمين من بقية قوم لوط الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء في حجراتها بالليل والنهار بلا خشية ولا استحياء حتى أغلق الله علينا أبواب الرضا والرحمات.

فإذا تحققتم أن المزارع وعرق جبينه، والصانع وأرباح كده، والكاتب ومحاصيل عمله، والرئيس ومجموع رواتبه، والموسر وخزائن ثروته، وحديث العهد بفقد الآباء ومدخرات إرثه، والتاجر ومكاسب بضاعته، والمؤدب وثمرة عنائه، والطالب والتلميذ ودريهمات توفيره ومن عداهم من سكان المنازل والأحياء على اختلاف الطبقات ينسلون إليها زرافات ووحداناً، وطوائف وأحزاباً من كل حدب ليتعارفوا بينهم في شهوة التبديد والتلف حتى مطلق الفجر من كل ليلة على حافات تلك البالوعات السحيقة التي احتفرها لهلاكهم ذلك الأجنبي النازح، والغريب الكادح بين رنين الطاس، وتبادل القدح والكأس، والفحش بالفتيان والفتيات، ومخادنة البغايا من

الراقصات والمغنيات حتى في شهر عبادتهم رمضان وأيام أعيادهم الغر التي هدموا فيها سنة الائتناس بالتزاور وتبادل المعروف والإحسان ببشر المحيا وطلاقة الوجوه: فاعلموا أن كل هذا الهم والبلاء، والخراب والعناء، والرزيلة والفحشاء، والخسران والشقاء، والهرج والغوغاء في عرف هؤلاء المساكين وفي اعتقاد المسيطرين على المسلمين معناه ذلك الارتقاء الذي ندعي أننا اكتسبناه، والمدنية العصرية التي نفتخر بها، وفوائد تعميم التعليم الذي نحث عليه، والحرية التي تطير فرحاً بها عند ذكرها، ولكن أليست هذه كلها هي الوبال المر والنكال الوبيل رأس الخطايا، وأصر الرزايا في تلف الأخلاق والأموال بعد أن ألبسنا الغربيون السترة والبانطلون، والكورسه والفستون، وخناق الرقبة والقميص، الذي ليس لنا عنه في هذا التقمط من محيص؟

فبهذا الاعتبار صار الزي محرجة من أشد محرجات الدين وذريعة عظمى لتقوية الأعداء واستظهارهم على المسلمين، ولا جرم أنه يدخل في عموم النهي والاستحراج، ولا يستحسن أبداً في نظر ما عندنا من دقائق كمالات الشرعة والمنهاج، وليت شعرنا ما هو المجبر على حصر التقليد منا في رزائل اهل الغرب حتى في الزي الذي ذهب بالدنيا والدين يا أرباب الشؤون؟ هذا الدين الحنيف الذي علم سوّاس الإفرنج أنه لا يهدمنا القوي إلا هدم أركانه بيننا فتذرعوا بالزي وحرية المفاسد فأصبحنا لا أولى ولا آخرة كما ترى. فما لكم كيف تحكمون يا أرباب الشؤون في شؤون الورى؟!!

مصطفى بن اسماعيل

المصدر: من كتاب الهدية الأولى الإسلامية للملوك والأمراء في الداء والدواء، تأليف: السيّد مصطفى بن إسماعيل المصري مولداً الأباضي مذهباً، تطلب الهدية من مهديها بعطفة الجن علي منزل نمرة ٢٠، أمام نظارة الحلمية بالقاهرة، متى علم القارئ سر الخدمة العامة لمصلحة المسلمين وجب عليه الاشتراك فيها. بتقدير قيمة النسخة على نسبة هذا العلم يعني نريد تعميم هذه الهدية لجميع المسلمين، لا ربح الله من اقتنى هذه الهدية عارية عن هذا الختم، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، طبع بالمطبعة البارونية بالجودرية بمصر.

٥. آفة الأزياء

الخوري مارون غصن[1]

نظرة أيها القارئ الكريم، إلى الشوارع والمجتمعات، فترى ما يحمر منه محيا الإنسانية، ويندى له جبين الأدب. نساءٌ متبرجات، وفتيات مستفخلات، يخطرن في الطرق حاسرات عن الرؤوس، كاشفات عن الزنود، لابسات ثياباً قصيرة شفافة. هذا شيءٌ من وصف الأزياء الحاضرة، التي تخطّت إلى العدد الكبير من ربات الحجال، فتفاقم الشر وكبر الخوف على أسوار الآداب أن تتهدم وألوية العفاف أن تتمزق.

فأين الصحف الساهرة على الأخلاق، وأين المجلات المنيرة العقول؟ بل أين الخطباء والوعاظ من كل أمة، فيحملوا حملة رجل واحد، ويدفعوا وباء هذه الأزياء المؤدية إلى خراب البيوت؟

ومن منا لا يذكر تلك الحرب الضروس التي عم فيها البلاء! أياماً ثبت فيها بعض نساء بلادنا، حتى في أحرج الأوقات، مثابرات على المغالاة في إنفاق المال على الزينة، غير مصغيات إلى أنين الأطفال، ولا مشفقات على عويل الأرامل؟ فهذي، وأيم الحق، الآفة الكبرى، والبلية العظمى. أجل، وأية بلية اكبر من تدرج الفتاة، بسبب هذه الأزياء، إلى خسارة الحشمة، وأية آفة أعظم من تبذير مال نحصله بعرق الجبين، فننفقه على هدم أسوار الشبيبة، ولاسيما ونحن الآن خارجون من حرب أفرغت الجيوب، وخربت البيوت؟

وكأني بالسيدات يعترضن علي قائلات: «ما ذنبنا؟ فهل نحن اخترعنا هذه الأزياء؟ لا! لكننا، مع اطلاعنا على مضارها، لا يمكننا إلا أن نخضع لسلطانها، فإن لها

---

[1] الخوري مارون غصن: هو من مشاهير الأدباء في لبنان وهو ناثر وشاعر. ولد في بيروت سنة ١٨٨١. تلقى دروسه في مدرسة المرسلين اللبنانيين قرب جونية. درّس البيان في مدرسة الحكمة، والخطابة في كلية القديس يوسف ببيروت مدة طويلة. ثم عين زائراً عاماً لأبرشية بيروت. في سنة ١٩٣٠ تولى إدارة الدروس العربية في مدرسة عيضورة للآباء اللعازريين. له مقالات وقصائد عديدة في جريدة البشير ومجلة المشرق وله عدة روايات قصصية وتمثيلية. سنة ١٩٣٤ نشر مجموعة قصائد بعضها ملحّن وعنوانها «صفحة من سفر النشيد في لبنان».

سطوة أشد من سطوة الملوك الفاتحين! فإذا خالفناها، قامت علينا أنصارها، فحطوا من قدرنا، وعرضوا بناتنا للبوار! فلا يسعنا إذاً، إلا أن ننقاد لها، وما علينا في ذلك إثمٌ ولا حرجٌ؛ لأنَّ نياتنا سليمةٌ وقلوبنا طاهرةٌ».

فهذه أعذارٌ لا تجدي فتيلاً. ولقد كان الأجدر بالسيدات أن يعترفن بأن التدلل هو الدافع لهن إلى مجاراة الأزياء؛ أو قل: «هو الحياءُ البشريُّ يعوقهن عن الإصغاء إلى صوت الضمير، ويصدهنّ عن التصون بثياب العفاف والاحتشام!». لكن هذا الحياء لا يعذر النساء الصالحات والفتيات التّقيّات؛ وإن النية السليمة التي يدعين بها، لا تبرئُ ساحتهنّ من تبعة العواطف الخبيثة التي تتحرك في قلوب الناظرين.

أما ادعاء المرأة أو الفتاة بأنها تعرض نفسها للهزء، إذا لم تجر على الأزياء، فتلك دعوى باطلة. وهؤلاء السيدات في فرنسة من أشرف الأسر وأوفرها ثروةً، يلبسن الثياب البسيطة. أما ما نراه من الأزياء الخلاعية في صحف الأزياء، فليس هو للسيدات الكريمات، بل معظمه لنساء المراقص والخلاعة!.

مارون غصن

المصدر: المشوق [هو كتاب مختارات تعليمية في عدة أجزاء كان دارجاً في النصف الأول من القرن العشرين في بلاد الشام].

٦. الأزياء الفكرية

عفيفة الشرتوني[١]

الناس فريقان: أحدهما قائدٌ والآخر مقودٌ، أو أحدهما جارٌّ والآخر مجرورٌ، أو أحدهما مبتدعٌ والآخر متّبعٌ. أما الفريق الأول فقليلٌ لا يكاد يحسب شيئاً بإزاء الفريق الثاني، من حيث العدد؛ ولكنه يتنزل منه منزلة الرأس من البدن. ومن هذا الفريق: أصحاب الشرائع، وأصحاب البدع والمذاهب، ومستنبطو العلوم والصنائع، وأهل الرأي والتدبير ومخترعو الأزياء (الموض).

فالذي يخترع زيّاً جديداً إنما يكون واحداً، وهذا الواحد يجر وراءه خلقاً كثيراً، كلهم كالمعطوف على المجرور الأول؛ فيتركون الزي الذي كان مألوفاً عندهم، ويستعملون الزي الجديد؛ ولو ألجأهم ذلك، إلى دفع مال هم في غنًى عن دفعه. ومن ثم صرت ترى الشبان والشوابّ، ومن هم أسنّ منهم، منهمكين بأمر الزي! فاشتد الطلب لذلك على الخياطين، والخياطات، ومعامل النسج، وتجار المنسوجات، وأصبح من يلبس الزي الأخير، في مرتبة عالية في عيون الناس، ولاسيما الفتية والفتيات! وقد اتسع التفاخر في الزي، حتى اتصل إلى رواج سوق الحذائين، والمنجدين، والصاغة، وصناع الكراسي والمقاعد! فترى الفتاة تغتمُّ، إذا قيل لها بطل زي هذه الأسورة، أو إن زي أثاثكم قدِم؛ فتبادر هذه إلى والدها طالبة منه أن يبيع الأسورة، ويشتري لها أسورةً غيرها على الصياغة الجديدة. والمرأة تطلب من رجلها أن يبدل الأثاث، وإن ثميناً جميل الهيئة، موافقاً لما يقصد به، بأثاث يكون قد درج حديثاً. وكل هذا على ما به من الكلفة، وبذل المال، بطرٌ أيسر خطباً من الإتيان بأفكار جديدة عليلة، تبطل أفكاراً قديمة صحيحةً، كما هو الحال في هذه الناحية؛ فإنك لترى كثيراً من الخلقِ، يخرجون كل ما عندهم من المبادئ الصحيحة القديمة؛ إذا ذكرت لهم مبادئ جديدةً، كأنهم يعتقدون أن الحقيقة تبليها الأيام، ويفنيها تطاول الأعوام! وذلك ما لا يكون، إلا متى صار مجموع أربعة وأربعة تسعة، أو سبعة؛ أو متى صار أديم الزرقاء مضماراً تتسابق فيه الجياد، أو متى نبت الزهر في السماء، وطلعنا لزهر في الغبراء.

عفيفة الشرتوني

المصدر: المشوق

---

[١] هي بنت الأديب الشهير سعيد الخوري الشرتوني. ولدت في بيروت سنة ١٨٨٦ وتوفيت سنة ١٩٠٦. خرجها أبوها في الإنشاء العربي، فنشرت عدة مقالات في المجلات، وقد جمعت مقالاتها ومقالات أختها أنيسة في كتاب «نفحة الوردتين».

٧- الملابس والعمائم[1]

عبد القادر المغربي [١٨٦٧ــ١٩٥٦]

كان فيما اقتبسه الشرقيون من عادات الإفرنج لهذه الأزمنة المتأخرة ــ الثياب وضروب الملابس وأزياء الارتداء بها: فبعد أن كانوا يلبسون القفاطين الضافية والجبب السابغة والسراويل المخرفجة (الواسعة) أخذ الكثير منهم في لبس الجاكيت والبنطلون والبردسي وما ماثلها من الأردية المحزقة والسراويلات الضيقة. ولم نكتف بذلك حتى غيرنا لبوس الرأس أيضاً فنزعنا العمائم واستبدلنا الطرابيش بل والبرانيط ــ بها.

واللباس عند العرب في الأعم الأغلب إزاء يعقدونه في أوساطهم ورداء يلقونه على أكتافهم فيسترسل على ظهورهم إلى ما يلي أحقائهم. ويقال لمجموع الإزار والرداء حلة. وكان العرب يلبسون المخيط كما كانوا يشتملون بالبرودن والمطارف مما لم يكن مخيطاً. وإذا أردنا أن نعرف أزياء العرب في ملابسهم وهيئاتهم في احتبائهم واشتمالهم (لبس الشملة) وأشكال أقبيتهم وعباآتهم ــ عسر علينا ذلك أو أشكل علينا فهمه. فلا كتب اللغة تصفه لنا وصفاً دقيقاً، ولا كتب التاريخ تشرحه شرحاً وافياً. ولا شيء يصف الألبسة وأزياءها وكيفية لبسها مثل التصوير والرسم والنحت. وهذه الفنون كانت مجهولة عند العرب. ثم جاء الإسلام فقضى عليها وزهد فيها فبعد أن كنا جاهلين كيف كان العرب قبل الإسلام يلبسون ثيابهم وما هي ضروبها وهيئاتها ــ أصبحنا جاهلين أيضاً ما كان من ذلك في القرون الإسلامية. فكيف كان يلبس هارون الرشيد ووزيره الفضل وقاضيه أبو يوسف ونديمه أبو نواس ومغنيه إسحق ورؤساء أجناده وكتاب دواوينه والسوقة في زمانه؟

نعم قد يرد شيء من وصف اللبوس عرضاً في كتب الأدب كالأغاني مثلاً لكنه لا يشفي غلة. ولا يكفي في الإفادة: مثل أن يقال إن أبا يوسف هو أول من استحدث هذا الزي الخاص بالفقهاء ليتميزوا به عن العامة. وإن الوزير الفلاني كانت عنقه طويلة فاتخذوا له زيقاً عريضاً (ياقة) يستر عنقه ويواري ما استقبحته العيون من طولها. وقد اشتهر هذا الزي بنسبته إلى ذلك الوزير.

---

[1] كتبت سنة ١٣٢٥هـ و١٩٠٧م.

ويظهر من الرسوم والنقوش والصور المحفوظة في كتب تاريخ أهل الشرق لاسيما الكتب الدينية المتداولة عند أبناء ملله المختلفة — أن لباس الشرقيين في الأعصر القديمة كان يتألف غالباً من عمامة يلوثونها على رؤوسهم، وقفطان له ذيول سابغة، وجبة ضافية تلبس فوق القفطان — بحيث تنطبق عليه إلى ما تحت الأكاحل ويشدون على أوساطهم فوق القفطان زناراً من قدّ أو نسيج يلوونه أدواراً، وقد يكتفي أحدهم بلبس قميص أو جلابية طويلة إلى أنصاف ساقيه، ثم يشد وسطه بزنار ينوط به أحياناً ما استرسل من ذيول القميص.

وكان العرب يقتبسون من الأمم التي تجاورهم ويخالطونها — كثيراً من الأزياء وضروب الملابس — بدليل أن في أسماء تلك الملابس طائفة من الألفاظ الأعجمية وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم لبس الجبة الرومية وكانت أكمامها ضيقة فكان يضطر عند الوضوء إلى نزع يده من الكم فيغسلها ثم يعيدها إلى الكم. والزي الذي اقتبسه أبو يوسف واختاره للفقهاء كان من لبوس كهنة الروم في ذلك العصر وفي عصرنا هذا.

وضروب اللبوس عند العرب وأجناسه وأشكاله كادت تفوق حد الحصر: خذ مثلاً الثوب المسمى باسم ما فيه من النقوش: المسهم ما فيه صورة سهم، المدنر ما فيه صورة دنانير، المبرج ما فيه أبراج، المصلب صلبان، المرحل رحال (أقتاب)، المرجل مراجل (قدور).

وهناك المِرط، المِطرف، الحِبرة، الكرباس، الرَّيْطة، الجلباب، الخميصة، القطيفة، النمرة، البردة، البتّ. وربما كانت هذه الأثواب أو معظمها مما يلبس وهو غير مخيط.

وعندهم: العباءة. القباء. السراويل. الدُّرّاعة. القميص. الصدار. الجبة، وهي من المخيط.

نقل إلينا كثير من هذا مما يدل على تفننهم وعدم وقوفهم في ذلك عند حد محدود — كما نقل إلينا أيضاً أسماء كيفيات اللبس: مثل التلفع والاضطباع والاشتمال والاحتباء: فالاشتمال أن تدير الثوب على جسدك كله، والشملة الصماء هي أن تشتمل بالثوب ولا يكون تحته قميص ولا سروال، والسند أن تلبس قميصاً طويلاً تحت قميص أقصر منه، ثم يصفون البرنس فيقولون هو ثوب رأسه منه ملتزق به. والسبيجة (كلمة فارسية) ثوب له جيب ولا يدان له ولا فرجان. والفرُّوج قباء فيه شقّ من خلف. وفي الحديث: «صلى بنا عليه الصلاة والسلام وعليه فروج من حرير».

ومجموع ما نقل إلينا من شؤون ملابس العرب وأكسيتهم في كتب اللغة والأدب قبل الإسلام وبعده — يراه قوم كافياً في الإفادة. ويقول آخرون إنه خدَاج مشـوه لا يعطينا الحقائق كاملة، ولا يصور لنا الهيئات والأزياء كأنها ماثلة.

أما العمامة فليست منزلتها في الحسن والنفع دون منزلة اللباس. ويكفي في شرفها أنها شعار الشرق منذ الأزل. ولا يبعد أن تكون مما اتخذه أبونا (آدم) لأول هبوطه مـن الجنـة وقاية لرأسه ولجسمه من حرارة الهند والحميات التي تكثر في جنوبها ولم يعهده في الـوطن المحبوب الذي فارقه. وليست هي من شعار العرب والإسلام خاصة لـتحكّم في المسـألة التحزبات الجنسية والعصبيات الدينية: فقد كان يلبسها العبرانيون وغيرهم مـن الطوائـف الذين في صف العبرانيين أو انشعبوا منهم. والعرب أنفسهم إن لم يكونوا اهتـدوا إليهـا بالسائق الطبيعي من إقليم جزيرتهم لتكون لهم وقاية من شدة الحر — فإنهم اقتبسوها مـن إخوانهم الإسرائيليين. وهؤلاء كهنة القبط يلبسونها إلى اليوم.

ولماذا نقول إن العمامة وقاية من الحر؟ الأجدر أن نقول إنها وقاية من الحرّ والبرد وما ماثلهما من العوارض الجوية، والصدمات الفجائية. ولو كان علـى رأس المسـتر (بول) عمامة لما ضربته الشمس. ولما كانت حادثة دنشواي المشؤومة. وإنـك لتـرى قبعات بعض الفرق في الجيش الإنجليزي محاطة بقماش أبيض يشبه في شكله والتفافـه العمامة، وليس هذا سوى وقاية لهم واحتفاظ بصحة رؤوسهم.

وقيل لأعرابي إنك لتكثر من لبس العمامة قال: «إن شيئاً فيه السـمع والبصـر لجدير أن يؤتى من القُرّ» يعني أن الرأس الذي حوى هذين الحاستين الكريمتين يخشـى عليه من سطوة البرد.

وذكرت العمامة عند أبي الأسود الدئلي فقال: «جُنة في الحرب، ومِكَنّة في الحر، ومدفأة من القر، ووقار في النَديّ (المجتمع)، وواقية من الأحداث (العوارض المفاجئـة)، وزيادة في القامة».

(أنـا ابـن جـلا وطـلاّع الثنايـا مـتى أضـع العمامـة تعرفـوني)

(فجاءَت به سـبط العظـام كأنمـا عمامتـه بـين الرجـال لـواء)

وقد سمعت فاضلاً مسيحياً من شبان العصر يذكر العمامة ويصف من حسـنها ونفعها وجمال هيئتها وأنه لم يرَ عمارة (بفتح العين كل لبوس للرأس) أحسن منها، وأنه يتمنى أن يعتمر بها لو خُلي ونفسه.

ولو بحثنا عن معظم انصراف القلوب عن العمائم لما عدونا في السبب ـــ السيدات: فإنهن يحسبنها شعاراً خاصاً برجال الدين، وللدين صولة عليهن، وهيبة في نفوسهن فهن يحدن عن العمامة لذا كم السبب، ولكنهن إذا تأملن وأنصفن لما عدلن بها سواها. وإذ ذاك تكثر العمائم، وينتعش الشرق بانتعاش عاداته الحسنة، وتقاليده الجميلة:

قال غيلان ابن خرشَه للأحنف: يا أبا بحر ما بقاء ما فيه العرب؟ قال: «إذا تقلدوا السيوف وشدوا العمائم واستجادوا النعال ولم تأخذهم حمية الأوغاد». قال: وما حمية الأوغاد؟ قال: «أن يَعدوا التواهب ذلاً».

يريد الأحنف أن بقاء الأمة إنما يكون ببقاء الأخلاق العالية التي تميزها: كالشجاعة في الذياد عن الحق، والسخاء في السبل المشروعة، والاحتفاظ بالعادات والمميزات القومية. لكني أصدق القارئ أنني لم أفهم المغزى أو السر في قوله: «واستجادوا النعال» أي اتخذوها من الجنس الجيد.

وفي الحديث: «العمائم تيجان العرب فإذا وضعوا العمائم وضعوا عزهم».

وليس هذا فقط بل إن العمامة نفسها كانت تسميها العرب «تاجاً». ومن أسمائها أيضاً المقمطة والقماطة والعميرة والسِبّ (بكسر السين) والمشوَّذ والمكوّرة والعصابة. ومن أوصافها القفداء والعجراء والميلاء. وكل هذا مما يدل على شرفها ومترلتها. بل لو قلت إن العمامة شعار السيادة وأداة الرئاسة عند العرب ـــ كما أن التاج والصولجان شعار الملك عند غيرهم من الأمم ـــ لما كنت مغالياً. يرشدك إلى هذا أن العرب كانوا يقولون «فلان معمم» يعنون مسود. فلو لم تكن العمامة شعار السيادة، ومرقاة السعادة ـــ لما قالوا ذلك.

عبد القادر المغربي

المصدر: البينات ـــ عبد القادر المغربي ـــ ج٢ ـــ المكتبة السلفية ـــ القاهرة ـــ ١٩٤٤.

٨ـ التشبه والاقتداء[1]

محمد رشيد رضا [١٨٦٥ــ١٩٣٥]

يعلم الناظرون فيما نكتب أن التشبه بالأوروبيين في أزيائهم وعاداتهم قد جرى في الشرق جريان الدم في العروق، فأبناء الدنيا يرون في ذلك شرفاً ورفعة، والمنتصرون للدين يرونه ذنباً وبدعة، وغلوا في ذلك حتى ذموا تقليد المخالف في كل شيء وإن كان نافعاً مفيداً، ولكن لما كان الأمراء والكبراء يتفاخرون ويتبارون في التشبه بالإفرنج وهم موضع إجلال الدهماء وتعظيمهم ــ صار سائر الناس يقلدهم في ذلك، لأن ناموس التقليد مطرد باحتذاء لهازم الناس وأدنائهم، مثال عليتهم وكبرائهم، وسرت العدوى في ذلك لبيوت العلماء ورجال الدين، وقد ذكرنا في كتابنا (الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية) جملة مسهبة في التقليد والتشبه، بينا حكمه من الجهة الدينية والسياسية، وإننا نذكر هنا نبذة منها تتعلق بأصول سياستنا لمناسبة ما مر وهي:

إذا نظرنا إلى التقليد والتشبه من طرف السياسة تجلى لنا أن الصواب امتناع أمتنا عن التشبه أو التقليد لغيرها من الأمم في الأزياء والعادات وكل ما لا فائدة فيه لاسيما المناصبين والمحادين لنا والانتداب لتقليدهم في كل ما يعود علينا بالمنفعة وعلى الخصوص المنافع التي تتعلق بالقوة على التغلب، والدفاع عن الحوزة، وبتوسيع دائرة الثروة، بأن نجتهد بمجاراتهم ومباراتهم بل بمنافستهم ومسابقتهم إلى أصول المنافع ومقدماتها وأسبابها، لا أننا نقتصر على اجتلاب نتائج صنائعهم وأعمالهم، كالآلات الحربية والبوارج البحرية، إذ تقليدهم في النتائج باتخاذها منهم واحتذائهم فيها، لا يخرجنا عن كوننا عيالاً عليهم، ولا يرجى أن ندانيهم ونقاربهم فضلاً عن أن نساههم ونحاذيهم، فضلاً عن أن نساميهم فنسموهم ونبذّهم (نغلبهم) لا سيما ونحن الآن كما ترى هذا ذيك بذا ذيك ولا كفران لله.

وأما أخذ العلوم والفنون وأصول الصنائع عنهم فلا محذور وراءه، ولا محظور أمامه، ومن هي في أيديهم الآن من أهل المغرب أخذوها منا فهذبوا ونقحوا واستنبطوا، وكنا أخذناها من غيرنا فهذبناها ونقحنا، نعم لم نصل إلى مداهم وغايتهم التي انتهوا إليها الآن في استثمارها واستدرار ضروع أنعامها، ولا نيأس من روح الله في السبق عند

---

[1] المنار ــ مجلد ١ ــ جزء ٢٩ ــ طبعة ١٣٢٧هــ (١٩٠٩).

الكرة الأخرى (وتلك الأيام نداولها بين الناس) ولا التفات لسفهاء الأحلام، المستغرقين في أودية الأحلام، حيث يغمزون الناظرين في تلك الفنون ويلمزونهم، ولا شبهة لهم إلا أن من تنقل عنهم ليسوا من المسلمين والخطب سهل، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها». رواه الترمذي عن أبي هريرة، ورواه العسكري عن أنس مرفوعاً بلفظ: «العلم ضالة المؤمن حيث وجدها أخذها». وفي رواية عند القضاعي أنه قال آخر الحديث: «حيثما وجد المؤمن ضالة فليجعلها إليه». وروي عن ابن عمر رضي الله عنه موقوفاً عليه أنه قال: خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت.

وفي نهج البلاغة أن أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه قال: «خذ الحكمة أنّى كانت، فهي الحكمة تكون في صدر المنافق فتنجلج من صدره حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن». وقال أيضاً: «الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق» واستدل بعض أهل العلم على مشروعية طلب العلم من أي طريق كان، بحديث (اطلبوا العلم ولو بالصين) في زمن لم يكن يسكن الصين فيه غير أصناف المجوس، والحديث أخرجه ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان والمدخل وابن عبد البر في العلم الخطيب في الرحلة والديلمي في مسند الفردوس وغيرهم، وله طرق كثيرة يقوي بعضها بعضاً. ولا غرو فإن شرعاً أساسه الحكمة، ودعامته الفضيلة، وغايته سعادة الدارين والظفر بالحسنيين — يأمر بسلوك الجادة، وعدم الاستنكاف عن الاستفادة، وهذه كتب أعلام الملة في تفسير الكتاب الكريم وشرح الحديث الشريف والتصوف والأدب والتاريخ محشوة بكلام حكماء اليونان الذين نقلت علومهم إلى الأمة، وحكماء الفرس الذين خالط أمتهم العرب، وبحكايات أحوال عباد بني إسرائيل ورهبان النصارى ما استحسن منها (بل وما لم يستحسن لكنه لا حجة في هذا).

ولقد كان الشارع صلى الله عليه وسلّم يعجبه كلام بعض المشركين ويعجب به، وكثيراً ما كان يستنشد شعر أمية بن أبي الصلت ويستزيد حتى أنشد مرة مائة قافية. أخرج مسلم عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال ردفت النبي صلى الله عليه وسلّم فقال: «هل معك من شعر أمية شيء؟» قلت: نعم، قال: هيه، فأنشدته بيتاً فقال: هيه، حتى أنشدته مائة بيت فقال: «إن كاد ليسلم». ولو أردنا الإطالة لأوردنا ما لا يحصى من النصوص على لزوم الأخذ بهذه الفنون التي هي مبدأ الصنائع. ناهيك أن الركن الركين للمحافظة على الدين ونشر تعاليمه الصحيحة بين المخالفين هو الجهاد وهو يتوقف في

هذا العصر على الفنون المذكورة وما لا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب. ولكن الجهل الذي عم في هذا الزمان وطم، والإغراق في التعصب على المخالف من غير روية ولا فهم، وعدم معرفة مقاصد الشرع، وانتفاء الوقوف على طرائق الضر والنفع — يحمل كل ذلك الغوغاء من أبناء هاته الأيام، على رشق من ينسب لحكماء الفرنجة علماً أو فهماً بسهام الملام، وربما طعنوا في دينه وهم ليسوا في ذلك على دين، ولا تنهض لهم حجج قيمة ولا يأتون بسلطان مبين «فلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها!! فإنها لا تعمي الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور».

وحاصل القول أن جملة ما يتأتى به التقليد والاحتذاء ينحصر في ثلاثة أمور (الأول) الفنون والصنائع المفيدة وهذا ربما يصل طلب التقليد فيه إلى الوجوب الشرعي وذلك كالفنون التي تتعلق بالقوى الحربية والصحة الجسدية وسائر ما لا يستغني عنه العمران، ولا وصول إليها أولاً إلا بالتقليد والاقتباس. (الثاني) ما لا نفع فيه ولا ضرر منه والأولى تركه وإن كان مباحاً وإن لم يكن بدّ من فعله فينبغي أن لا يلاحظ التشبه بهم ولا يتوخى احتذاؤهم فيه. (الثالث) ما فيه ضرر لنا والحكم الشرعي في إتيان المضرات المحققة الحرمة، والمظنونة الكراهة. وهناك شبهات يخشى ضررها ولا يرجى نفعها، وربما لا يظهر ضررها إلا باستعمال السواد الأعظم لها، لا الآحاد والعشرات مثلاً، أعني بهذا التهافت على استعمال أدوات الزينة والترف الغالية الأثمان وهم في كل آونة يخترعون لنا زيّاً، ويبتدعون لنا طرزاً جديداً، يبطلون به ما سبقه ونحن نتلو تلوهم ونحتذي شاكلتهم. يتخذ ذلك أولاً المتطرسون المتطرزون في الملبس والمأكل والمشرب، من أهل النفع والثراء للزينة والتفاخر والتكاثر والخيلاء، فتتسع به دائرة السرف والترف ويسري سمه في روح الأمة فيهب المعوزون للتقليد وتجنح نفوسهم للإفناق، «التنعم بعد البؤس» وتعدم الصبر على حالة الإملاق، لا سيما أرباب المظاهر الذين منحهم صنفهم نظر الاعتبار، وحالتهم في الاشتهار، لا تساعدهم عليها حالتهم في الدينار، فتسقم العواطف الشريفة، وتفسد السرائد والضمائر الصادقة، وتعتل الأفكار الصحيحة، وتغلب على أفراد الأمة الأثرة، ويستحوذ عليهم الضعف ويكون مآلهم شر مآل.

من نواميس الكون وسنة الله تعالى في الخلق أن الاسترسال في الترف والتوغل في الرفه والانغماس في النعم مبدأ لانحلال الأمم، وعلة لسقوطها في هاوية العدم، إذ لم يقترن ذلك بعلم وتربية يكونان علاجاً لأبنائها، يقيهم أمراض تلك الصفات وأدواءها،

ولقد كان سلف الأمة الذين تنجلي بهديهم كل غمة متيقظين لعلل الترف وأدوائه، محذرين من فتنته وبلائه.

هل أتاك حديث عمر بن الخطاب إذ كتب إلى عتبة بن فرقد الذي أمّره على جيش العجم: «يا عتبة بن فرقد إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك فأشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك (أنظر كيف أمره بمساواة الجيش وهو أميره) وإياكم والتنعم وزي أهل الشرك ولبوس الحرير فإن رسول الله صلى الله عليه وسلّم نهى عن لبوس الحرير قال: إلا كذا ورفع لنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم إصبعيه» رواه مسلم. قال الإمام النووي وقد جاء في هذا الحديث زيادة في مسند أبي عوانة الإسفرايني بإسناد صحيح قال: «أما بعد فاتّزروا وارتدوا وألقوا الخفاف والسراويلات وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل وإياكم والتنعم وزي الأعاجم وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب وتمعددوا واخشوشنوا واقطعوا الركب وابرزوا وارموا الأغراض». قال النووي ومقصود عمر رضي الله عنه حثهم على خشونة العيش وصلابتهم في ذلك ومحافظتهم على طريقة العرب في ذلك.

قلت يعني أنه خشي أن يضعفوا عن الجهاد إذا هم أخلدوا إلى التنعم الذي يستدعي حب الراحة لا أن كل واحدة من هذه الأشياء التي نهاهم عنها محرمة أو مكروهة لكونها من زي العجم، كيف وقد كان النبي وأصحابه يلبسون الطيالسة الكسروية وغيرها من لبوس العجم حيث كانوا في مأمن من الاستغراق في الترف الذي خشيه عمر على جيشه بسبب مخالطة الأعاجم والاستئناس بأزيائهم وأحوالهم الذي ينتجه تكرار النظر. ومما نهاهم عنه الخف والسراويل وكانوا يلبسونهما في الحجاز بلا نكير.

محمد رشيد رضا

المصدر: أعيد نشر هذا المقال في:
محمد رشيد رضا ـ ديوان النهضة ـ أدونيس وخالدة سعيد ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٨٣. وعنه ننقل.

٩ـ في فلسفة اللباس

خواطر في أوانها

سلامة موسى [١٨٨٧ــ١٩٥٨]

يرى القراء في هذا البحث الطلي ما هو جدير بأن يسمى «فلسفة اللباس» كما سماه الكاتب. فقد جمع فيه ملحوظات سديدة وأحكاماً قيمة إلى آراء في الحضارة الأوروبية قد يخالفه فيها فريق من القراء ــ ولكنها في كل حال مما تلذ مطالعته وتفيد.

[المحرر]

فكر بعض أفراد الشبيبة المصرية حديثاً في اختراع زي مصري خاص لنا يصنع من منسوجات وطنية. وقد رأيت بهذه المناسبة أن أدلي بهذه الملحوظات.

فإما ترقية الصناعة من منسوجات وغير منسوجات فهذا ما يجب أن يوافق عليه كل مصري ويدعو إلى ترويجه ولو كان في ذلك بعض الخسارة عليه. وأما تغيير الزي الإفرنجي الحديث فهذا ما لا يمكن أحداً عاقلاً متمدناً متهذباً أن يوافق عليه.

وذلك لأن اللباس الذي نلبسه الآن والزي الذي نتزيا به هما ثمرة الحضارة الراهنة التي غمرتنا في سيلها واكتسحت أمامها تقاليدنا القديمة. فأثبتت بذلك جدها وبلى هذه التقاليد. ونقول بعبارة أخرى إنه قد حدث «تنازع بقاء» بين هذه الحضارة الحديثة وهذه التقاليد العتيقة فانهزمت التقاليد وفازت الحضارة، وكان فوزها دليلاً على صلاحيتها.

واللباس يتمشى مع العمارة والأثاث، فإذا فشا شكل جديد في العمارة رأيت أثره في اللباس وفي أثاث المنازل. وسبب ذلك أن الذوق الذي يستحسن شكلاً خاصاً في العمارة هو نفسه الذي يستحسن مثل هذا الشكل في الأثاث أو اللباس.

فإذا كنا نستحسن المنارة الدقيقة الرفيعة فإننا لا شك نستحسن الرجل الطوال النحيف، فإذا صار هو مثلنا الأعلى صرنا نلبس من الألبسة ما يقربنا إلى شكله من صدرية تخرق الوسط إلى رداء محبوك.

وإذا كنا نستجمل الدار القوراء يتوسطها صحن رحب صرنا نستجمل الرداء الفضفاض كالجبة أو ما شابهها.

وإذا كنا نحب سذاجة الإغريق في تماثيلهم صرنا نطلب ما يشبه هذه السذاجة في نسائنا.

وكذا الحال في أثاث المنازل نصنعه لكي يشاكل عمارتنا ولباسنا فإذا كان البناء ضخماً كان الأثاث ضخماً. وهلم جرا.

فالعبرة بالذوق، فإذا كنا نستجمل الضخامة في اللباس استجملناها أيضاً في العمارة وفي الأثاث، وإذا كنا نهوى الدقة والسذاجة في العمارة فإننا لن نفقدهما في اللباس والأثاث.

وكل هذا ينعكس أثره على الإنسان نفسه، فإذا كان رجال الفن من مثالين ورسامين وبنائين في أمة يعمدون إلى الدقة والسذاجة في بناء البيوت وصنع التماثيل ورسم الصور انعكس هذا الذوق على الأمة بأجمعها فصارت تطلبه في ملابسها وأثاثها بل في أجسامها. لأنها حينئذ لا تستحسن من الأشخاص رجالاً كانوا أم نساءً إلا من نحفت أجسامهم ولا تهوى من اللباس إلا الساذج المحبوك على الجسم ولا تهوى من الإناث إلا ما خلا من ضروب التعمل والتكلف.

ومن هنا فائدة الأديب كائناً ما كان فنه الذي يمارسه فإذا كان هو رفيعاً رسم للأمة مثلاً علياً تنعكس عليها وتطبعها بذوقها، ففنه عندئذ يرفعها.

ومن ها يمكن القارئ أن يستنتج الأثر الذي يحدثه اللباس الشرقي الرحب الذي يلبسه الصينيون والهنود وبعض العرب ويقرنه إلى العمارة الفاشية في بلاد هؤلاء، ثم يقابل كل هذا باللباس الغربي المحبوك الذي يحزق البطن ويقرنه إلى العمارة الفاشية عند الغربيين. فعند الشرقيين الذين ذكرناهم منازل قصيرة قوراء وأجسام سمينة، وعند الغربيين منازل عالية ضيقة وأجسام نحيفة طويلة.

واللباس أيضاً كالعمارة دليل الحالة الاجتماعية، فإذا كانت الأمة ديمقراطية كانت أجور عمالها عظيمة ولذلك لا يمكن أن تجد التطعيم في أوروبا لا في العمارة ولا في اللباس ولا في الأثاث. لأن التطعيم يحتاج إلى كد كبير دون الحاجة إلى مهارة كبيرة فعامله يشتغل كثيراً ولا يحصل إلا على أجر صغير، ونحن هنا في مصر نكلف أرخص عمالنا (في الصعيد) بتطعيم اللباس بالتلي للسيدات ونطعم أيضاً بعض الأثاث. وقد رأيت في بعض دور طنجة في مراكش أنهم يطعمون سقوف منازلهم ولا بدع فإنه لا يزال عندهم عبيد أرقاء، وقد وجدت في مدفن توت أنخ آمون أثواب مطعمة (ملبسة).

وقد قال هربرت سبنسر إن الأصل في اللباس هو الزينة لا الفائدة، وهو لا يزال كذلك عند الهمج وعندنا أيضاً إلى حد ما. فقد أنفقنا نحن في مصر نحو ٧٥٠٠٠٠/ جنيه على رباط الرقبة في عام واحد مع أننا نعرف أنه أداة زينة لا فائدة منه. وكان أبو الطيب المتنبي يلبس نحو عشر أثواب في أشد الأوقات حراً ويكلف نفسه هذه المشقة لكي يظهر بمظهر الوقار والجلال. ولكن كلما ارتقى الناس قلّ اعتبارهم للزينة وقدروا الفائدة. فبعض النساء الأمريكيات والإنجليزيات يقصصن شعورهن ولا يعلقن الأقراط في آذانهم ولا يتزين بالعقود أو الأساور وكذلك لا يلبسن المشد أو الأحذية ذوات الكعب العالي.

ومن المبادئ المقررة في علم النفس الآن أننا نخفي عن أنفسنا وعن الناس أهم الخواطر التي تساورنا ونشعر بأنه يجب علينا أن لا نفكر فيها أو نفشيها للناس.

وما هو أهم هذه الخواطر وألصقها بدخيلة نفوسنا وأقواها على التسلط على غرائزنا؟ هو بلا شك تلك الخواطر التي تبتعثها الغريزية الجنسية. فالإنسان بدأ من اللباس بوزرة صغيرة تستر عورته.

فهل كان يستر عورته للزينة أم لمساورة الخواطر الجنسية له ومحاولته إخفاء هذه الخواطر؟ إني أظن أن الرأي الثاني هو الأرجح.

وللباس تأثير نفساني في الإنسان، ولنذكر أن عمر بن الخطاب خلع عن نفسه لباساً رومانياً فخماً لأنه شعر منه بخيلاء لم يشعر بها قبلاً وعاد إلى لباسه البدوي حتى تعود إليه سذاجة نفسه. وعلى هذا القياس يمكننا أن نقول إن العقلية الأوروبية يسهل على الأفندي على أن يتقمصها كما يتقمص اللباس الأوروبي أكثر مما يسهل ذلك على الشيخ، وهي أسهل على «الخواجة» الذي يلبس القبعة مما هي على الأفندي لهذا السبب نفسه.

وعلى هذا القياس أرى لغرامي بالحضارة الأوروبية وهي حضارة العالم أجمع الآن أن أحث بني وطني على أن يلبسوا القبعة دون الطربوش، لا لأنها تقينا من الشمس والمطر وهو لا يقينا بل لأنها تبتعث فينا العقلية الأوروبية.

واللباس يصنع الإنسان كما قال شكسبير.

سلامة موسى

المصدر: مجلة الهلال ــ س٣٣ ــ ج٥ ــ شباط ــ ١٩٢٥.

١٠. تقلب الأزياء في مئة عام

مجلة الهلال

يتراءى لمن يتتبع تقلبات المودة أنها تجري بلا نظام وتسير في ما يشبه الفوضى. ولكن الحقيقة أنها تتبع الأذواق الرفيعة في الأمة. وليس من شك في أن طائفة صغيرة من الناس تقوم بابتكار الأزياء الجديدة فيتبعها سواد الأمة. وهذا هو الشأن في كل طراز جديد يبتكره قادة الفكر والذوق فيسير على مقتضاه سائر الأفراد. فقد يبني أحد الأغنياء قصراً جميلاً يخصص فيه غرفة لوضع الصور أو يؤثثه بطريقة مبتكرة فيتبعه سائر الناس من الأغنياء والمتوسطين ويقلدهم أيضاً الفقراء في الحدود التي يفرضها عليهم الاقتصاد، ولكن الغني الأول لم يبن بيته اعتباطاً فإنه إنما اتبع الأذواق العليا الفاشية في زمنه.

وكذلك الحال في اللباس، فقد كان لباس الرجال قبل نحو ائتي سنة كثير الألوان والأصباغ يسير الرجل في الشارع كأنه فراشة زاهية من فراش الربيع، وكانت طائفة الطهريين (بوريتان) قد كثر عدد أفرادها في إنجلترا وتفشت عقائدها بين الناس، وكان هؤلاء الطهريون يترعون إلى التقشف والتحرج لا يذوقون الخمر ولا يهملون الصلاة في الكنائس في أيام الآحاد ويعدون العمل في تلك الأيام جرماً كبيراً. عمدوا إلى اتخاذ السواد شعاراً لهم فاستحسنه الناس من غير طائفتهم واتخذوه أيضاً. ولكنهم إنما استحسنوه لأن أفكار الطهريين وعقائدهم تغلبت عليهم بعض التغلب ولولا ذلك لكان الناس الآن في أوروبا وغير أوروبا يلبسون المصبغات الزاهية من الثياب.

وقل مثل ذلك في أزياء النساء، فقد كانت قبل مائة سنة في أوروبا واسعة النصف الأسفل قليلة النصف الأعلى، وإنما كانت كذلك لأنه لم يكن يطلب من المرأة أن تشتغل وتكد لعيشها أو أن تتعلم الرياضة البدنية. فلما قارب القرن التاسع عشر آخره تغيرت عقلية الناس واختلف اعتبارهم للمرأة، فلم تعد النساء قعيدات البيوت يختصصن بالطبخ والولادة، وإنما خرجن إلى الأسواق والمكاتب يرتزقن وصرن يتعلمن في المدارس تعليماً عالياً ويرتضن رياضة الذكور فكان حتماً بعد ذلك أن يتغير اللباس حتى يتوافق هذه الحالة الجديدة التي تحتاج إلى الحركة وما تطلبه من حرية العضلات والأعضاء، ولهذا ضؤل اللباس وقلت حواشيه، ثم فشت هذه الأيام الأتوموبيلات والبسكليتات وكلتاهما تستعمله المرأة، فلم يكن بدَ أيضاً من تقصير اللباس حتى يوافق القفز والصعود والنزول من هاتين المركبتين.

مجلة الهلال

المصدر: مجلة الهلال ــ س٣٤ ــ ع٣ ــ ديسمبر ١٩٢٥.

١١. اللباس والحياء

الهلال

منذ بضعة أشهر دهشت بعض السيدات في القاهرة إذ قرأن إعلاناً لإحدى الكنائس الكاثوليكية الكبرى تطلب منهن فيه أن يراعين الحشمة في لباسهن وتهددهن بإخراجهن إذا دخلن الكنيسة في لباس قليل أو رقيق. والظاهر أن هذه حملة عامة في الكنيسة الكاثوليكية في جميع أنحاء العالم وهي والحق يقال من أشرف الحملات. فقد دعا صاحب القداسة البابا بيوس الحادي عشر جميع النساء إلى الاحتشام وعاب عليهن عدم مبالاتهن بالحياء في الظهور أمام الناس وفي الكنائس خاصة بصدور عارية وأذرع تكاد تظهر أباطها. وتألفت جمعية من النساء في رومية بقصد تحقيق أغراض البابا. ومن الأدعية التي يدعو بها أفراد هذه الجمعية في صلواتهن قولهن:

«أيتها العذراء. لقد نوينا ألا نلبس لباساً تسوءك رؤيته. وسنذكر نيتنا هذه عندما يغوينا الشيطان ويوسوس إلينا بأن نعدو حدود الحشمة».

وقد وضع البابا وساماً يعطى للنادي النسائي الذي يخترع لباساً جامعاً للجمال والحشمة.

مجلة الهلال

المصدر: مجلة الهلال ــ س٣٣ ــ ج٣ ــ كانون الأول ــ ١٩٢٤.

١٢. البنطلون والمرأة

المجلة الجديدة

(...مصر) ع.هـ ــ هل صحيح أن في العالم المتمدن نساء يلبسن البنطلون الآن كالرجال وأين هنّ؟

(المجلة الجديدة) تلبس الفلاحات وراعيات البهائم في سويسرا بنطلونات أو سراويلات كالرجال لأن هذا يساعدهن على أداء أعمالهن في المروج على أسناء الجبال. وقد شاع زي جديد بين النساء في المصايف والمشاتي في أوروبا وهو اتخاذ البيجاما، وبعض النساء إذا أردن الصيد يلبسن البنطلونات كالرجال لحاجتهن إلى امتطاء الخيل وموافقة البنطلون لذلك.

المصدر: المجلة الجديدة ــ العدد الثاني ــ السنة الأولى ــ ١٩٢٩ ــ ديسمبر.

ملاحظة: محرر «المجلة الجديدة» هو سلامة موسى.

١٣. الحياء والملابس

وقيمة الملابس في الأخلاق

المجلة الجديدة

ليس شك في أن الحياء والحياة مشتقان من الحيا. فالعلاقة اللفظية واضحة بين هذه الأسماء الثلاثة والعلاقة المعنوية واضحة أيضاً كما أن التاريخ يؤيدها، فالإنسان الأول ظن أن المرأة هي أصل الحياة لأنه لم يكن يدرك أن المرأة تلد عن وساطة الرجل، بل لقد جمع بعد ذلك الودع يعلقها حرزاً من الموت لأن الودعة تشبه الحيا وهو في ظنه أصل الحياة.

وقد لا تكون علاقة الحياء بالحيا واضحة هذا الوضوح من الناحية التاريخية، ولكنا نجد الدلالة على هذا الارتباط قوية من نواحي أخرى، فمن المعروف أن المرأة أكثر شعوراً بأنوثتها من شعور الرجل بذكورته، وذلك لأن علامات الأنوثة في المرأة لا تتحيز مكاناً واحداً كما هي الحال في الرجل بل تنتشر في أماكن أخرى من جسمها مثل صدرها أو كفليها، ولذلك فإن دواعي الحياء عندها أكبر مما هي عند الرجل لأنها تخشى الاحتقار أكثر منه وتعي بأنوثتها أكثر منه. ومما يؤيد هذا الظن أن المرأة التي تسترجل في إنجلترا أو الولايات المتحدة تتعمد إزالة علامات الأنوثة بتنحيف جسمها حتى لا يبرز صدرها أو كفلاها كأنها ترى في الحياء ملازم لهذه العلامات وأنها لكي تسترجل يجب أن تقلل من حيائها بإزالة هذه الآثار الأنوثية.

ولكن إذا سلمنا بأن الأصل في الحياء هو ما تدل عليه تلك الصلة اللفظية فإنه يبقى علينا أن نرى أن الخوف يحدث حياء. فالطفل الذي يخاف كثيراً يستحي كثيراً، ثم أننا نستحي بمقدار وعينا أي شعورنا بما حولنا وكلما ازداد وعينا ازداد حياؤنا ومن هنا يمكن أن نعد الحياء نوعاً من الخوف، وهو في الواقع خوف من الاحتقار، فنحن نستحيي من الجهل ومن مخالفة العادات من النقص البادي في أجسامنا ومن جميع الأشياء التي تلفت إلينا النظر بالزراية في حين لا نريد أن يلفت ونستحي حين يشتد وعينا عن شيء لا نريد أن يظهر.

أمثلة من الحياء

فالطفل الذي كان يضربه أبوه وهو صغير ينشأ وهو يخاف الرجال يحمر وجهه من الخجل كلما لقي رجلاً غريباً. ونظن أن هذا حياء منه ولكن الواقع أنه خوف قديم.

والفتاة في سن المراهقة تستحيي أكثر من الفتى في هذه السن لأنها تشعر بأنوثتها أكثر مما يشعر هو بذكورته أي لأنها أكثر وعياً بمركزها لأن علامات الأنوثة واضحة جداً في جسمها، فهي كالخطيب المبتدئ الذي يشعر بأن عيون الجمهور ترمقه.

وكذلك التلميذ الذي يخطئ الخطأ الفاضح يخجل أمام إخوانه.

ومخالفة العادات المألوفة يحدث لنا حياء ما لم نقابلها بشيء من الوقاحة المقصودة كالرجل أو المرأة تتخذ زياً جديداً وتسير به أمام الناس.

ولكن مع كل هذه الأمثلة ما نزال نرجع بخواطرنا وشعورنا عن الحياء إلى تلك العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى إلى تلك العلامات التي تميز كل جنس من الآخر، ونرى من الاشتقاق اللفظي ما يؤيد هذه العلاقة.

فالمرأة تستحيي قبل كل شيء وفوق كل شيء من أنوثتها وتحب أن تخفيها، فحياؤها هنا ناشئ عن شدة وعيها وشعورها بأنوثتها، أما حياؤنا نحن من هذه الناحية فينشأ عن مخالفة العامة فإذا رأينا امرأة لا تخفي مميزاتها الأنوثية شعرنا بمخالفة العادة المألوفة.

الحياء والملابس

ليس هناك شاهد قاطع يوضح لنا الأصل في الملابس هل هو المنفعة أو الزينة أو الفخر أو الحياء فهذا إليوت سمث مثلاً يعتقد أن الإنسان إنما عرف اللباس لأول معرفته به من الحزام الذي كان يحتزم به ويعلق عليه الودع لكي يعمر طويلاً لأنه كان للودعة في العصور الأولى قيمة سحرية في إطالة الحياة، وما زلنا نراها تمت إلى السحر بسبب ضعف في العرافة، ولكن هناك أيضاً من يعتقد أن الملابس نشأت للزينة، والقائل بهذا هو هربرت سبنسر وقد استنتج ذلك من أن الهمج والمتوحشين الآن يعنون بالزينة دون الفائدة عند اتخاذهم الملابس، ولكن يمكننا هنا أن نقول إن الزينة تطورت من المنفعة. ونريد المنفعة السحرية لأن المنفعة الصحية لم يكن يفكر فيها الإنسان الأول ولا كان هو في حاجة إلى التفكير فيها: أي أن الحزام الذي كانت تحتزم به المرأة أو الرجل وتعلق منه الودع كان يزدان بأشياء أخرى حتى امتد إلى أعلى وإلى أسفل وصار يشبه

ما نفهمه بأنه لباس. وهناك أيضاً من يعتقد أن الإنسان عرف اللباس لأنه كان يتخذ فراء الحيوان التي يصيدها فيضعها على عاتقه للفخر بأنه صائد عظيم. وأخيراً نقول إن كلاً من هافلوك أليس ووليم جيمس يعتقد أن الاشمئزاز هو السبب لاتخاذ شيء تخفى به العورة ويكسى به الجسم، وكأنهما يقولان إن الجسم العاري هو شيء يشمئز منه الإنسان وإنه لكي لا يقذى عينه بمنظر السوءات أو العورات قد اتخذ اللباس، أي أن الاشمئزاز أصل آخر للحياء.

وفي هذا القول ما يفتح بصيرتنا عن معنى اللباس وعن الفرق بين الجسم العاري والجسم الكاسي فقد نشأنا على الظن بأن الجسم العاري أجذب للعين من الجسم الكاسي وأن العري أو الإقلال من الملابس تهتك عظيم. ولكن الواقع الذي يمكننا أن نحققه ونرى الشواهد الكثيرة عنه أن العري لا يتفق إلا قليلاً جداً مع الجمال. وهذه الدكتورة ماري ستوبس تنصح للزوجة بألا تنزع ملابسها أي كل ملابسها أمام زوجها لئلا يصد عنها، لأن خياله يطير ويرى بالحسن أن ما توهمه هو دون الواقع. وبعبارة أخرى نقول: إننا نشمئز من العري وننجذب إلى زينة اللباس أو إلى ذلك السر وتلك الرهبة اللذين نتوهم أن اللباس يخفيهما من جمال الجسم.

وهنا أقول إننا طغينا طغياناً عظيماً في تزيين اللباس حتى باتت الزينة خطراً على كل شاب مراهق ملأ رأسه خيالات كاذبة لو أنه عرف حقيقتها لخفف من غلوائه في غرامه بجمال المرأة، ولو كنا نعيش كلنا عرايا كما تفعل الآن في أوقات معينة إحدى الطوائف في ألمانيا لأخذ الاشمئزاز شيئاً كبيراً من ذلك الغرام.

وإنما نحن نستحي الآن من العري أو بعض العري لمخالفة العادات المألوفة ولأننا في سن الشباب نكون أكثر شعوراً ووعياً للميزات الجنسية.

أناطول فرانس والعري

لا بدّ أن القارئ قد سمع عن ذلك الأديب الفرنسي الأنيق أناطول فرانس، فلهذا الأديب قصة جعلها على لسان البنغوين، والبنغوين هو ذلك الطائر السابح الذي يعيش في منطقة القطب الجنوبي له جناحان ولكنه يسبح بهما ولا يطير. وقد مثل أناطول فرانس في هذه القصة الأطوار المهمة التي مرت بالإنسان، فمن ذلك الطور الذي انتقل فيه من العري إلى الاكتساء وها أنا ذا أنقل ما قاله وإن لم يكن بعباراته الأنيقة اللذيذة. فنحن الآن أمام أحد البنغوين الذي يخاطب الكاهن ويوضح له مزايا العري بينما الكاهن يريد أمة البنغوين على أن تلبس الملابس:

«تأمل يا أبي قبل أن يفوت الوقت فإن إلباس البنغوين الملابس إنما هو مسألة خطيرة جداً. ففي الوقت الحاضر عندما يشتهي بنغوين بنغوينة فإنه يعرف ما يشتهي تماماً ولشهوته هذا حد هو هذا الشيء المشتهى. والآن على الشاطئ ترى زوجين من البنغوين يتحابان ويتعاشقان فانظر بأية سذاجة يفعلان ذلك. فليس هناك من يلتفت إليهما ولا هما أنفسهما مشتغلي البال كثيراً بهذا العشق، ولكن عندما تلبس البنغوينة الملابس لا يمكن البنغوين أن يعرف على وجه التحقيق ما هو هذا الشيء الذي يجذبه فيها، وعندئذ تنشأ في نفسه رغبات غامضة تطير في رأسه خيالات وأوهاماً. وبالاختصار يا أبي يعرف الحب وما فيه من عذاب وجنون، وفي الوقت نفسه تتناعس الإناث من البنغوين بأعينها وتعض شفاهها وتختال كأنها تخفي كنزاً عظيماً تحت ملابسها...».

ثم يشير بعد ذلك إلى إحدى البنغوين ويصفها للأب الكاهن بقوله:

«انظر إلى كتفيها الضامرتين وصدرها الغليظ وجسمها السمين ورجليها القصيرتين، بل انظر إلى ركبتيها الحمراوين كيف تبرزان كلما خطت خطوة وفي كل مفصل من مفاصلها ما يشبه رأس القرد. وانظر إلى قدمها كيف تنغرس بأصابعها وتتشبث بها على الصخر وقد نفرت كل إصبع كأنها رؤوس الثعابين. وهي عندما تشرع في المشي تشترك جميع عضلاتها في هذا العمل وعندما نراها في ذلك لا يخطر إلا أن البنغونية آلة للعمل وليست آلة للعشق والحب، مع أن الواقع أنها تؤدي العملين وأن جسمها يحتوي على أدوات أخرى».

ثم يقبض الاثنان على سبيل التجربة على إحدى البنغوين فيلبسانها ويزينانها لكي يريا تأثير الملابس في الذكور، وهنا يقول أناطول فرانس:

«وعمد الكاهن إلى شعرها فعقصه على ظهرها وزينه بإطار من الزهر ثم طوق معصمها بسوار من الذهب ثم جعلها تقف منتصبة ثم وضع خلف ثدييها وتحتهما عصابة من الكتان شد بها الثديين يزعم بذلك أنهما يزدادان فخامة وأن خصرها إذا ضغط قليلاً بها زاد كفليها مجداً عظيماً. وكان يثبت عصابته بالدبابيس يأخذها واحداً بعد آخر من فمه، وهنا قالت له البنغوينة إنك تستطيع أن تشد العصابة أكثر من ذلك.

وبعد ذلك كسا الجسم كله برداء وردي منسجم على جسمها واتخذ تقاسيمها».

وكان قبل ذلك قد ألبسها حذاءً ضيقاً جعل قدميها تبدوان صغيرتين وارتفع أخمصاها فطالت الساقان فاكتسبت قامتها بذلك طولاً، والآن ماذا جرى بعد ذلك؟

«عمدت البنغوينة إلى ملابسها فقبضت عليها بيدها اليسرى فرفعتها وحرقتها حتى تبدى حذاءها، ثم سارت في خطوات قصيرة وهي تتبختر و لم تلتفت إلى الوراء ولكنها عندما اقتربت من مجرى الماء نظرت من زاوية عينها لكي تلمح لمحة من ظلها في الماء، والتقى بها بنغوين ذكر صدفة فوقف مدهوشاً ثم رجع أدراجه وسار وراءها ولما بلغت الشاطئ التقى بها آخرون كانوا عائدين من الصيد فوقفوا يتأملونها ثم ساروا وراءها ونهض أولئك الذين كانوا راقدين على الرمل وانضموا إلى الآخرين.

وطفقت تسير والبنغوين يتثال إليها يخرج من ممرات الجبال وشقوق الصخور ومن الماء فينضم إلى هذه الحاشية التي تتبعها. وكانوا جميعهم من الكهول ذوي الصدور القوية الكاسية بالشعر ومن الشباب الخفاف الحركة ومن الشيوخ الطاعنين في السن الذين تهتز أساريرهم على أبشارهم التي غطاها الشعر الأبيض يسيرون وراءها وهم يجرّون أرجلهم النحيفة تلك الأرجل الدقيقة الجافة التي كانت أدق وأجف من عكازاتهم وهم يلهثون ويخرج من أجسامهم عرق له رائحة عفنة ومن حلوقهم أصوات مبحوحة، ومع ذلك كانت هي تسير في رفق وهدوء كأن لم يحدث شيء».

والعبرة لنا من هذه المقتبسات التي اقتبسناها من أناطول فرانس هي أن الجسم الكاسي أجذب للعين من الجسم العاري.

لهذا السبب أعتقد أن النزعة إلى التخفف من الملابس سواءً أكان ذلك في السيدات أو الرجال هي نزعة حسنة، وهي حسنة خصوصاً من تلك الناحية التي يعنى بها المشفقون على الحياء. فإن قلة الملابس لا تكسب الجسم صفات السر والخفاء والرهبة التي كانت تزيد الإغراء.

وبديهي أن هناك عوامل أخرى في أحوالنا الحاضرة تجعلنا ننظر في الملابس إلى أغراض أخرى غير الحياء أو بجانب الحياء. فكلامنا السابق يدل على أن الحياء المتصل بالملابس هو في الأغلب: ١ــ عرف وعادة أو ٢ــ ضرورة تقتضيها سن المراهقة أو ٣ــ خوف من الاشمئزاز وإبداء النقص في حالة العري. وهنا يجب أن نميز بين الحياء في السلوك والحياء في الكلام فنحن نستحي من ذكر أعضاء الجسم لأننا لم نتهذب في التعبير و لم نعتد الكلام عن هذه الأعضاء إلا بألفاظ قذرة وتعابير مستسمجة ولذلك فإن الطلبة مثلاً في كلية الطب يستطيعون أن يتكلموا عن هذه الأعضاء دون أن يشعروا بأي استحياء.

ونحن ننظر من الملابس إلى الصحة والجمال، ولا بأس من أن نجعل الجمال أحد أغراضنا بشرط ألا يكون زينة وبهرجة يقصد منها استثارة الشهوات، فما نشكوه الآن من ملابس السيدات ليس القلة بل كثرة الزينة. أما من حيث الصحة فملابس النساء مع قلتها أضمن للراحة والعافية من ملابسنا وخصوصاً بعد أن ثبت أن الجسم يقوى بمقدار تعرضه للشمس أو الضوء والهواء. فالمرأة الآن أكثر تعرضاً للضوء والهواء من الرجل وهي أيضاً لهذا السبب أصح جسماً منه.

ولكن الواقع أن المرأة لم تتخذ ملابسها الحاضرة لكي تنال بها العافية والصحة، ولا لكي تزيد نفسها جمالاً، فهناك سيدات وفتيات كثيرات لا يحببن الأثواب القصيرة لأنهن يكرهن إبداء سيقانهن، وإنما هي ظروف المعيشة والاقتصاد التي دعت إلى الأزياء الفاشية الآن. فقصر الأثواب يرجع إلى ظهور البسكليت والأتومبيل وإلى اعتياد الرياضة البدنية وكل هذه تتطلب حرية الحركة في الساقين، وقصر الشعر يعود إلى اعتياد المرأة العمل في المكاتب والمصانع، وخفة الأثواب تعود إلى ظهور الحرير الصناعي.

وملابس الرجال جديرة بأن تتجه نحو الأزياء النسائية لتحقيق الصحة والخفة للرجال، بل في لندن الآن كما في عواصم أخرى جماعات تحاول إصلاح ملابسنا على غرار الملابس النسائية، وتقول جماعة لندن: «إن ملابس الرجال قبيحة مرهقة وقذرة لأنها لا تغسل، كما هي غير صحية لأنها ثقيلة ضيقة تمنع الهواء عن الجسم» ثم هي تنصح بإزالة الياقة وتهيئة القميص بحيث يمكن الإنسان أن يظهر به. أما البنطلون فيجب أن يكون سراويلات رحبة قصيرة لا تبلغ الركبتين.

فالمتمدنون لا يعتقدون أن قلة الملابس في المرأة برهان على قلة الحياء بل هم يعتبرونها عاقلة حكيمة في اتخاذها هذه الملابس ويودون لو أن الرجال يتبعون خطتها في تخفيف ملابسهم، ويجب ألا يبرح من أذهاننا أن الإغراء الجنسي إنما يأتي من كثرة الملابس وليس من قلتها بل أن التجرد أو العري أدعى إلى الاشمئزاز منه إلى الإغراء.

سلامة موسى

المصدر: المجلة الجديدة ــ س/١ ــ ع/٣ ــ يناير ــ ١٩٣٠.

١٤ـ ماذا نلبس

الملابس وألوانها وتأثيرها في الجسم

الدكتور عبد الحليم بك محفوظ

مدير قسم مكافحة الأوبئة بمصلحة الصحة

أجسامنا تتأثر بما يجاورها، وللتغيرات التي تحصل بالجو المحيط بنا تأثير كبير عليها، وهذا التأثير كثيراً ما يكون سبباً لنشاط عقولنا وأجسامنا وتقويتهما أو لخمولهما وضعفهما. والجلد المغطي لأجسامنا شديد الإحساس وله وظيفة هامة يؤديها، وله علاقة كبيرة بشعورنا بالراحة أو المضايقة. وفي العصور الأولى للإنسان كان جلده مع الشعر المغطي له والمواد الدهنية تحته هو غطاؤه الطبيعي يقيه برد الشتاء وحر الصيف، ولكن مع مرور الزمن تعود الإنسان أن يلبس الملابس المتباينة النوع والنسيج ذات الألوان المختلفة لتقيه الحر والبرد ولتحميه من لسع الحشرات والهوام. وقد اتخذ الإنسان الملابس أيضاً للزينة ولتمييز وظائف الأشخاص ومقدار تهذيبهم. ويمكن تلخيص الأغراض التي تستعمل من أجلها الملابس فيما يأتي:

الأول ــ حفظ الحرارة التي تتولد داخل الجسم.

الثاني ــ وقاية الجسم من دخول الحرارة والبرودة التي تأتيه من الخارج.

الثالث ــ التأنق والزينة.

لون الملابس الخارجية وتأثيرها في الجسم

الأثواب إما داخلية تلبس على الجلد مباشرة، وإما خارجية تلبس فوق الملابس الداخلية. ولون الأثواب الخارجية له تأثير كبير في شعورنا بالحر، فالإنسان الذي يلبس الأسود إذا عرض نفسه لأشعة الشمس يشعر بحرارة شديدة. وذلك بخلاف من يلبس ثوباً خارجياً أبيض ويتعرض للشمس فإنه لا يشعر بالحرارة الشديدة التي يشعر بها لابس الثوب الأسود، وقد شعر بهذا الخلاف الشديد المستر جراهام جيولوجي حكومة السودان في يوم من أيام سنة ١٩١٣ عندما كان ماشياً بكردوفان تحت أشعة الشمس وهو يرتدي قميصاً من الكاكي فشعر بأنه حران وبأن الحرارة التي تلابسه أكثر مما يشعر به أثناء لبسه للقميص الأبيض الذي تعود لبسه. وبما أن الرجل يشتغل في

الطبيعيات فقد بدأ يفكر في سبب هذه الظاهرة وبدأ يعمل تجاربه، وكتب مقالة عنها بمجلة الصحة بلوندرة ثم مقالة أخرى بالتيمس اليومي، وقد ابتدأ بحوثه بأن وضع قميصاً (كاكي) اللون وآخر أبيض في الشمس بحيث كان جيب كل منهما للأعلى وعزلهما عن حرارة الأرض ووضع ترمومتراً بجيب القميص الكاكي فارتفع الترمومتر إلى درجة /٥٥/ سنتيجراد في بضع دقائق ثم وضع الترمومتر نفسه في ماء بارد وبعد ذلك وضعه بجيب القميص الأبيض مدة مطابقة للمدة الأولى فوصل إلى /٥٠/ درجة سنتجراد فقط، ثم عاد ووضع الترمومتر بجيب الكاكي لمدة /٢٠/ دقيقة فارتفع إلى /٦٠/ درجة ثم أخذه ووضعه بجيب الأبيض فهبط بسرعة إلى /٥٧/ درجة ثم أعاده لجيب الكاكي فارتفع إلى /٦٧/ درجة ثم أعاده ثانياً لجيب الأبيض فانخفض بسرعة إلى /٦٠/ درجة، ولما ترك لمدة عشرين دقيقة في جيب القميص الأبيض هبط إلى /٥٥/ درجة. وبعد هذه التجربة ترك لبس القميص الكاكي كلية وأخذ يجدد بحوثه من وقت لآخر مدة ثمان أو تسع سنين وكانت النتيجة كما يأتي:

بعد متاعب أمكنه الحصول على ترمومترات جيدة كانت درجة الخلاف بينها لا تتجاوز نصف درجة ما بين درجة عشرين ودرجة الغليان. وبعد ذلك انتخب /١٤/ نوعاً من المنسوجات كلها مستعملة في مصر والسودان منها /٣/ أنواع من قطن لماع تقليد القطن السرج ونوع واحد من صوف رفيع أزرق ونوع آخر من قطن منشستر صبغ أزرق قاتم بمصر مما يستعمل كثيراً بين البحارة في النيل و/٦/ أنواع مختلفة اللون من الكاكي منها المستعمل في الجيش المصري وكاكي لندن وكاكي بدفورد وكاكي الضباط وكاكي سولارو (لون سطحه الداخلي أحمر)، ومنسوجاً آخر ليس بكاكي أصلي بل هو خليط من خيوط حمراء وزرقاء وصفراء، وأخيراً نوعاً من قطن أزرق فاتح (لبني) وهو الملبوس الشائع الكثير الانتشار بين العمال بشمال السودان، وتيل لندن الأبيض اللون ونوعين من القماش القطن أحدهما مغسول والآخر ببوشه ووضع كل هذه الأقمشة متجاورة بعد أن طواها عدة طيات في محل عزل عن الأرض بالبطانيات وفوقها ملايات بيضاء لمنع وصول الحرارة الأرضية للأقمشة ووضع بكل قطعة من القماش تحت الطبقة العليا ترمومتراً وأخذ يقيد كل نصف ساعة درجة الحرارة. وذلك من الساعة /٩,٣٠/ حتى الساعة /٤/ مساءً. وعرض أحد الترمومترات للشمس مباشرة كي يتحقق من صحة النتائج ومقارنتها. والنتائج التي حصل عليها لا تدع شكاً في صحة البيانات التي استخرجها من تجاربه.

وقد دلت الألوان القاتمة على أنها تحفظ الحرارة أكثر من الألوان الفاتحة وبأخذ متوسط الاختلافات اليومي مدة الثماني أو التسع سنين التي أجرى فيها تجاربه ظهر له ان الفرق كان /٤٧/ درجة فهرنهيت بين القماش الأسود والقماش الأبيض ودرجة الحرارة في الكاكي كانت تختلف باختلاف ألوانه ومنسوجه أيضاً، حتى أن السولارو الذي كانوا يعتقدون فيه أن له خاصة كبيرة في منع الحرارة كان الفرق بينه وبين الأبيض /٢٦/ درجة. وقد عمل تجارب أيضاً على البويات فوجد أن البوية البيضاء تمنع الحرارة أكثر من غيرها والبوية الخضراء تحتفظ بالحرارة إلى حد كبير.

الأشعة غير المنظورة

والتي تساعد على التحليل الكيمياوي وتأثيرها في الجسم

ووجد المستر جراهام بواسطة وضعه أوراق الفتوغرافيا بين ثنايا أقمشة مختلفة الألوان والنوع والنسيج أن التأثير الذي يحصل لأوراق الفتوغرافيا يختلف باختلاف سمك القماش ومقدار ما به من المسام، أما تأثير اللون في هذا الأمر فقليل. ومن الحقائق التي حصل عليها أنه ولو أن الأبيض يسمح بمرور الأشعة التي تؤثر في الفتوغرافيا ولكنه يمنع تماماً حرارة الشمس، واستنتج من ذلك أن ما ينسبونه من الضرر للأشعة فوق البنفسجية بالبلاد الحارة مبالغ فيه، ومن رأيه أن أكبر ضرر يخص للإنسان بالبلاد الحارة من تعرضه لأشعة الشمس ناتج من الأشعة الظاهرة لنظيف لا للأشعة الخفية.

ولأجل أن يتحقق من تأثير الألوان في مقدار إشعاع الحرارة وضع مقادير متساوية من المادة في درجة الغليان في ثلاث قلل من زجاج رقيق غطى سطح إحداها ببوية سوداء، والثاني بيمنا بيضاء والثالثة بلون أخضر قاتم ووضع القلل بغرفة هواؤها ساكن وكانت المياه داخل القلل ترج وتؤخذ حرارالها في أوقات مختلفة فوجد أن الاختلاف في درجة التبريد كانت قليلة لدرجة أنه ظن أنه حصل خطأ في التجربة.

وجميع هذه التجارب تؤيد الاعتقاد الشائع عند الناس وهو أن لبس الملابس الخارجية البيضاء زمن الصيف يخفف الحرارة، وتؤيد أيضاً قول تندال وهو: إذا أردت ألا تشعر بالحر الشديد فالبس لباساً أبيض وغط سطح مترلك باللون الأبيض. واللباس الأبيض الخارجي الرفيع كاف لمنع حرارة الشمس الشديدة عن الجسم.

وترتيب الألوان بالنسبة لامتصاص الحرارة هو كالآتي: الأسود، الأزرق القاتم، الأزرق الفاتح، الأخضر القاتم، الأخضر الفاتح، الأصفر القاتم، الأصفر الفاتح، الأبيض.

الأقمشة ونوعها

الملابس تصنع من أقمشة مختلفة التركيب فبعضها مصنوع من مواد نباتية وبعضها من مواد حيوانية وأخرى من الاثنين معاً.

والتاريخ القديم يدلنا على أن الملابس المصنوعة من صوف الحيوانات استعملت في القرن البرنزي وشعر الجمل استعمل منذ قرون عدة، والحرير المأخوذ من دودة القز استعمل بالصين منذ /٤٥٠٠/ سنة تقريباً، والقطن استعمل بالهند منذ زمن بعيد. هذا ولمعرفة قيمة القماش من حيث النفع أو الضرر الذي يعود منه على الجسم يجب أن تحلل الملابس وتبحث أوصافها ومميزاتها وتأثيرها في الجسم. والمواد التي تصنع منها الأقمشة هي الآتية:

القطن: الملابس القطنية متينة ولا تنكمش بالغسيل وتمتص الحرارة بسرعة ولا تمتص الرطوبة ولذا فمن الخطأ عمل الملابس الداخلية منها لأنها تبتل بالعرق ثم يتبخر العرق منها ويحدث برداً بالجسم، والمنسوجات القطنية تفضل عن المنسوجات الصوفية للملابس الخارجية للمرضى وللممرضين والممرضات لأنها أسهل تنظيفاً ولأن المواد العضوية السابحة في الهواء تلتصق بها أقل بكثير مما تلتصق بالصوف.

الكتان والتيل: الملابس التيلية كالملابس القطنية موصلة جيدة للحرارة ولا تمتص الرطوبة وتحفظها للجسم. وعليه فهي لا تنفع لبس الداخلي.

الصوف: الصوف مادة نفيسة للملابس وهو موصل رديء للحرارة ويمتص الرطوبة بسرعة كبيرة. ولذا فهو نافع جداً لعمل الملابس الداخلية منه، وفي زمن الحر يجب أن يلبس الصوف الرفيع ملاصقاً للجسم لمنع حصول البرد الذي يتسبب عنه الإسهال والتهاب البلورا والروماتزم والتهاب الكلي و... الخ من الأمراض التي يسببها «البرد».

الحرير: موصل رديء للحرارة وأقل امتصاصاً للرطوبة من الصوف. وينفع للملابس الداخلية لأنه أنظف وأقل تهييجاً للجلد ولا ينكمش بالغسيل كالقطن ولو أنه لا يمتص العرق كالصوف.

الجلد: أهم خاصة له أن الماء لا ينفذ منه، ويمنع تجديد الهواء المحيط بالجلد، وهو لباس جيد في الجهات التي بها عواصف وأمطار كثيرة. وهو أحسن الملبوسات للبلاد الشديدة البرد.

ومعلوم أنه كلما كانت الملابس موصلة رديئة للحرارة كانت أدفأ ونسبتها في ذلك ترجع لنسبة حفظها لحرارة الجسم. وترتيب الملابس الشائعة الاستعمال بالنسبة للدفء هي كالآتي:

الصوف، الفرو، الزغب، الحرير، القطن، التيل.

وللمسام التي توجد بالأقمشة تأثير على الدفء لأنها تحوي حويصلات هوائية والهواء موصل رديء للحرارة، وأكثر الأقمشة مساماً طبيعية لا صناعية هي: الفانيلا، وأقلها هو الحرير. والأقمشة الخشنة الملبس أدفأ من الناعمة لأنها تساعد الدورة الدموية الشعرية السطحية وتنبه الجلد.

ويجب أن تكون الملابس خفيفة بقدر الإمكان ولا تمنع التبخر وتمتص العرق بأقل درجة ممكنة ولا تلتصق بالجلد إن كانت رطبة.

ومن العوامل المهمة التي تجب مراعاتها عند بحث مسألة الملابس قوة امتصاصها للرطوبة. فإذا غمر /١٠٠/ جرام من المنسوجات الآتية في الماء تكون درجة امتصاص كل منها كالآتي:

الفلانيلا ٢٠٠، القطن والصوف ١٠٠، الحرير ٩٥، التيل ٧٥ جراماً من الماء.

وعند حصول العرق على الجلد بعضه يتبخر وبعضه تمتصه الملابس، ومن الحقائق العلمية الثابتة الآن أن للجلد مقداراً كبيراً في كمية إنتاج العامل. وقد عملت تجارب علمية على مقدار تأثير رطوبة الجو المحيط بالجسم، فوجد أنه إذا كانت درجة الرطوبة لا تزيد عن ٧٩% يكون إنتاج العامل طبيعياً ويقل إنتاجه بقدر ٣% إذا زادت الرطوبة عن ٨٠%.

الملابس التي توافق الصحة

دلت التجارب على أن الملابس الجيدة التي توافق الصحة هي التي لا تحدث العرق لشخص جالس بمكان هواؤه ساكن ودرجة حرارته من ٢٧ لغاية ٣٠، والملابس التي توافق البلاد الحارة يجب أن تكون خفيفة بقدر الإمكان ولا تمنع التبخر وتمتص العرق بأقل درجة ممكنة ولا تلتصق بالجلد إن كانت رطبة وتعكس الحرارة بقوة، ودرجة امتصاصها للحرارة تكون قليلة وتمنع مرور أشعة الشمس فيها. وعليه فالملابس التي توافقنا في أيام الحر هي الملابس القطنية والتيلية ذات المسام التي تساعد على تهوية الجسم وأن تكون الملابس الظاهرة بيضاء وخفيفة، ورفيعة وعلى العموم فالأمور التي يجب أن تتوفر في الملابس هي:

١ـ أن تقي الجسم من البرد والحر صيفاً وشتاءً وأن تجعل حرارته طبيعية أي بدرجة واحدة.

٢ـ ألا تمنع الجلد عن تأدية وظيفته.

٣ـ ألا يحصل منها هيج أو تسمم للجلد.

٤ـ ألا تعطل شيئاً من حركة العضو وألا تؤثر في وظيفته.

الملابس التي تناسب الأجزاء المختلفة للجسم

غطاء الرأس

يجب أن يكون خفيفاً وكثير المسام لتجديد الهواء ولتسهيل التبخير ومانعاً لحرارة الجو الخارجية أثناء لهيب الصيف وحافظاً لحرارة الرأس أثناء برد الشتاء ويجب أن تكون حافته السفلى واسعة وبحالة يمكن دخول الهواء منها.

ولأجلٍ أن يكون الجسم مستريحاً والعقل نشطاً ونيراً يجب أن يكون رأس الإنسان بارداً، ومن الضرر الجسيم وضع شيء من قماش سميك خال من المسام على الرأس كما يفعل بعض أهالي الصعيد لأنه يجب دائماً أن تكون تهوية لباس الرأس جيدة لأن الهواء أحسن شيء لتبريده وتنشيط العقل، وهنا أذكر أن بعضهم عمل التجربة الآتية على البرنيطة فوجد:

الحرارة بداخلها ١١٠	في الظل في هواء ساكن
والحرارة من ١٠٢,٥٠ لغاية ١٠٥	في الشمس في هواء متحرك
والحرارة داخل برنيطة من قماش ٩٧,٥٠	في يوم مشمس وحر
وداخل برنيطة من حرير ٨٦	وبرنطية باناما ٨٠ فقط

غطاء البدن

العنق يجب أن يكون مكشوفاً كالوجه، أما اليدان فتغطيان بملابس تناسب درجة حرارة الجو، والملابس الضيقة التي تنبس على الجذع واليدين على العموم مضرة إذا كان ضيقها شديداً، وأحياناً تكون سبباً لرفع الحجاب الحاجز ومضايقة الرئتين والقلب وتحويل وضع الكبد والضغط عليه وعلى بعض الأحشاء البطنية المهمة. ويكون الشخص عرضة للدسبيسيا (عصر الهضم) وسوء التغذية وآلام المعدة والقيء وضيق التنفس والخفقان والإغماء، وتضعف الملابس الضيقة أيضاً العضلات وتشوه العمود الفقري وكذا الأكتاف وتزيد انحناء الظهر.

والأحزمة إن كانت مشدودة حول الوسط تعرقل التنفس وتضر الأحشاء التي تضغط عليها.

ويجب تدفئة الأذرع والأرجل في زمن الشتاء أما في غير ذلك فتغطيتها ليست لازمة بل بالعكس تعريتها تساعد في تهوية الجسم وترطيبه والشعور بالراحة.

غطاء القدم

الأوفق أن تكون أحذية القدم نصفية، وجزؤها العلوي من جلد طري حتى لا يضر المفصل الرسغي، وأن تكون مناسبة لحجم القدم، وأن يكون قفلها عريضاً بقدر عرض القدم عندما يكون ثقل الجسم مستقراً عليها، ويجب أن يكون الكعب واطئاً، وليس عالياً لأن ذلك يدفع ثقل الجسم على أصابع القدم فيضرها.

كلمة عامة

الرجل المتعود على الملابس إذا جرد من ملابسه يمكنه تحمل الجو إذا كانت الحرارة ما بين ٣٥ و٣٧، ويشعر بأن الجو منعش إن كانت حرارته من ٢٥ــ٣٥ وبارد إن كانت حرارته ١٥° وإن كانت الحرارة من ١٠ــ١٢ يشعر ببرد قارس. والممثلون بسبب تعودهم يتحملون الجو على المسرح بدرجة ١٤ بضع ساعات. ويجب أن تكون أنواع الملابس حسب حرارة الجو كالآتي:

إذا كانت درجة حرارة الجو ٣٥ لا يمكن الوقاية من العرق بأي نوع من أنواع الملابس.

إذا كانت درجة حرارة الجو ٢٥ تلبس ملابس صوف رفيعة من الداخل، والملابس الظاهرة تكون من قطن أو تيل أو حرير.

إذا كانت درجة حرارة الجو ١٥ تلبس ملابس متوسطة وتكون أميل للصيف.

إذا كانت درجة حرارة الجو من ٨ لغاية ١٥ تلبس ملابس ظاهرة للشتاء خفيفة وبدون بالطو

إذا كانت درجة حرارة الجو من ٨ لغاية ٤ تلبس ملابس الشتاء مع البالطو.

إذا كانت درجة حرارة الجو من ٤ فأقل تلبس ملابس الشتاء وبالطو من الفرو.

والملابس الكثيرة أقل ضرراً من الملابس التي تحجز التهوية لأن الأخيرة تحدث عرقاً غزيراً وتترك الجلد زمناً طويلاً يشتغل بلا فائدة.

الملابس بالنسبة لبعض الأمراض

ملابس مرضى السل: مسألة الملابس التي تليق لمرضى السل بحثها بالتجارب العلمية منجت، وذكر أن الملابس الصحية لها تأثير حسن على مرضى السل. وذلك لما لأشعة الضوء من التأثير ضد البكتريا. ولذا فملابس مرضى السل يجب أن تكون بحالة يتيسر معها دخول الضوء بسهولة للجسم. وذلك ليستفيد من التأثير العلاجي للضوء فإنه مقو للجسم ومضاد للبكتيريا، ولهذا السبب فالملابس البيضاء هي أحسن أنواع الملابس لأنها تسمح بمرور أكثر عدد من الأشعة الكيمياوية ولا تمتص شيئاً من الأشعة الملونة، وعليه فنصيحتي للمسلولين أن يلبسوا ملابس بيضاء من الكتان أو القطيفة أو القطن وألا يلبسوا بأي حال من الأحوال الحرير الأبيض، ويلي الملابس البيضاء الملابس الزرقاء أو البنفسجية ولو أنها لا تؤدي عمل الملابس البيضاء لأنها بدلاً من أن تمرر جميع أشعة الطيف تمنع الأشعة ما عدا المماثل لألوانها. واللون الأزرق واللون البنفسجي تمر فيهما الأشعة الكيمياوية فقط، ويجب منع لبس الأسود والأحمر والأصفر والأخضر منعاً باتاً لأنها تمنع مرور كل الأشعة التي لها تأثير مضاد لبكتيريا. ويمكن السيدات أن يرتدين هذه الألوان ولكن من الصعب على الرجال لبس هذه الألوان لأنهم إذا سعوا في الطرقات بالملابس البيضاء في الصيف فلا يمكنهم ذلك في الشتاء.

الروماتزم المزمن: والملابس الداخلية التي توافق المصابين بالروماتزم المزمن هي التيل المخرق وهو أليق الملبوسات صيفاً ولا يليق لبس «التيل» في الشتاء لأنه بارد ومرطب ولكن في هذه الحالات يمكن لبس صديري صوف فوق التيل وبذلك يمكن الحصول على ملبس دافئ ومريح.

تصلب الشرايين: المصابون بتصلب الشرايين يكون تولد الحرارة عندهم قليلاً، وعليه يجب أن يلبسوا ملابس دافئة. وملابسهم الداخلية تكون من صوف. ويجب أن يحترسوا من الجو البارد الرطب.

الأشخاص الضعاف: لبس الفانيلا الداخلية أحسن وأسلم للأشخاص الضعاف وذلك لأجل المحافظة على حرارة أجسامهم.

دكتور عبد الحليم محفوظ

المصدر: مجلة الهلال ــ س/٤٠ ــ ج٦ ــ إبريل ١٩٣٢.

١٥. حاجتنا إلى توحيد الزي

(استفتاء)

رأي الأستاذ الشيخ البشري:

مهد الأستاذ الشيخ ــ عبد العزيز البشري ــ لرأيه، بحادثة طريفة لا يزال هو نفسه يذكرها في شيء من العجب والدهش! وقد رواها لي الأستاذ، بعد أن كان بها ضنيناً، وألح ــ في ظرفه المعهود ــ أن لا أشير إلى هذه الحادثة لعدة أسباب!... ولكني أستميح الأستاذ الكبير عذراً، إذا أنا مسستها في شيء من الرفق، ففي سردها يبرز للناس رأيه الناصع في مسألة تباين الزي الذي نحن بصددها...

فقد حدث في سنة ١٩٢٥ ــ أن اعتزم طلبة مدرسة «دار العلوم العليا» تغيير زيهم المعروف وهو «الجبة والقفطان والعمامة»!.. إلى «الجاكتة والبنطلون والطربوش»!.. ودخلوا فصولهم فعلاً بهذا الزي المأمون الجديد. وكان لذلك ضجة في دوائر وزارة المعارف المصرية. وكان وزيرها معالي «علي ماهر باشا». فدعى إليه الأستاذ البشري، وطلب إليه أن يبذل جهده في سبيل حمل طلبة دار العلوم ــ معهد اللغة العربية الوحيد في البلاد ــ إلى الرجوع إلى زيهم القديم. فكم كانت دهشة الباشا عظيمة، حين وجد «الشيخ البشري»!! ــ وهو الوسيط ــ أشد تحمساً «للطربوش» من الطلبة، وأحر توقاً ورغبة في هذا الزي منهم... بينما هو لا يزال «شيخاً» يلبس العمامة على رأسه!؟.. وعاد «الشيخ» الأستاذ البشري يعقب على ذلك بقوله:

«لعل المسألة مسألة واقع أكثر منها تعلقاً بالرأي. فالواقع أن الأمة كما تتشخص بسحن أهلها وأخلاقهم وعاداتهم ولسانهم، وسائر أسبابهم، فإنه يجب كذلك أن يكون من دلائل وحدتها زيهم أيضاً.

ولا أعرف بلداً اختلف أزياء أهله، اختلاف المصريين!.. حتى لكأنهم في «برج بابل»!.. وحتى لتستطيع أن ترتقي بأشكالها إلى العشرة!.. ولا يكاد يجمع بين بعضها وبعض نسب أو سبب!..».

«على أن الأزياء الرئيسية في مصر، أو المعترف بها في «العرف الرسمي» ــ اثنان الجاكتة والبنطلون ــ والجبة والقفطان!؟.. وإذا حق التوحيد، أو إذا لم يكن منه بدّ ــ وهذا على الأرجح ــ فلا أحسب أن هناك سبيلاً إلى إكراه المطربشين على اتخاذ العمائم. وإني أظن أن العكس أيسر كثيراً. وكذلك يفعل التيار الجارف الآن».

«ومهما يكن من شيء، فإنني أؤثر التوحيد، على أن يبقى رجال الدين متخذين زياً خاصاً بهم»!

* * *

رأي الدكتور محجوب ثابت:

«إذا أردت توحيد الزي، كأن يكون الزي العام «أفرنجياً». فأحسب أن هذا يتنافى عملياً مع بيئاتنا المختلفة. فمثلاً: كيف تنتظر قروياً في الصعيد يشتغل في حرارة الشمس المحرقة ـــ وهو لا يكاد يتقمش إلا بما يخفظ عورته ـــ أقول كيف تنتظر منه أن يلبس «البدلة والبنطلون»!؟ وهو أيضاً لا يطيق أن يغطي ساقيه ورجليه..!

ولقد كان للزي الفردي توجيه له أثره المفيد من الطبيعة ـــ كما هو في مصر ـــ حيث تستطيع الأجسام في أزيائها الحالية أن تستفيد من أشعة الشمس فوق البنفسجية.

وإني أوجه نظرك إلى أن لكل هيئة في أوروبا زياً خاصاً بها. فطلبة الجامعات وما اتخذوه من اللباس المعروف «بالبنكربوكر». ورجال الرياضة «الاسبور» أصحاب الأقمصة المقطوشة، والعمال، وغيرهم. كل أولئك جميعاً، لهم أزياؤهم الخاصة. والمتحكم في الزي هو الذوق، والميل إلى الاتفاق والتجانس والتناسق في الهيئة والصورة. ومع ذلك كله. فإني أرى أن توحيد الزي خيال بديع، يتمثله عقل فنان!؟

أما كلمة البس ما يلبسه الناس، ففيها كثير من التحكم والاستعباد، لأن للعرف وقانون الوراثة النفسية، وتأثير البيئة أحكامها في أزيائنا، ولهذا فأنا أعارض القائلين بالتوحيد. وأفضل ـــ طبياً واجتماعياً ـــ أن يظل المصريون بأزيائهم المختلفة «كقوس قزح»!».

* * *

رأي الدكتور منصور فهمي:

«تتشكل الأزياء تحت تأثير الأعمال المختلفة التي يقوم بها مختلف الطوائف في الأمة. فلرجال الحرب لباسهم الذي يوافق عملهم، وللصناع في العمل زي يتناسق مع مقتضى نشاطهم، ولعمال الزرع لباس يناسبهم. فأنت ترى أن الألبسة لا بدّ تختلف بعض الاختلاف في أمة واحدة لكن رغم ذلك فللأمم المميزة وحدة ظاهرة، ومسحة غالبة في الأزياء.

ويبدو لي أن أزياء القامة لرجال الأمة المصرية تتطور في جملتها، لما يكون أدنى شبهاً بالزي الغربي. أرى الخفراء النظاميين الآن يلبسون سروالاً أزرق قريب الشبه «بالبنطلون الأوروبي»!.. وعليه قميص أزرق أيضاً، وجملة اللباس لا يخلو من ذوق وتيسير لحاجات الأعضاء في حركتها للعمل. ويلوح لي أن أكثر عمال الفلاحة في الحقول يتسربلون «بالقميص واللباس»!.. لكثير من أعمالهم في الزراعة. وهذا الزي إذا هو تطور بعض التطور قد يصبح شبيهاً بلباس الغربيين. لكن أهل المدن في بلادنا يختلفون اختلافاً بيناً في زي العامة. حتى لكأن الإنسان يشعر أنهم من مجموعة أمم. على

أن الزمن يسير بهم رويداً رويداً إلى اللباس الأوروبي عدا طبقة الدينيين ومن هم في حكمهم، فلباسهم سيظل متناسباً مع شؤون التاريخ الخاصة بأزيائهم، وبما ينبغي لهم حيال الحالات الدينية من تمييز.

أما لباس رؤوسنا فسيظل يرى فيه موضع الحرص على طابع يميزنا عن غيرنا من الشعوب. وقد دعا الكثيرون إلى محاكاة الغربيين في لبس القبعات، وأيدوا دعوتهم بما يقويها من حجج صحية واقتصادية أو غير ذلك. و لم تنجح دعوتهم... ولن تنجح، ما دمنا نحرص على مشخصات قومية أو شرقية!.

وطبيعي عندئذ أن لا يخلوا لباسنا من شيء يشعر بمصيريتنا. وأرجح أنه «الطربوش» وأن الفوز سيكون له عند أهل الحضر جميعاً. وإن قدر أن يتغير «الطربوش» إلى لباس مقبول مبتكر، فليس هو «القبعة» على أي حال.

والخلاصة: إنما وحدة الأزياء، ستأتي في يوم لن يكون بعيداً. وإن هذه الأزياء المستقبلية مهما كان فيها من أثر الغرب، فسيكون فيها طابع لأمة تعرف كيف تبتكر إذا هي حاكت..!».

* * *

رأي الأستاذ عبد القادر المازني:

بدأ الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني حديثه فقال: أن مسألة اختلاف الأزياء في مصر ، من أمهات المسائل التي يجب أن يعيرها المصلحون ما تستحقه من العناية والاهتمام وذكر — في تهكمه اللاذع، وخفته الأنيقة — أنه أحس حاجة الأمة إلى توحيد الزي، ونادى بهذا الرأي أيام أن كان رئيساً لتحرير جريدة «الاتحاد». ودفعه إخلاصه لهذه الدعوة إلى مهاجمة وزير المعارف — في صدد حادث مدرسة «دار العلوم» العليا — وكان عنيفاً مؤلماً في هجومه، على حين أن «الاتحاد» — في هذا الوقت — كانت تعتبر صحيفة ذلك الوزير ولسان حزبه.

ثم استطرد في القول:

«والواقع — أن زي الأمة نتيجة لظروف حياتها، وطبيعة الجو في بلادها، وقد اتخذت الأزياء عند الأمم المظاهر الموافقة لذلك إلا في مصر، ومصر وحدها — دون سواها!! — فقد تعددت فيها الأزياء، حتى صارت لا حصر لها... وتوحيدها أحق وأولى، وهي سائرة لا محالة في الطريق المؤدي إلى ذلك شيئاً فشيئاً، وتبعاً لانتشار التعليم وزحف المدنية! والطبقات المصرية — على اختلافها الآن — يلاحق بعضها بعضاً في اتخاذ الزي العام الذي صار مظهره الموظفون والمتعلمون».

«وليس من رأيي ــ أن يكون التوحيد بقانون، أو أمر حكومي أو ما يشبه ذلك؟ لأنه يكون تكليفاً لا موجب له، ويكفي ــ فقط ــ التشجيع على ابتغاء التوحيد، واحتثاث الخطى فيه».

* * *

رأي الدكتور عبد الوهاب عزام:

«ما قدمت من أوروبا مرة، وقد تعودت عيناي زياً موحداً متجانساً. وما أشرفت من الباخرة على أزياء المصريين المختلفة المتنافرة، إلا خجلت وأحسست بالأسف، لهذه الفرقة الظاهرة، الواضحة، البادية المعالم التي لها ولا ريب أثرها الفعال في الفرقة الباطنة.

«ولا بد لكل أمة من زي واحد ــ لا يختلف إلا لضرورات المعيشة في المدن والقرى، وما تقتضيه الصناعات، على شرط أن يكون أساسه واحداً.

«وإن اليوم الذي تتحد فيه أزياء المصريين، لهو من أسعد أيامي، وأجداها عليهم، فمتى يكون ذلك؟ متى..!؟».

* * *

رأي الأستاذ السيّد مصطفى عبد الرازق:

«إن مسألة الوحدة في الأزياء، ليس لها في نظري شأن إلا من ناحية أنها مظهر من مظاهر الوحدة في الشعور وفي الذوق وفي الإحساس بالروابط الاجتماعية وقد تكون مسألة الأزياء من أقل مظاهر هذه الوحدة خطراً. وفي حياتنا من مظاهر التفرق في الشعور وفي الذوق وفي الإحساس، ما هو أخطر وأحق بالعناية وبالاهتمام من مسألة الأزياء.

والذي ينبغي أن تتوجه إليه العزائم هو العمل على إزالة ما بين أذواقنا ومشاعرنا من الفرقة والتنافر، في كل مظاهر حياتنا..؟!

أما مسألة المفاضلة بين طراز من الزي، وطراز غيره ــ فهي ترجع إلى اعتبارات: بعضها إنساني عام، وبعضها قومي خاص. وبعضها يتصل بشؤون الصحة وأسباب النشاط، وبعضها يرجع إلى الفن والجمال...

وربما كان توافق كثرة الناس على اختيار نوع خاص من أنواع الزي، دليلاً على أنه أكمل من غيره وأجمع لأسباب الزينة ووسائل النشاط، وأدفع لعوامل الجو، وتغييرات الطقس... في الأقطار المختلفة.

وعلى هذا الاعتبار يكون اللباس الذي نسميه «بالزي الأوروبي» وهو أقرب الأزياء المعروفة إلى ملائمة الأذواق في العصر الحاضر، وإلى الوفاء بحاجة الناس الذين يعيشون عيشة تكاد تكون كلها من صنع المدينة.

على أن في مصر اعتباراً خاصاً يجعلني أتردد في تشجيع الدعوى إلى التجرد من زينا القومي... «كالجبة والعمامة»!.. لنكون جميعاً في لباس الفرنجة.

ذلك الاعتبار هو أن بعض الأجانب في مصر نفسها، يبدون شيئاً من الازورار من «لباسنا القومي»!! باعتباره علامة البعد عن الاتصال بالمدنية الحديثة. وربما لمح اللامح شيئاً من هذا في ذوق شبابنا الناشئ على تربية غربية حديثة!

وكثيراً ما نقرأ في الجرائد أن فتاة متعلمة أبت أن تتزوج من شاب متعلم. وليس لإبائها من سبب إلا أنه... «معمم»!

أليست هذه الظاهرة السيئة وحدها بكافية لأن تجعلنا نتحدث في أمر الزي على حذر، مخافة أن نقوي في شبابنا هذا الضعف الذي يغريهم بتحقير مظهر من مظاهر شرقيتهم ووطنيتهم؟

وإني لا أكاد أدعو في مصر — دعوة عامة — للعودة إلى زينا القومي حتى تكون حرمته في نفوسنا، وتكبر بذلك حرمتنا عند أنفسنا.

ويومئذ لا نجد أجنبياً ينظر إلينا في بلادنا نظرة متعالية حين تكون على غير شكله ويومئذ لا نجد فتاة تأبى أن تكون زوجاً لفتى — لا يزين مفرقه «الطربوش»!. ولا يبدو قوامه منسرحاً أهيف في سترة و«بنطلون»!».

* * *

هذه آراء بعض زعماء التفكير في مصر في هذا الوقت وأظنها لا تبعد كثيراً عن آراء الجمهور الذي يتزيى بتلك الأزياء المختلفة، ويتشكل بتلك الأشكال المتباينة... ولا يأبى عقلاؤه أن يتوحد الزي بينهم، لنخلص من هذا الخلط العجيب الذي يشبه «عيد المرافع»! — المعروف «بالكرنفال»!.. ونخص تبعاً لهذا الخلاص الظاهر في ملابسنا من التنافر في الذوق والشعور.

«ولعلي أول من يسره توحيد الزي ولو كان «بلغة» و«جلباباً» و«طاقية»!».

أسعد حنا

المصدر: مجلة المجلة الجديدة — س٣ — ع٣ — مارس ١٩٣٤.

١٦. الحروب والأزياء

للخبير الحربي الإنجليزي «ليدل هارت»

يرى الناس أن «زي النساء» يتغير كثيراً ويتبدل سريعاً بحيث لا يمكن التنبؤ بما يجد عليه من التغير وما يعتريه من التبدل. ولكني أرى نقيض ذلك، أرى أن ثبات «زي النساء» واستقراره هو الملحوظ المعهود، وأن ما يعتريه من التغيير والتعديل من الوضوح بحيث يتيسر التنبؤ به قبل ظهوره.

فليس الزي، كما ترى جمهرة الناس، مجرد مظهر من مظاهر أهواء النساء ورغائبهن وهي كما نعهد تتغير وتتقلب من يوم إلى يوم. بل إنه، على النقيض من ذلك، دليل على ما يضطرم في العصر الذي ابتكره من التيارات الصاخبة العنيفة. إنه يكشف عن الروح التي تحدد اتجاه هذا العصر في السياسة وأهدافه في الاجتماع.

ولهذا فإن «زي النساء» ليس أمراً تافهاً يسيراً، بل إنه يستحق اهتمام المؤرخين الجادين المحققين، واهتمام السياسيين الذين تعنيهم شؤون المستقبل القريب وما سوف يضطرب فيه من أحداث وما يجري من تيارات.

على أن هذا الرأي ينطبق، على الأخص، على الأقطار الحية التي تأخذ بالحضارة الغربية، أي التي تبدو فيها النساء شديدات الاستجابة لما يجري حولهن من الشؤون والأحداث، فيسجلن هذه الاستجابة فيما يتخذن من لباس وما يبتكرن من زي، كأن ملابسهن بارومتر يسجل حالة الجو الذي يتنسمن هواءه ويتأثرن بعواصفه... أي أن هذا الرأي صحيح في الأقطار التي يقوم نساؤها بدور بارز في الحياة العامة، بدل أن يعشن في عزلة تحول دون تأثرهن بما حولهن من حياة ثائرة صاخبة، أو حياة هادئة مستقرة.

فلو أن مؤرخاً — درس هذا الموضوع وأجاده — انتقل من العصر الذي يعيش فيه إلى عصر سواه، لما كان عليه إلا أن يلقي نظرة على زي النساء فيدرك ما يتصف به هذا العصر من الصفات وما يسوده من الأوضاع، أي يدرك ما إذا كان هذا العصر في حالة آمنة مستقرة، أم يعاني حالة ثورية عنيفة. وليس على هذا المؤرخ أن يبذل وقته في دراسة تفاصيل اللباس ودقائق الزي، فإن هذه لا تؤدي في الغالب معنىً جدياً هاماً، بل حسبه أن ينظر إلى الصورة العامة لملابس النساء، وعلى الأخص، إلى حزام الخصر، وما يليه قبل وقوع الانقلاب السياسي، أي قد تعود الأزياء إلى شيء من البساطة والاتزان مما يدل على الإحساس بأن الخطر مقبل زاحف، والرغبة الغريزية في تجنبه وتفاديه. ومثل هذه الرغبة وذلك الإحساس يتفق مع الزي البسيط المتزن الذي يخلو من البذخ والمبالغة.

أما الانقلاب ذاته فيصحبه جو من الإهمال في اللباس. وهذا أمر طبيعي، فإن الناس عندئذ يكونون في شغل بما هو أهم من الملابس والأزياء. فإذا ظلت موجة الإهمال أو الاستهتار هذه بعد انتهاء الانقلاب وسكون الزلزال، فإن معنى ذلك أن الحياة السياسية لم تستقر إلا في الظاهر فحسب، أما في الباطن فما تزال تختزن كثيراً من أسباب القلق والاضطراب، تفصح عنها هذه الأزياء المهملة المضطربة التي لم تعد إلى ما يجب أن تكون عليه من أناقة واتساق.

أزياء الثورة الفرنسية

ويمكن أن نستنتج هذه النتائج من تتبع تاريخ الأزياء بتصفح المجلات النسائية التي كانت تنشر «لوحات الأزياء» منذ أواخر القرن الثامن عشر ثم أخذت تنشر «فوتغرافيات الأزياء» منذ منتصف القرن التاسع عشر. فالثورة الفرنسية أوحت بأساليب خاصة في ملابس النساء، منها ارتفاع حزام الخصر عن موضعه الطبيعي، ومنها اتساع اللباس وتهلهله، حتى صارت الفوضى الماثلة في ملابس النساء دليلاً على ما يضطرم به العصر من روح الثورة على نظام المجتمع القائم حينذاك.

ومع أن الثورة لم تنتقل من فرنسا إلى إنجلترا، إلا أن أزياءها عبرت البحر وغزت المجتمع الإنجليزي. فكان الزي السائد في سنتي ١٧٩٤ و١٧٩٥ يرفع حزام الخصر عن الخصر كثيراً. ولم تنقض سنتان حتى ارتفع الحزام كثيراً حتى بلغ موضع الإبطين، وصار اللباس كله أشبه بكيس كبير ليس له شكل معين متسق. ذلك لأنه وإن لم يقم الشعب بالثورة إلا أن روح القلق والتمرد سرت إليه من فرنسا مدمجة معها ما يلائمها من الملابس والأزياء. ولهذا نجد أن الدوائر الراضية المستقرة، دوائر البلاط الملكي وما يتصل به من المجتمعات، ظلت محتفظة بملابس وأزياء دقيقة أنيقة وسط أمواج من الملابس والأزياء المهلهلة المضطربة. فكنت ترى في أزياء سيدات البلاط الحزام الوثيق، والقمط المشدود وما دونه من كثيب مهيل، والكم الملتصق بالساعد والرسغ.

أما خارج دائرة البلاط وما يتصل بها اتصالاً مباشراً، فإن الأزياء الإنجليزية في العقد الأخير من القرن الثامن عشر تغيرت تغيراً كاملاً. فبعد أن استقر النظام الجديد الذي أقامته الثورة الفرنسية، صار الزي الشائع هو «نصف العري» فارتفع حزام الخصر حتى صار حزاماً للصدر يمر فوق النهدين. وهجرت النساء «الكورسيه» الذي كان يمسك الأرداف من أن ترتج في أثناء المسير. وحذفن أكثر الملابس الداخلية. وقصرن الجزء الأدنى من الثوب وضيقنه كثيراً. وصارت جميع ملابس المرأة «الحديثة» تقل وزناً

عن ثماني أوقيات... وكذلك قصرت النساء من شعورهن، بــل منــهم مــن حلقــن رؤوسهن كما يفعل الرجال، مثلما فعلن بعد ذلك بأكثر من قرن عقب الحرب الماضية.

فلما انتهى عهد الثورة وعهد نابليون، وعاد السلم واستقرت الــدنيا، عــادت الأزياء إلى حالها الأول، عاد حزام الخصر إلى مكانه الطبيعي، واتسع الجزء الأدنى مــن الثوب وطال وأرسلت الشعور والجدائل الطويلة مرة أخرى.

وعندما أشرف العقد الثاني من القرن التاسع عشر على نهايته، أي حوالي ســنة ١٨٢٠ وجدنا القبعات والأكمام تتسع فجأة اتساعاً غريباً ملحوظاً. وكذلك وجــدنا حزام الخصر يتردد في أن يستقر في مكانه، ويريد أن يرتفع عنه قليلاً... لماذا؟ إننا نجــد تعليل هذا في التاريخ، فقد كان ذلك العقد تمهيداً لحالة القلق الــتي ظهــرت في ســنة ١٨٣٠ في صورة زلزال سياسي صغير. ولكن لم يكد ينتهي الزلزال وتســتقر الأمــور حتى عادت القبعات والأكمام إلى حجمها الطبيعي وشكلها المألوف، وكذلك ظهرت الصدرية الأنيقة التي تليها «الجونلة» الممتلئة المتسعة.

واستقر هذا الزي طوال عصر الملكة فيكتوريا حتى نهاية القرن الماضي، فقد كان عصر استقرار في النظام السياسي والأوضاع الاجتماعية، إلا في حالة قصيرة واحــدة، ففي نهاية العقد الرابع من ذلك القرن بدت موجة ثورية جديدة في الجــو السياســي، فظهرت آثارها في تراخي حزام الخصر شيئاً ما. فلما انحسرت هذه الموجة بانتهاء ثورة سنة ١٨٤٨ شدت النساء الحزام على خصورهن ثانية، فبدا من فوقها صدر ناهد ومن تحتها أرداف مهيلة!

الحرب الكبرى الماضية

وحدث في القرن العشرين حدث خطير في أزياء النساء. وكان ذلك قبل وقــوع زلزال ١٩١٤ــ١٩١٨، الذي سمي بحق «الحرب الأوروبية الأهلية»، ببضع ســنوات. فقد رأينا قبعات النساء تكبر وتتسع إلى حد كبير. ورأينا الأجزاء الدنيا مــن أثــوابهن تضيق وتلتصق بالأجسام، ورأينا حزام الخصر يأخذ في الارتفاع عن مكانه. فلما انتهت تلك المعركة الدامية الكبرى انخفض هذا الحزام فجأة إلى أدنى، حتى جاوز الخطر إلى ما فوق الردفين مباشرة. وكذلك أخذت النساء يتخففن من ثيابهن فيقصــرن أطرافهــا ويقللن من عددها. أي أن كل الظواهر التي تميزت بها ملابس عهد الثــورة الفرنســية تكررت مرة أخرى، فاختفى «الكورسيه» وسرت موجة مجنونة من الرغبة في العــري، وقصت شعور النساء حتى سمين في بعض القصص الفرنسي «بالغلاميات».

وفي أثناء فترة الفوضى التي بدأت منذ سنة ١٩٢٠ تكونت جراثيم النزاع الحاضر الذي نعانيه الآن. فكان المفروض أن تخرج الأزياء عن صورها وأوضاعها المألوفة دلالة على ما يضطرم في النفوس من القلق والثورة. ولكن، كما قلنا سابقاً، قد تحدث نكسة بسيطة قبل وقوع الانقلاب السياسي، فتعود الأزياء إلى شيء من البساطة والاتـزان، دلالة على الإحساس بأن الخطر مقبل زاحف، ودلالة على الرغبة الغريزيـة في تجنبه وتفاديه. وهذا ما حدث في تلك الفترة، ففي سنة ١٩٣٠ وجدنا الزي بوجـه عـام، وحزام الخصر بوجه خاص، يعودان إلى شكلهما ووضعهما الطبيعي، علامة على الرغبة المطوية في النفوس في تجنب الحرب والاستمتاع بالسلم.

إن هذه السلسلة من الاتفاقات التاريخية من الوضوح بحيث لا يمكن تجاهلها. فهي تعبر عن العلاقة الوثيقة بين الزي والنظام، أو عن الصلة بين أزياء اللباس السائدة ومـا يجيش في الرؤوس من آراء وما تضطرب به الحياة من أحداث.

ففي ضوء هذه النظرية نجد أنه مما يستحق مراقبته وملاحظته اتجاه أزياء النسـاء بعد هذه الحرب. فإذا عادت هذه الأزياء فاتخذت أشكالاً مقوسة، غير مسـتقيمة، دل ذلك على أن ثمة داعياً قوياً يحملنا على أن نتوقع للدنيا عهـداً طـويلاً مـن السـلام والاستقرار. لأن الأشكال المقوسة تنبئ عن رغبة في التأنق والاستمتاع، وعن اتجاه إلى المسالمة والمصالحة، على نقيض الأشكال المستقيمة الحادة فإنها تنبئ عن اتجاه إلى الحسم القاطع والفصل العنيف، وعن روح باتة حازمة. ولهذا إذا وجدنا أزياء النسـاء بعـد الحرب تأخذ بالخطوط والأشكال المستقيمة كان لنا أن نجد في ذلك سبباً واضحاً كـل الوضوح للقول بأن الحالة السائدة حالة قلق واضطراب، وأن العالم ما يزال مسـتهدفاً لمتاعب وخطوب أخرى.

(عن صحيفة ليليبوت)

المصدر: الهلال ــ س٥٣ ــ ج٢ ــ مايو ١٩٤٥.

١٧. الكرسي الرسولي

يدعو إلى حملة على الأزياء العصرية الخليعة

نرى من واجبنا أن نعيد إلى أذهان القراء، ونحن على أبواب الصيف، الرسالة التي بعث بها رئيس ديوان المجمع المقدس إلى كافة أساقفة العالم، يدعوهم فيها لتنظيم حملة مقدسة، بمساندة أكليروسهم ومنظمات العمل الكاثوليكي عندهم، ضد الملابس الخليعة المخلّة بالحشمة التي تعتبرها الكنيسة خطراً مداهماً على أخلاق أفراد المجتمع قاطبة. وقد صدرت هذه الرسالة بإيعاز من قداسة البابا في ١٥ آب ١٩٥٤. وإليكم أهمّ ما جاء فيها:

حتى معابد الله صارت معرضاً لأزياء مخجلة

ليس من يجهل أن الأنظار قد تقع في فصل الصيف على بعض الأمور التي كثيراً ما تقرّح عيون وتجرح نفوس أولئك الذين يُنزلون الفضيلة المنزلة اللائقة بها أو لا يحتقرون الفضيلة المسيحية والحشمة الإنسانية احتقاراً كبياً.

وهذه الأمور لا تشاهد على شواطئ البحار أو في أمكنة الاصطياف فحسب ولكن في كل مكان أيضاً، في شوارع المدن والقرى وفي الأمكنة الخاصة منها والعامة. حتى وفي المعابد المخصصة بعبادة الله كثيراً ما نلقى عرضاً للأزياء التي تخلو من كل لياقة وأدب.

ولا غزو أن ذلك لخطر يهدد نفوس الشبيبة السريعة الانزلاق نحو الرذيلة ويطعن في الصميم نقاوتهم التي هي أجمل وأثمن حلى النفس والجسد. ويمكن القول بأن زينة النساء في لباسهن (إذا أمكن أن نسمي لباساً ما لا يستر العورة) لهي أقرب إلى البذاءة منها إلى الحشمة.

خطر مداهم على أخلاق الشباب والكهول

وقد بلغ بنا المطاف إلى أن نرى أن كل ما يحصل أو يعرض في الأمكنة الخاصة أو العامة من فحش وفجور أخذت تنشره بلا حياء ولا خجل الصحف اليومية والنشرات الدورية والمجلات على اختلاف أنواعها ومتنوع ألوانها، بينما العدد العديد من دور السينما تعرض على مشهد من الجميع ملفّات (أفلاماً) حُشيت بمثل هذه الموبقات، بشكل بات يهدد الشبيبة الضعيفة الطائشة ويؤثر في الكهول أيضاً، لأن مثل هذه المشاهد المخجلة لتؤذي بالعقول الأكثر براءة.

وليس هنالك من يهتم لما ينتج عن مثل هذه الأشياء من شرور وخطر مداهم على أخلاق المواطنين. ولذا عاد من الواجب اللازب علينا أن نبيِّن للجميع جمال الحشمة ونوصيهم بها، كما ويترتب علينا أيضاً أن نزجر ونمنع قدر المستطاع كل ما يمكنه أن يدعو أو يحرّض على الرذيلة. ثم أن نعيد الجميع بالقسوة اللازمة إلى الأخلاق القويمة. أوَلم يوضح الخطيب الروماني الأكبر قائلاً: «إننا نرى كثيرين من الرجال الذين لا تلين لهم قناة، يخضعون للإيحاءات الدنسة».

عري الأجسام بين المواطنين يؤول حتماً إلى الفجور

ولا مشاحة أن الأمر لذو أهمية عظمى، لأنه يتخطى الفضيلة المسيحية إلى الصحة الجسمية وقوى المجتمع البشري ونموّه. وقد استطاع أحد الشعراء الأقدمين أن يؤكد وبكل حق «أن عريّ الأجسام بين المواطنين يؤول حتماً إلى الفجور» فمن الجلي إذاً أن القضية ما عادت تهم الكنيسة وحدها، ولكن أولئك الذين عُهد لإدارتهم تسيير دفة المصالح العامة أيضاً. فيجب عليهم الاهتمام بأبعاد كل ما يمكن أن يضعف أو يهدم قوى الجسم أو يقوض مناجم الفضيلة.

فعلى الأخص أنتم يا من أقامكم الروح القدس أساقفة لترعوا كنيسة الله وتوردوها موارد الخلاص، أنتم أيها الأساقفة عليكم أن تنعموا النظر بهذه الحالة وتهتموا لها الاهتمام كله وتسعوا جهدكم لاتخاذ كل الخطوات في سبيل درء الخطر وحماية الحشمة واستعمال كل الوسائط الملائمة عادة بناء الآداب المسيحية.

نحن هياكل الروح القدس التي تحرسها الحشمة

فنحن كلنا هياكل الله بالروح القدس الذي يعمل فينا. فحارس وكاهن هذه الهياكل هي الحشمة التي لا تسمح لأي غضن أو عيب أن يلج قدس أقداسها، خشية أن يُهان الله، فيغادر سكناه التي وُصمت بالرذيلة.

وكما يبدو لكل ناظر أن الشكل الذي باتت ترتدي به النساء والشابات ثيابهن لما يخدش الآداب، وهن اللواتي قيل فيهن «أنهن رفيقات الحشمة بل هن الطهارة عينها». ولذا يتحتم علينا أن ننذر جميع طبقات المجتمع ونحرضهم بأوفق الأساليب ونوجّه بنوع خاص الشبيبة لتتقي هذه الأخطار المضرة والمضادة للفضائل المسيحية والوطنية، والتي تعرضها لأفدح الخسائر. «ما أجمل هذه الحشمة وما أبهاها درة للأخلاق!» لنحترز إذاً من أن نسيء إلى الحشمة أو ندنسها بالمغريات السهلة ومباهج الأزياء الكاذبة أو بغيرها من أساليب الإغراء والفتنة التي تكلمنا عنها والتي ما من عاقل رصين إلا ويوالينا متشكياً منها.

البابا يرغب بأن يساهم الجميع في حملة لأجل الحشمة

والحبر الأعظم يتمنى من صميم قلبه أن يهتم الجميع بهذه القضية اهتماماً دائباً ويأمل من الأساقفة أن يكونوا في الطليعة، وألا يهملوا مطلقاً كل ما من شأنه أن يضرم ثورة الإصلاح في هذا الشأن. وأن يعمل رجال الأكليروس، كل ضمن نطاق عمله حسب إشارات أساقفتهم وبموجب توجيهاته/ بفطنة وجد وثبات لنجاح هذه الحملة المقدسة.

كما يجب على الآباء والأمهات أن يوجهوا أولادهم إن بمثلهم الصالح وإن بتحريضاتهم، وأن يستعملوا عند الاقتضاء الحزم والشدة كما يليق بالمسيحيين، ليبعدوا عنهم كل ما يُشكل خطراً. فلا يهدأن لهم بال حتى يروا الحشمة تشع بلألائها الوضاح من كل فرد من أبنائهم.

أما الذين يجاهدون متفانين في العمل الكاثوليكي فنيكن رائدهم مساندة هذه الحملة معتبرينها واجباً من أقدس الواجبات. وليسهروا على عشرائهم الذين يساكنونهم أو هم مرتبطون معهم بصلات أية كانت، ليكون لباسهم وسلوكهم طبق قواعد الحشمة لتشع جمالاتها في الآداب المسيحية. لتعكس عيونهم ضياء نقاء النفس الداخلي وليعطر كلامهم وأعمالهم الجو بأريج الفضيلة. وهكذا يستطيعون بأن يكونوا دعاة للغير، وأن تؤثر توجيهاتهم ونصائحهم في إتباع الطريق المثلى باللباس اللائق والمسلك الحسن.

الخورفسقفوس فيليب بيلوني

المصدر: النشرة الطائفية للأرمن الكاثوليك بحلب ــ حزيران ــ ١٩٦٣.

١٨ـ أزياؤنا في الحاضر

الدكتور حسن حمامي

لقد انتشر اللباس الغربي اليوم عند أكثر المواطنين بدءً من المدرسة والمعمل والمكتب، فلباس الجندي ولباس الحفلات الرسمية والخاصة... إلى غير ذلك من مجارات الحياة الحديثة الآخذة بالتوسع يوماً بعد يوم.

فلباس العريس بعد أن كان شرقياً بحتاً، تحول اليوم إلى بدلة من الجوخ الأسود الملس (سموكن) مع ربطة عنق وياقة مناسبتين لا يختلف بذلك عن لباس أي شاب أوروبي، وحلت المعاطف الجوخية والكتيمة «الترانشكوت» محل الجبة القديمة ذات الفراء، كما شاع في داخل المنازل استعمال «الروب دوشامبر والبيجاما» بدلاً من «قفاطين» النوم التقليدية!

أما في ألبسة العروس، فقد استبدلت البدلة القديمة المخملية المطرزة بخيوط الذهب والفضة (صرما) وبدلة التفتا الحريرية، واستعيض عنهما ببدلة من «الدانتيل» بيضاء منتفخة الشكل مع غطاء رأس أبيض من «التول» لا تختلف عما تلبسه العروس في أكثر بلدان العالم. وفي طرق التزيين استغنت العروس أيضاً عن البراق الذي كان يلتمع على وجهها، كما غابت عن وجه السيدة السورية عموماً أشكال الوشم والحناء ومسحوق السليماني لبياض بشرة الوجه، والورد الجوري، وصبغة الدودة لحمرة الخدين، كما غاب الكحل القديم لسواد العينين والحاجبين بالإضافة إلى عطور الأزهار الطبيعية... وحلت بدلاً عن ذلك كله مساحيق جاهزة كيماوية المنشأ مستوردة تباع رخيصة وتستعمل عند عموم النساء في العالم.

لقد أدى انطلاق المرأة السورية بعد الاستقلال إلى أخذها بمعالم التمدن الحديث وإلى تعلقها بحقها بالعلم وإلى إقبالها على الحياة العصرية انسجاماً لما عليه المرأة في العالم (بتأثير السينما والمذياع والسياحة والصحف والتلفاز ومجلات الأزياء العالمية)... وكأن المرأة السورية قد دخلت في سباق مع نساء العالم للتزاحم على المستحدثات[1] التي لم

---

[1] كمثال على هذا السباق انتشار أثواب «الميني جوب والمكسي جوب وزي التشارل ستون». ثلاثة أثواب درجت كلها في وقت واحد تقريباً ولبستها أكثر النساء في المنطقة، وليس المهم أن يرضى بها الرجل أم لا يرضى، وليس المهم أن يراها فيها جميلة أو غير جميلة وإنما لبستها كأثواب عالمية مستحدثة تريد كل سيدة أن تساير العصر وتتفاعل معه لترضي كبرياءها وغرورها عن طريقها.

تقتصر على تأثيث البيت العصري وتنسيق الزهور وتقليد اللباس وأطباق الطعام وطراز المعيشة الحديثة كلها فحسب، بل تعدت ذلك إلى الأفكار والأخلاق والسلوك أيضاً، وهكذا دخلت إلى بنية الحياة الاجتماعية أنظمة جديدة لم تكن موجودة من قبل[1]: ففي عالم الأزياء مثلاً، دخلت مفاهيم جديدة غيّرت ما كان عالقاً في الأذهان من رواسب الماضي البعيد، وهي إبراز جمال المرأة للجمال نفسه كي يرضي كبرياءها، لا لجعلها حلوة جميلة بعين الرجل، كما دخلت عالم الأزياء مبادئ جديدة كمفهوم المنفعة والروح العملية والمبادئ الصحية فلبست المرأة البنطال المرن مثلاً وخرجت فيه إلى الشارع ولو كان ملتصقاً بالجسم ملتحماً به ويعطي شكله الحقيقي، لأنها وجدته مريحاً في اللبس ويساعد على الحركة في العمل والسفر والرياضة براحة ويسر. كما ظهر مفهوم الاختصاص في أنواع الثياب أيضاً: فثمة زي كامل للصباح وآخر لما بعد الظهر وللسهرة والاستقبال والحفلة الراقصة ولم يعد يراعى في انتقائه نوع المناسبة فحسب بل لون بشرة صاحبته وطولها وصحتها وعمنها. كما أصبح انتقاء نوع القماش وتفصيله من ثقافة أكثر نسائنا العصريات يتناقشن في أصوله كعلم له أسس وطرائق وأصول (كما هو الحال في الغرب). وصار أي خلل في شروطه مدعاة لكل غراب واستهجان.

وتبعاً لمبدأ المنفعة هذا وقعت الشعور النسائية الغزيرة أيضاً تحت تأثير مقص الحلاق، وأصبحت التضحية على أساس المفاهيم الجديدة ـ بما كان يعتبر أجمل شيء لدى المرأة في العصور الخوالي ـ أمراً مستحباً. وخرجت المرأة السورية بقصات شعر قصيرة كقصة الصبي (Ala garcon)، والقطة، وزوربا... لتساعد المرأة على الحركة والعمل بالمنزل والمكتب والمعمل والمدرسة والرياضة المختلفة إذ لا تتطلب هذه القصات زمناً طويلاً لتمشيطها وتصفيفها والعناية بها، ولما وجدت المرأة نفسها مضطرة لاتباع أحدث التسريحات بغية حضور الحفلات الرسمية أو الراقصة استعانت بالشعور المستعارة فوضعت على رأسها «الباروكة والبوستيج» وغير ذلك وقد رافق هذا الاهتمام الكثير بعالم الثوب والشعر اهتمامات أخرى كأعمال تزيين الوجه والعناية باليدين والقدمين والأظافر والتحكم بلون العينين للتلاؤم مع لون الثوب، كما انتشرت الجراحة التجميلية والعلاجات الجمالية كالتدليك الجسمي والحمامات والرياضة المستمرة... كل هذه

---

[1] لقد نشأت في هذه الفترة دور كثيرة وصغيرة المساحة تضم كل منها (على عكس ما كان في الماضي) أسرة صغيرة أيضاً، الرجل فيها كادح والمرأة أيضاً كاسبة ولهما طفل واحد أو طفلان فقط يذهبان كل يوم إلى المدرسة أو إلى دار للحضانة لاضطرار الأم إلى العمل خارج الدار.

العلاجات الجمالية الحديثة قد شاركت بأهميتها اليوم ما للثوب والحلي من أهمية فأصبحت كلها تلفت نظر المرأة العصرية وتستغرق وقتها وتفكيرها وتستنزف نقودها بقدر الثوب نفسه.

أما في الريف السوري فقد بدأ الزي الحديث أيضاً يزحف نحوه كلاً أو جزءً يظهر ذلك بانتشار «الجاكيت» الذي يلبسه كل رجل بالريف فوق السراويل أو القنباز أو الجلابية بدلاً من الدامر القديم، والمعطف الحديث بدلاً من العباءة، وحلت التنورة النسائية الحديثة مع البلوزة محل القبعة أو الثوب القديمين، كما بدأت تختفي تلك العمات النسائية الضخمة التي كانت تُزين بمجموعات النقود الذهبية المختلفة رؤوس السيدات هناك، ليحل محلها غطاء رأس بسيط مستطيل أو مربع الشكل تضعه النساء مباشرة على الرأس دون تزين وتشترك فيه أكثر نساء العالم.

أزياؤنا بالمستقبل

ولا يمكن لأحد أن يوقف هذا التيار، إذ لا بدّ للزي الجديد من الانتشار لأن طبيعة الأمور تحتم على كل فرد يريد مجاراة العصر الذي يعيش فيه أن يفعل ذلك ولا سيما إذا كان في منطقة منفتحة كبلادنا. وسيتخلى جميع الناس بلا شك عن أثوابهم القديمة كما تخلّوا عن الطربوش من قبل.

وإذا كان الزي الغربي قد عم اليوم كل المدن وأكثر الأرياف في بلادنا فلم يبق محافظاً عليه سوى العامل الزراعي والبدوي... وعندما تدخل وسائل التقنية الحديثة مناطق هؤلاء، وتتغير طبيعة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، ويتقبل المجتمع المحلي لديهما الزي الجديد، سيعم استعماله دون جدال... وليس في مجاراة الحياة الحديثة العصرية أدنى عيب فالمقصود أن يحافظ المرء على جوهر المبادئ والقيم لا أن يتشبث بالمظاهر ولن يكون هناك ضياع للهوية القومية كما يدّعون، بل الضياع أن يفقد الإنسان جوهر هذه الهوية وأصالتها، ألم يرتد اليابانيون في أواخر القرن التاسع عشر أزياء الغرب ثم يدخلوا معه في سباق على التمدن الحديث ويسبقوه؟ فقد تخلى هؤلاء عن زيهم الوطني في الحياة العملية واقتصروا فيه على المناسبات تذكيراً بالهوية الوطنية وردّ اعتبار للكرامة القومية.

وليس من شأننا هنا ترجيح زي على آخر فلكل حضارة أزياؤها المنسجمة مع أوضاعها وأفكارها ومثلها، ولكننا نشير لأهمية الثياب كمصدر وثائقي ينبغي الحفاظ عليه لأنه يلقي بأضوائه على صور الحياة الاجتماعية والفكرية في مرحلة ما من مراحل

تطور الأمة، وهذا ما تقوم به المتاحف الفولكورية في بلادنا وعموم المؤسسات الاتنوغرافية في العالم المتمدن.

ونستطيع أن نقول في النهاية إن أي نظام في اللباس يمكن أن يظهر وينتشر ويعيش مدة طويلة أو قصيرة، ثم يختفي مؤقتاً... ومن ثم يبقى في حالة الكمون مدة ريثما تسمح له ظروف أخرى للحياة الاقتصادية والاجتماعية وفلسفة العصر وفنونه وطراز المعيشة فيه بالظهور والانبعاث من جديد. وهذا يدل بوضوح على مدى الارتباط العضوي الوثيق بين الثوب والحياة.

حسن حمامي

المصدر: الأزياء الشعبية وتقاليدها ــ الدكتور حسن حمامي ــ منشورات وزارة الثقافة ــ ١٩٧٢.

العمامة والطربوش والقبعة

١٩. الفتوى الترنسفالية[1]

محمد عبده [١٨٤٩ـ١٩٠٥]

٧ـ السؤال

سأل الحاج مصطفى الترنسفالي، في: أنه يوجد أفراد في بلاد الترنسفال تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم وعود الفوائد عليهم، هل يجوز ذلك؟؟

هذا أولاً...

وثانياً: أن ذبحهم مخالف، لأنهم يضربون البقر بالبلط، وبعد ذلك يذبحون بغير تسمية، والغنم يذبحونها من غير تسمية هل يجوز ذلك...

وثالثاً: أن الشافعية يصلون خلف الحنفية بدون تسمية، ويصلون خلفهم العيدين، ومن المعلوم أن هناك خلافاً بين الشافعية والحنفية في فرضية التسمية وفي تكبيرات العيدين... فهل تجوز صلاة كل خلف الآخر؟؟؟

أفتونا في ذلك...

(الجواب)

أما لبس البرنيطة، إذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسلام والدخول في دين غيره، فلا يعد مكفراً، وإذا كان اللبس حاجة، من حجب شمس أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره كذلك، لزوال معنى التشبه بالمرة.

ـ وأما الذبائح: فالذي أراه أن يأخذ المسلمون من تلك الأطراف بنص كتاب الله تعالى في قوله: «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم»[2]، وأن يعولوا على ما قاله الإمام الجليل أبو بكر بن العربي، المالكي، من أن المدار على أن يكون ما يذبح مأكول أهل الكتاب، قسيسهم وعامتهم، ويعد طعاماً لهم كافة، فمتى كانت العادة عندهم

---

[1] تاريخ هذه الفتوى ٩ رمضان سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م، ورقمها في السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ٣٧١، وتقع في النهرين الأيمن والأيسر من ص٦٤.

ملاحظة: أثارت هذه الفتوى طائفة من الردود المعارضة، منها كتاب بعنوان: «التعاديل الإسلامية في تخطئة حزب الفتوى الترنسفالية»، تأليف: الشيخ يوسف الشبراخومي ــ القاهرة ١٩٠٤. (م.خ).

[2] المائدة: ٥.

إزهاق روح الحيوان بأي طريقة كانت، وكان يأكل منه، بعد الذبح، رؤساء دينهم، ساغ للمسلم أكله، لأنه يقال له طعام أهل الكتاب، متى كان الذبح جارياً على عادهم المسلمة عند رؤساء دينهم، ومجيء الآية الكريمة: «اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم» الخ بعد آية تحريم الميتة وما أهلّ لغير الله به بمترلة دفع ما يتوهم من تحريم طعام أهل الكتاب، لأهم يعتقدون بألوهية عيسى، وكانوا كذلك كافة في عهده عليه الصلاة والسلام، إلا من أسلم منهم، ولفظ أهل الكتاب مطلق لا يصح أن يحمل على هذا القليل النادر، فإذن تكون الآية كالصريحة في حل طعامهم مطلقاً، متى كان يعتقدونه حلاً في دينهم، دفعاً للحرج في معاشرقم ومعاملتهم.

وأما صلاة الشافعي خلف الحنفي فلا ريب عندي في صحتها، ما دامت صلاة الحنفي صحيحة على مذهبه، فإن دين الإسلام واحد، وعلى الشافعي المأموم أن يعرف أن إمامه مسلم صحيح الصلاة، بدون تعصب منه لإمام، ومن طلب غير ذلك فقد عد الإسلام أدياناً لا ديناً واحداً، وهو مما لا يسوغ لعاقل أن يرمي إليه بين مسلمين قليلي العدد في أرض كل أهلها من غير المسلمين إلا أولئك المساكين. والله أعلم[1].

٨ـ (السؤال)

سأل مخلوف الداودي، حاخام سي لواء عكا، في: ذبيحة الإسرائيليين الموسويين الذين يذكرون اسم الله تعالى قبل الذبح، هل يحل في الديانة الإسلامية الأكل منها؟ أم لا؟؟

(الجواب)

ذبيحة الإسرائيليين يحل الأكل منها بنص الكتاب العزيز، كما قال الله تعالى: «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم»[2] ولا أظن أحداً يؤمن بكتاب الله ويعقل منه ما أراد الله أن يفهم يخطر بباله تحريم ذبيحة الإسرائيليين الذين يؤمنون برسالة موسى عليه السلام[3].

---

[1] تاريخ هذه الفتوى ٦ شعبان سنة ١٣٢١هـ، ورقمها في السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٩٠، وتقع في النهر الأيسر من ص٣١.

[2] المائدة: ٥.

[3] تاريخ هذه الفتوى ٨ ذي الحجة سنة ١٣١٩هـ/١٩٠٢م، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٤٤، وتقع في ص١٧٩ـ١٨٠.

٢٠. رد على الفتوى الترنسفالية

يوسف الشافعي

«فصل» في الكلام عن لبس البرنيطة قال المفتي في جوابه عن لبس البرنيطة أما لبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسلام والدخول في دين غيره فلا يعد مكفراً وإذا كان اللبس لحاجة من حجب شمس أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره كذلك لزوال معنى التشبيه بالمرة أ.هـ

إيضاح ما يفيده هذا الجواب أن الكفر لا يحصل إلا إذا قصد الخروج من الإسلام والدخول في غيره فمتى انتفيا لم يحصل كفر وأنه إذا زال معنى التشبيه انتفت الكراهة ويرد على المقدمتين أنهما مخالفتان للصحيح في مذهب أبي حنيفة ولا دليل للمقلد مثله إلا الصحيح فيه إذ الضعيف فيه كالمنسوخ لا يجوز الإفتاء به ولا العمل به ولو لنفسه وعبارة الهندية يكفر بوضع قلنسوة المجوسي على رأسه على الصحيح إلا لضرورة نحو دفع حر وإلا إذا فعل ذلك خديعة أ.هـ

أي فالكفر يحصل إذا انتفت الضرورة والخديعة على الصحيح وإن لم ينو الخروج من الإسلام والدخول في غيره والضرورة غير الحاجة عند العلماء وقال في الطريقة المحمدية وكذا الفعل أي من أنواع الكفر ولو هزلاً أو مزاحاً بلا اعتقاد مدلوله بل مع اعتقاد خلافه فإنه يكفر عند الله كما يكفر قضاء عند الناس فلا يفيده في عدم الكفر اعتقاد الحق بقلبه لأن مثل ذلك الفعل جعله الشارع مكفراً قال الشارح الخادمي ووضع قلنسوة المجوسي على رأسه قيل نعم أي يكفر وهو الصحيح كما عنه من عبارة الهندية إلا أن الشارح الخادمي استشكل حصول الكفر بدون النية ثم أجاب بأن الفعلي يكفر بدون نية والقولي هو الذي يتوقف عليها فهذه نصوص مذهبه التي تكون أدلة له وهي ناطقة بأن الكفر يحصل على الصحيح وإن لم يكن نية للدخول والخروج المذكورين ولو مع اعتقاد صحة إيمانه فترك النصوص واستحسن شيئاً آخر وأنت تعلم أيها الناظر ما هي أدلة المقلد وبدون نظر لما هو مذكور في كتب الحنفية فجملته الأولى تقتضي أن لبسها استحساناً لعادة أهل الكفر أو حباً في دينهم من غير أن ينوي الدخول فيه أو كراهية في الإسلام من غير أن ينوي الخروج منه أو يلبسها بنية الجمع بين النصرانية والإسلامية لا يقتضي الكفر لعدم نية الدخول والخروج المذكورين مع أنها مكفرة (وتقتضي) أن كل فعلي له دخل في التكفير لا يكفر إلا بالنية وهو منقوض بتكفير مثل السجود للصنم

وتقتضي أن نية الخروج وحدها بدون لبس لا تكفر وليس كذلك والتعليل للجملة الثانية يفيد أنه متى زال التشبيه انتفت الكراهة والحرمة بالأولى ويفهم منه أن كل فعل عري عن التشبيه فليس بمكفر ولا حرام بالأولى وهو خلاف المقرر في المذاهب إذ قد ينتفي التشبيه ويحصل سبب آخر للتحريم أو الكراهية وبالجملة فكل فتوى مبنية على القواعد العقلية والنقلية وكان المفتي لها مقلداً تاركاً لراجح مذهبه فهي باطلة كما يعلم من قول أن الفتيا والقضاء بالقول الضعيف جهل وخرق للإجماع (وقد ألف) علامة زمانه مفتي المالكية سابقاً أستاذ المشايخ الشيخ عليش رسالة رد بها على رجل أحل لبس البرنيطة للحاجة في فتوى أفتى بها وهو في بلاد الكفار شنع الشيخ عليه فيها بقوله ألا يكفيه الإقامة في البلاد التي ليس فيها جمعة ولا جماعة ولا شعيرة من شعائر الإسلام أي ألم يكفه ذلك ارتكاباً وينتهي عن الفتوى بحل لبس البرنيطة للحاجة والخوف من استهزاء الكفار على المتزيي بزي الإسلام ثم قال حيث كان كفر المتزيي بزي الكفار جارياً على ألسنة الفقهاء والعامة ومذكوراً في الكتب المعتبرة فالمؤمن الصادق في إيمانه يحترس منه غاية الاحتراس أشد من احتراسه من النار المحرقة والبحر المغرق والسبع المفترس وسائر المهلكات للحياة الدنيوية الفانية خوفاً من الوقوع في الهلاك الأخروي المؤدي إلى الخلود في النار وأما مذهب الشافعية والمالكية فنية الخروج وحدها مكفرة بدون لبس وكذا نية الدخول وأما اللبس وحده فيقتضي الكفر تارة والتحريم بدون كفر أخرى وقد لا يقتضي كفراً ولا تحريماً فأما اقتضاؤه الكفر فعند الرضى بدينهم أو الميل إليه أو التهاون بالإسلام أو قصد التشبيه بهم في شعائر الكفر أو ليمشي معهم إلى متعبداتهم وأما اقتضاؤه التحريم فقط فعند قصد التشبه بهم في لبسها في شعائر العيد وعند التوصل إلى معاملة جائزة معهم أو حاجة غير ضرورة كحجب شمس إلى غير ذلك وأما عدم اقتضائه الكفر والتحريم فعند الاتفاق من غير أن يستشعر بأن هذا زي الكفار (ومحصل تأييد شيعة المفتي) أن كتب الحنفية وأن صرحت بكفر لابس البرنيطة فهو معارض بأمور منها وهي أجلها عندهم أن الكفر هو الإنكار لأنه المنافي للإيمان الذي هو التصديق واللبس ليس إنكاراً فليس كفراً هذا محصل شبهتهم والجواب يؤخذ من تعليل من قال بأن اللبس مكفر مطلقاً ولو لحاجة إلا لضرورة أو خديعة فإنه قال لأن مثل هذا الفعل جعله الشارع مكفراً أي علامة على الإنكار فهو منكر حكماً ومما يدل على ذلك دلالة صريحة ما في المواقف وشرحها وعبارتهما فهو أي الكفر عندنا عدم تصديق الرسول في بعض ما علم مجيئه بالضرورة فإن قيل فشادُّ الزنار ولابس الغيار بالاختيار لا يكون كافراً إذا كان مصدقاً له في الكل وهو باطل إجماعاً قلنا

جعلنا الشيء الصادر عنه باختياره علامة للتكذيب فحكمنا عليه بكونسه كـافراً غـير مصدق. أ.هـ

فقد جعل لبس الغيار مكفراً مع أنه ليس بإنكار حقيقة ثم أجاب بـأن الشـارع جعله علامة ومتى وجدت وجد المعلم فليكن تعليل من قال بتكفير اللبس كذلك فقـد تبين لك بطلان هذه الشبهة وهي أجل الشبه عندهم (ومنها) أن الشريعة تركت الناس على عاداتهم في اللباس لم تبين شيئاً فيه و لم تأمر من أسلم بتغيير لباسه سوى المنع مـن الحرير والذهب والفضة.

ويرد على هذه الشبهة أنها غير مسلمة لكونها لا تصدر إلا عن من هو جاهل ما هي الشريعة إذ من الشريعة لبس النبي صلى الله عليه وسلّم ولبس من أقـره وعقـدت أصحاب السنن للباس كتباً ذكروا فيها اللباس وكذا الفقهاء ذكروا اللباس والتزيي وأنها لا تعارض من قال من المقلدين بتكفير لابس البرنيطة نقلاً عن إمامه أو كتب أصـحابه المعتبرة إذ المقلد ليس له إلا النقل عن إمام المذهب وأصحابه والإمام أعلم بالسنة منـهم ومنها أنه عليه الصلاة والسلام لبس جبة رومية قبل دخول الروم الإسلام ولبس عليـه الصلاة والسلام النعال الشبيهة بنعال الرهبان أي فالتشبه بالكفار ليس بحـرام لتشـبهه عليه الصلاة والسلام بهم (ويرد على هذه الشبهة أنها غفلة) عن كون النبي مشـرعاً لا متشبهاً (ومنها) عدم التعويل على ما في كتب الحنفية من تكفير لابس البرنيطة لأن ابن حجر نقل في الإعلام عن الزركشي من كلام الأوزاعي أن أكثر مكفرات كتب الحنفية مما يجب التوقف فيه.

وهذه الشبهة باطلة لأن الدعوى كفر لابس البرنيطة وهو خاص معين والدليل أن أكثر المكفرات يجب التوقف فيه فربما يكون من الأقل الذي لا يجب التوقف فيه وهـو المتعين لذكره في الكتب المعتبرة ولأن هذه الشبهة تقتضي عدم التعويل علـى كتـب أصحاب أبي حنيفة وما أدى إلى ذلك فاسد لأن التعويل على الكتب المعتـبرة إجمـاع لأهل المذهب وهو قد أوجب التوقف في كتب الحنفية ولأن من حفظ حجة على مـن لم يحفظ ومن الغريب أن رئيس شيعة المفتي حنفي والذي يليه حنفي أيضاً ورضيا بهدم كتب أصحاب أبي حنيفة وعدم التعويل عليها وعدم الثقة بأصحاب أبي حنيفة الـذين نقلوا مذهبه ودونوه فلا يعلم أن المدون في كتبهم أهو منقول عن إمامهم أم لا إذ لو لم نثق بهم في شيء فلا نثق بهم في الجمع وحينئذ فلا يدري هل المدون مذهب أبي حنيفة أم لا فيقتضي عدم جواز العمل بمذهبه فما أجرأ هؤلاء الشيعة على الأصحاب والإمام

والشريعة (فقد اتضح لك) من هذا أن إفتاء المفتي في البرنيطة لم توافق مذهب أبي حنيفة ولا غيره فهي غير معول عليها وأن شبه شيعته باطلة بما قررناه فبها وكيف تكون صحيحة وهي لم تنقل عن أئمتهم فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يوسف الشافعي

المصدر: التعاديل الإسلامية في تخطئة الفتوى

الترنسفالية ــ يوسف الشافعي ــ ط١ ــ

١٩٠٤.

٢١- طربوشي بنتوفلي

توفيق حبيب

لاحظت منذ أيام أن صبيّ مزيّني يُطيل النظر في طربوشي أثناء تنظيفه. فتأكدت أن هذا الطربوش أصبح غير لائق لأن تتوَّج به هاميّ فأبدلته بآخر فصار لديّ طربوشان. فلبستُ الجديد ووضعت القديم ناحية للانتفاع به في يوم ماطر، أو سفر شاق، أو مظاهرة حادة.

ولكن لم تمضِ أيام ثلاثة حتى تقلّص ظلّ أملي في الطربوش القديم إذ قُدّم لي من قماشه الصفيق العتيق «بنتوفلي» من أفخر ما صنع عمال الأحذية.

إذاً أصبح طربوشي حذائي!!

فوقفت أمامه نحو نصف ساعة وكلما مددت قدماً لتلبسه أحسست بانكماش في أصابعي. لأنني مع اشتراكيتي التامة لم أرض لأول وهلة أن تتساوى قدماي برأسي.

ولبثتُ طول النهار ولا شاغل لي غير الطربوش وتحوّله الفجائي إلى «بنتوفلي». وحدَّثت نفسي في أمره غيرَ مرّة فرأيت أنه لا بأس في أن أنتعله لأنه ربما كانت قدماي أنفع وأشرف من رأسي، بل أن رأسي يملّي عليّ ما يؤذيني ويضرّ غيري. أما قدماي فبالعكس لا ضرر منهما ولا نفع لأحد.

وإذا كنت أظن أن قدميّ لا تستحقان العناية فإنني واهم لأن الناس على اختلاف طبقاتهم ينفقون على «جزمهم» سواء في أثمانها أو في تنظيفها أضعاف أضعاف ما يصرفونه على طرابيشهم. بل منهم من يضع في جيبه قطعةً من الصوف وأحياناً علبة «ورنيش» ينظف بها من حين إلى ولو بين آخر ـــ أخوانه وأصدقاؤه ـــ حذاءه الضيّق اللماع.

ثم أن الرأس والقدم في درجة من الأهمية واحدة سواء في ما ورد عنهما في الكتب المنزلة أو أقوال أساطين الحكمة والشعر والفلسفة.

وكما يبدي المرء استحسانه أو استقباحه لشيء ما برأسه فإنه يبديهما أيضاً بقدميه. وربما كانت حركات القدمين أفعل في النفوس والعيون.

وقد ذكّرتني المسألة بأمر ذي شأن خطير. فقد كنت قبلاً تمتلئ عيناي بهجةً وحبوراً بمشاهدة الحسان وقد كللنَ رؤوسهنّ بأفخر صنوف البرانيط. أما الآن فإنني أفضل النظر إلى أقدامهنّ وحركاتها وسكناتها على التطلع إلى رؤوسهنّ سواء كانت عارية أو مغطاة لتأكدي أن شعور أغلبهنّ «عيرة». فتلك الجدائل والضفائر والحلقات المصقولة والمنحنيات

الجعدة بل كل ما تراه من الشبكات والعقصات مشترىً من السوق وتختفي تحته قطع من اللبّاد يغمض الكثيرون عيونهم عندما يلمحونها على طاولة التواليت.

ومهما اجتهد امرؤ في تزيين قدميه والعناية بحذائه فإن عمله لا يؤثر في غيره تأثير قلنسوات الشعور وشعور قضاة الإنكليز (في بلادهم) بعقول السذّج وعامة الشعب.

وأضف إلى هذا كله أنهُ لولا الأقدام ومساعيها الخيرية لما كانت الرؤوس وفائدتها الأدبية. فالعناية بالأقدام طبياً وذوقياً وأدبياً أسٌّ لحماية الرؤوس. حتى إن الأميركيّ مهما كان فقيراً معدماً يلبس برنيطة «على قدر الحال» ويصرف آخر سنت في جيبه في تنظيف حزته بالورنيش والبويه والبترين والشمع.

وهكذا أخذت أتدبّر كل هذه النظريات وأقارنها بعضها ببعض وأخيراً قررت ما يأتي:

أولاً ــ الأسف على انحطاط الطربوش القديم.

ثانياً ــ أن ألبس «البنتوفلي» الجديد في «رأس» العام الجديد.

ثالثاً ــ أن لا أفضل رأسي على قدميَّ في حال من الأحوال لأن لكل منهما عملاً لا يقوم به الآخر.

وغاية الأمل أن يأتي يوم نتخلص فيه من شرّ الجزم والشراريب والطرابيش والبرانيط معاً.

وكل عام وأنتم...

توفيق حبيب

المصدر: مجلة الزهور ــ السنة الثالثة ــ الجزء التاسع ــ يناير (ك٢) ١٩١٣.

٢٢- لباس الرأس

أنواعه وأسماؤها وأحكامها (نقلاً عن كتاب خطي)

بقلم الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف

عضو المجمع العلمي بدمشق

لا تزال مسألة لباس الرأس تستثير المناقشات في المجتمعات وعلى صفحات الجرائد منذ صمم الأتراك على اصطناع القبعات الغربية وقد نشرنا في هلال نوفمبر كلمة عن «لباس الرأس وتطوره في الشرق الأدنى». وفي هذا المقال المفيد فوائد تاريخية جمة عن هذا الموضوع.

[المحرر]

لقد أفاضت الصحف والمجلات أخيراً في الكلام على لباس الرأس فذكرني ذلك بما كنت قد طالعته في معجم «بدائع الغرف في الصناعات والحرف» للشيخ محمد سعيد القاسمي الدمشقي من علماء القرن الثالث عشر للهجرة الذي وصل فيه إلى حرف السين في /١٢٩/ صفحة بقطع ربع وفيه أسماء الصناعات الحديثة ووصفها وشؤونها فأتمها ولد المؤلف المرحوم جمال الدين القاسمي المعروف بآدابه ومؤلفاته، وخليل بك بن أسعد باشا بن عبد الله بك العظم الدمشقي فجاءت التتمة في /٢٠٠/ صفحة وهو من مخطوطات «الخزانة القاسمية» في دمشق. وإليك الآن ما قرأته عن لباس الرأس، وقد وردت هذه المقالة في كلمة (القاووقجي) بذلك المعجم وهاك نصها:

القاووقجي: صانع القواويق التي انقرضت من نحو نصف القرن الماضي وانقرض صناعها ولم يبق إلا رسمها فنذكره لبقاء بعض المنتسبين إليها عن آبائهم.

فالقواويق جمع قاووق وهو قلنسوة كانت تلبس على الرأس يفصّلها صانعها من جوخ أو غيره على قدر الرأس ولها بطان وظهارة وتحشى بينهما بقطن وسطح دائرتها المماس لأعلى الرأس وهو الترس عريض مدوّر فيخيطها صانعها ويلئم بين الظهارة والبطانة بدروب فيها عديدة وأسلاك مخيطة وفي الترس نقوش من الخياطة وضروب لطيفة تجمع على زرها في الوسط. وهذا القاووق كان يلبسه ويعتم عليه العلماء

والوزراء والأعيان بالشاش الأبيض ولا يتقن التعمم عليه إلا أناس تلك حرفتهم ومنها مرتزقهم لأنها تكون بهندسة خاصة.

وأما **القلبق** الآتي بيانه فكان يلبسه العسكر. وأما **العُرْف** بضم العين وسكون الراء فكان يلبسه بعض الأكابر وخياطته كالقاووق ولكن ليس له سطح مدوّر بل كان شكله مخروطياً يشبه الآن التاج والطواقي التي يبيعها فقراء الهنود والأفغان ولكبر هذه العمة وارتفاعها استعير لها اسم (العرف) فإنه في اللغة اسم للرمل والمكان المرتفع.

وأما **الطبزية** ويقال لها الطبزة فاسم لكسوة كبرى وعمة عظمى تلف من الشاش الأخضر الكثير الأذرع على القاووق أو العرف كان يلبسها العلماء ومشايخ الطرق في مواعيد خاصة وأوقات معينة وفي ليالي إقامة الأذكار وهي مختلفة الأشكال وبعضها على بعض القبور القديمة من حجر نحيت. ويحافظ عليها بعض بيوت العلم والطريقة فيضعونها على النعش ناحية رأس الميت إعلاماً بأنه عالم أو شيخ طريق أو نسيب. قال صاحب القاموس (الطبز) هو ركن الجبل والجمل ذو السنامين فسميت لشبهها بهما.

وأما التاج فكان يلبسه بعض المتصوفة بعمامة أو لا.

وأما **اللبادة البيضاء** فكانت على أشكال بحسب شيوخ الطرق[1]

وكان بعض الناس يسمون (المعمِّين) يعمِّمون من لا يتقن ذلك ويرتزق بهذه الصناعة ومن الناس من كانت عمامته على قاووق مدورة كالدف الكبير المعروف بالمزهر. وكثير من العلماء كان يتعمم على القاووق بالشاش الأبيض. ومنهم من كان يتعمم بالعمائم من الحرير المطرّز المعروف (بعزيز خان وبالأغباني) وهي عمة سائر التجار وبقية الناس الآن. وكانت العمة من هذا الصنف غالية الثمن تبلغ خمسمائة قرش فأقل كبيرة كثيرة الأذرع ولغلائها كانت كثيراً ما تخطف ليلاً عن الرؤوس ويتحدث الناس صبيحتها بخطفها.

وكانت (الطرابيش) المعروفة قليلة وكانت على شكل الطربوش المغربي وكان لأكثر الناس عمامتان فأكثر ويقولون (عمة للرياسة وعمة للسياسة) يعنون عمة لمقابلة الناس وعمة للدار وتعاطي الحرفة. فالأولى تمكث مدة للمحافظة على نظافتها إلى أن تتسخ فتترع. ولما كثرت الطرابيش وانتشرت في عهد السلطان محمود في القرن الماضي

---

[1] كان لكل شيخ طريق شكل في لبادته خاص فمنها لبادة طويلة بطول لبادة المولوية يلف عليها صوف أبيض بهندسة خاصة، ومنها لبادة كالطربوش، ومنها لبادة مضلعة. (المؤلف).

أخذت تتناقص القواويق وصارت تجلب الطرابيش من البلاد وبدأ أمرها ينتشر حتى عمت واستعاضت الناس به عن جميع ما تقدم من (القاووق) و(العرف) و(الطبزة) و(اللبادة) إلا بقية من مشايخ الطرق لم تزل محافظة على هيئة أسلافها تعيشاً بها.

وصارت الناس تتعمم على الطربوش ثم وجدوا كبر العمامة فيه غلظة فأخذوا يتلطفون في تصغيرها حتى آل الأمر إلى ما ترى.

والسلطان محمود خان هو أول من لبس الطربوش من الملوك الإسلاميين وترك التعمم مشياً مع المدنية الأوروبية وتشجيعاً للعساكر على نظامها المدني الجديد الذي اقتضاه مظهر العصر. ولم يزل ظن بعض الناس أن التعمم من قواعد الدين ويشنون الغارة على من ترك العمم[1].

وأما العمة البيضاء على الطربوش فلم تكن زيّاً لكل العلماء في الشام بل كان الشريف يلفّ (الأغبائي أي الغباني[2]) على الطربوش المتقدم ولم يزل بقية العلماء المعمّرين وكثير ممن أدركناهم لا يتعممون إلا به.

وكانت (**العمة البيضاء**) بزيها المتقن الآن خاصة بقضاة دمشق الأتراك فقط ثم أخذت العلماء تقلدهم حتى فشت بين العلماء وبين من يتشبه بهم من المتعالمين فشوا عجيباً. وحدثني بعض الفقهاء المعمرين أنه أدرك سنة ١٢٤٤هـ[3] عبد الرؤوف باشا والي دمشق لما خرج مسافراً بموكب الحج أميراً عليه لابساً للقاووق على رأسه معتماً عليه. ثم قال إنه ورد إليه أمر بأن يترع العمامة ويلبس طربوشاً من دون عمامة. قال فأدركته لما قدم ركب الحج وهو في الموكب بطربوش بغير عمامة ثم قال القاسمي ما ملخصه: «وكان أهل القرى يتعممون بعمائم كبيرة يضعون في ثناياها أوراق أرزاقهم وصكوكهم وأدواتهم كالمشط والخلال والمقص والمرآة... الخ» إلى أن قال ما حرفيته: «وكان كثيرون يتعممون على الطربوش العباسي وتحته لبادة وتحتها طاقية مضرّبة وهكذا مما يثقل جداً على الرأس ويورث الترلات الدماغية بل العمى حتى كان الطربوش قديماً أثقل من الآن وأوسع وأغلظ ولم يزل يتلطف حتى الآن».

---

[1] أورد المؤلف هنا كلاماً طويلاً عن هؤلاء الناس لا محل لنقله هنا فأعرضت عنه.

[2] نوع من النسيج الفاخر.

[3] الموافقة سنة ١٨٢٨م.

وأما **طرّة الطربوش**[1]. فكانت أولاً طويلة وعريضة جداً تتدلى على الكتفين وتنتشر على الرقبة وأطراف الكتف. يقول بعضهم: إن حكمتها كانت لوقاية نقرة القفا من الشمس والرياح اللاسعة. ولم تزل تصغر حتى زالت كما هي الآن. ولا فائدة منها إلا أنها زي خاص وهي الفارقة في الشام بين فرقة الدروز وغيرهم لأن الدروز يتعممون على الطرابيش بلا طرة وأما غيرهم فبطرة.

وأما **الربطة** وما أدراك ما الربطة فهي ربطة كانت للنساء يعصبن بها رؤوسهن إلا أنها كبيرة هائلة تلف على طاقية مخصوصة لفائف وعصابات من مناديل عديدة وغيرها حتى تصير هيئتها كجرن الحمام الصغير. ومن النساء من كن يضعن على أطرافها بنوداً لها طرر يعلقن عليها ذهباً أو حلية أخرى[2] وكان للف الربطة وإتقانها نساءٌ معروفات يربطن بها المناديل بعد طيها طياً خاصاً وشكلها بدبابيس وصرف وقت طويل في هندستها وإتقان تكويرها. وكانت للرباطة المذكورة أجرة معروفة في مقابلتها. وكان يتفق في ذلك العصر أن يكثر عند اللفافة المذكورة الربطات وتزدحم عليها النساء ويتسابقن في تعجيلها إما لعرس أو لنحوه وهناك تتضاعف أجرتها وتعطيها التي آثرتها بالتقديم إكراماً زائداً فوق أجرتها. وقد حدثني بعض الوجهاء أن جدته وهبت للفافة ربطتها طاحونة بتمامها وكانت مضطرة إليها فأرسلت تقول لها تعجلي بها وأرسليها ولك الطاحونة الفلانية فآثرتها. وتلك وفت لها بهبة الطاحونة. فسألته كم كانت تساوي قيمة الطاحونة وقتئذ فقال نحواً من ألفي قرش قلت له: والآن ما قيمة تلك الطاحونة فقال: ألف ليرا. قال وتلك الطاحونة هي التي في مرج الدحداح. ثم انتسخت الربطات بطرابيش خاصة للنساء يتعممن عليها وفي جانبها قرديرة كصحن الغليون ثم بطلت أيضاً. ولم تزل تنقلب عليها الأزياء التي للرجال والنساء إلى هذا الزي الآن.

---

[1] الطربوش كلمة فارسية مركبة من (سر) رأس و(بوش) غطاء فكان أصله (سربوش) فعرب بطربوش والطرة ذؤابة أو هدب من وسط قمته يسترسل على القفا وتسميها العامة الشرابة ولا تزال إلى اليوم مستعملة في الطربوش العزيزي الشائع. (كاتب المقالة).

[2] سيأتي تفصيل ألبسة الرأس للنساء في مقال تال. وقال المرادي في سلك الدرر (٣: ١٣٥) حمام الذهبية قرب الجامع الأموي كان سوقاً لدق الطواقي والطشاطي لعلها شيء يشبه الطشت كانت تلبسها النساء في ذلك الزمان بدمشق ثم بطل هذا الزي سنة ١١٠٧هـ (١٦٩٥م). (كاتب المقالة).

وكانت الربطة في الأغلب للأكابر من النساء والغنيات أو المقلدات ولم تكن لهن كلهن. وذلك لأنها كانت تساوي قيمتها نحواً من مائتي قرش فأكثر لكثرة المناديل الحريرية وما ماثلها من ذوات القيمة. فالنساء الفقيرات كن يتعممن بطرايش مفروش عليها طرّة وفوقها نحو من ثلاثة مناديل. هذا ما رويناه عمن أدرك جانباً من تلك الأزياء التي للرجال والنساء وسمعها عن آبائه واستغربها... الخ.

وقال القاسمي في كلمة (قلبقجية): «اسم لصانع القلابق والقلبق كان قديماً بمثابة لبادة المولوية الآن في طوله إلاّ أنهُ أسود لتغشيته من جلد الجدي الصغير. قال لي بعض المعمّرين: كان في طوله كعلبة اللبن المعروفة بالشام وليس فوقهُ عمامة وكان يلبسهُ جنود الحكومة.

ثم إن القلبق في عصرنا عاد شيءٌ منهُ ولكن بهيئة لطيفة حتى صار يلبسهُ كثير من كبار العسكرية وهيئتهُ كالطربوش ولكنه مغشى بجلد خروف أسود وفي ترسه أعلام من سيم أو قصب. وأكثر الرجال الذين يصنعون لهم قلابق يلبسونها في بيوتهم إذا قدموا من أشغالهم أو عند منامهم وهي أنواع فمنها حرير ومنها المطرز بحرير ومنها المجلوب من البلاد الأجنبية وهي مما تخف على الرأس بالنسبة إلى العمة» انتهى كلام القاسمي في معجم الصناعات*.

* * *

هذا وسننشر في الجزء التالي من الهلال طرفاً شعرية ونثرية متعلقة بلباس الرأس إتماماً للفائدة.

عيسى إسكندر المعلوف

المصدر: مجلة الهلال ــ س٣٤ ــ ع٤ ــ يناير ١٩٢٦.

* طبع مخطوط القاسمي فيما بعد في باريس ودمشق. (م.خ).

٢٤. ملابس الرأس في الشعر والأدب

بقلم الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

نشرنا للأستاذ المعلوف في الهلال الماضي فصلاً بعنوان لباس الرأس وأنواعه وأحكامه منقولاً عن كتاب خطي للقاسمي. وفي هذا الفصل كلام عام في الرأس وألبسته وعلاماته وما جاء فيها من أقوال الشعراء والأدباء.

[المحرر]

كانت العرب تلبس العقال في بداوتها ثم العمائم وتطورت بعدهم ونسميها نحن الآن (اللفة) لالتفافها وتكورها.

وكانت القلانس في زمن العباسيين من ملابس الرأس حتى أن أحد خلفائهم في أثناء انحطاط دولتهم أصدر أمراً يشدد فيه النكير على الرعية أن تزيد في علو القلانس أصابع فقال أحد الشعراء في ذلك:

وكنا نرجّي من إمام زيادةً — فزاد الإمام المرتجى في القلانس

وأول من أمر بلبس هذه القلانس أخذاً عن الفرس المنصور سنة ١٥٣هـ (٧٧٠م) وكانت طويلة تدعم من داخلها بعيدان بدل العمائم أو يعتمون فوقها بعمامة صغيرة. وكان الفقهاء يلبسون العمامة السوداء المعروفة والقضاة يلبسون القلانس الطوال. والأشراف يتخذون اللون الأخضر وأول من أمر بهذا الملك الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون الصالحي الألفي سنة ٧٧٣هـ (١٣٧١م) قال شمس الدين بن المزين الدمشقي:

أطراف تيجان أتت من سندس — خضر بأعلام على الأشراف

والأشرف السلطان خصهمُ بها — شرفاً ليمتازوا من الأطراف

وقال عبد الله بن جابر الأندلسي:

جعلوا لأبناءِ الرسول علامة — إن العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوة في كريم وجوههم — يغني الشريف عن الطراز الأخضر

والمشهور عندهم أن علياً الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن علي المنتهي نسبه إلى الحسين بن علي لما جعله الخليفة العباسي ولي عهده بعده وبويع غير لباس العباسيين من السواد إلى الأخضر فساء ذلك العباسيين فعوجل إذ مات سنة ٢٠٣هـ (٨١٨م) في حياة المأمون. وقيل كانت الخضرة لباس الأشراف في صدر الإسلام.

وكان الأشراف يتخذون عصائب خضراء فوق عمائمهم وهذه تسمى (شطفة) وهو لفظ محدث لم يذكره أهل اللغة وكأنه بمعنى خرقة صغيرة من قولهم في شطف من العيش أي في قلة وضيق فأعرفه فإني لم أرَ من تعرض له[1].

ولقد كثر المنتسبون إلى آل البيت فوقع الاختلاف في من يجوز له اتخاذ العمامة الخضراء وأكثر الشعراء من ذلك ولا سيما في القرون الأخيرة. قال محمد العرضي الحلبي في شريف:

لما تعمَّم في الخضراء ذو شرف	قوامه صيغ من تبر ومن صلفِ
أيقظتُ صحبي وعين النجم	قوموا انظروا ويحكم للبدر في

ونظموا في العمامة والمتعممين أبياتاً بديعة منها قول الأمير المنجكي الدمشقي:

معمَّم يشبه بدر الدجى	مكوّر الشمس على رأسهِ

وقول المحبي في ابن السمان وقد أهدى إليه شاشاً لعمامته:

أراك رأس الناس لا مرية	لذاك تهدي حلّة الرأسِ

وأنشد الصالحي الهلالي الخواجة الرئيس أبا السعود بن الكاتب يطلب منه شاشاً:

يا من به رق شعري	وجال في الفكر وصفُه
قد مزّق الدهر شاشي	والقصد شاش ألفّه

وقال حسين القصيفي يهجو متعمماً بقوله:

جاءنا الشيخ لابساً للعمامة	ينجلي تحتها شبيه الغمامة
وهو في نفسه كبير عظيم	ليس في فعله يرى من ملامه
يا لعمري وإنه شيخ سوءٍ	جلَّ أفعاله محل الندامة

---

[1] نقله الخفاجي في ريحانة الألباء طبع مصر صفحة ٢٦٣ محصلا.

وقال أحمد الأكرمي في ذي عمامة كبيرة:

وذي عمّة كبرى غدوت مسائلا على العلم منهُ أم على الجهل عُمّمـا

فقال على مقدار علمي ولو غدت على قدر جهلي ضاقت الأرض والسما

وقال بعضهم في عمامته:

عمامتي بليت لعب الزمـان بهـا كأنها نسجت من عهـد حـواء

أريد أخلفهـا والبخـل يمنعني أخاف أغسلها تجري مـع المـاء

ولبسوا الطرطور أو الطنطور وهو أسطواني مخروطي أشبه بالقرن محـدد الأعلـى أحياناً ولقد تنافست بلبسه الأميرات والغنيات فكان ارتفاعه للأميرات نحو ذراع ولغيرهن نحو ثلثي الذراع، كان يلبس فوق الطربوش وهو من فضة أو ذهب منقوشاً أو سـاذجاً يربط تحت الذقن ويطرح عليه الشنبر (الإزار أو النقاب) حتى يغطيه ويستر جميع البـدن فشدّد النكير على النساء المتزوجات اللواتي يلبسنه وقام بمنعه رؤساء الدين فأهمـل سـنة ١٨٤٨م لكثرة ما انتقد الغربيون لابساته. قال بطرس كرامة الحمصي يصفه:

ومطنطر فتكـت لواحظـه بنـا وأذاع فينـا الفتـك ثم أشـاعا

فكأن خلقتـه لـدى طنطـوره بدر أقام علـى الجـبين ذراعـا

ومنها الطواقي جمع طاقية وهي من مقصور أو خام أبيض مطرّزة بخيوط بيضاء أو ملونة وفوقها غطاء عليه عصابة.

والعراقي وهي جمع (عرقية) تتخذ على الرأس لتمتص العرق منه أو أنها منسـوبة إلى العراق لاتخاذها فيه فتكون عراقية.

وقد تحولت الطواقي والعراقي إلى طربوش دخ وهو من نسيج أحمر يبلغ أكثر من نصف ذراع وله طرّة (شرّابة) يشتمل عليه أو يعتمّ.

ثم خلفه الطربوش المغربي وهو غطاء مستدير من نسيج أحمر له طرّة زرقاء اتخـذ أولاً في المغرب فنسب إليه وكان السوريون يلبسونه بعدما أمر إبراهيم باشا المصري الأمير بشير الشهابي وأسرته بلبسه سنة ١٨٣٨م وانتشر استعماله بيننا بعمامة أو بدونها[1].

---

[1] ثمة أغنية في الساحل السوري ربما كانت تشير إلى هذه الحادثة وتقول:

إبـراهيم باشـا يـا سـبعي درّجـت لبس الشـرابة

ملاحظة من (م.خ).

وكان محمد علي باشا يلبس الطربوش الأحمر المسمى (الجهادي) أو التونسي ثم أبدله بالعمامة.

وخلفه الطربوش العزيزي الذي اتخذه السلطان عبد العزيز العثماني وشاع بيننا إلى هذا الحين فنسب إليه ويتعمم بعضهم فوقه بعمامات ملونة حسب اصطلاح القوم.

ثم شاعت البرنيطة والكسكت وهما أنواع إفرنجية مختلفة ومن أغطية الرأس النسائية (الشكة) ولعلها تحريف الشبكة وتركيتها سركوج أو سكروج وهي كيس حريري للف الذوائب وتغطية الرأس يستعمل حتى الآن. ومنها ما يتخذ عصابة ترصف عليها نقود ذهبية وتوضع على الجبين و(القفوية) نسبة إلى قفا الرأس وهي تؤلف من خمسين جديلة حريرية مشتبكة تعلق بأطرافها نقود ذهبية مرصوفة على قطعة قماش يعصب بها الجبين وتتدلى على القفا.

و(العقائص) و(الجدائل) وهي بنود حريرية في أطرافها أهداف فيها كرات فضية يجدل بها الشعر ويسترسل على الكتفين أو القفا.

و(المالويات) رقاقات فضية شبه دائرة توضع على جانب الرأس مقابل الطنطور.

وكان الحكام يأمرون باتخاذ بعض هذه الملابس ومنع غيرها فإن الجزار أمر متسلم مدينة بيروت سنة ١٧٨٢م أن يمنع النصارى عن لف شال الكشمير ويحتم عليهم لف الشاش الأزرق القاتم أو الشملات السوداء الساذجة وأن تدار اللفة على قاووق. وأن يلف المسلمون السيّد شاشاً أخضر والسني شاشاً أبيض وهكذا كانت ألوان العمائم تختلف بحسب المذاهب المسيحية واليهودية والإسلامية وكثيراً ما أمر الولاة والحكام بالمحافظة عليها لتمييز كل من تلك الطوائف عن الآخر. أما الجنود فاختلفت ملابسهم واشتهر الدالاتية بلبس القاووق كالملوية وعمّ القلبق فيهم حتى الآن ووضعت عليه علامات لتمييز رتبهم. ومن ذلك الخوذ المعدنية في الحرب والقبعات المعدنية. وكلها تختلف باختلاف العصور والناس والبلدان.

عيسى إسكندر المعلوف

المصدر: مجلة الهلال ــ س٣٤ ــ ع٥ ــ شباط ١٩٢٦.

٢٤. الطربوش

بحث في لفظه وتاريخه

بقلم العلامة الجليل صاحب السعادة أحمد تيمور باشا

اقترحنا في العدد الماضي من صحيفة (الفتح) على العلامة الجليل والمؤرخ الكبير صاحب السعادة أحمد تيمور باشا أن ينوّر أفكار الجمهور بتاريخ الطربوش، وهل هو مأخوذ من اليونان كما يتشدق به الذين يلقون القول على عواهنه، فتفضّل علينا سعادته بهذا المقال التاريخي العظيم الأهمية. ونحن ننشره مع الشكر لسعادته.

قال حفظه الله:

الطربوش لفظ فارسي الأصل محرف عن «سربوش» ومعناه غطاء الرأس بتقديم المضاف إليه على المضاف كقاعدتهم لأن «سَرْ»، بفتح فسكون، الرأس و«بوش» بضم الباء الأعجمية، الغطاء. وعرَّبه المولّدون بلفظ «شربوش» بالشينين والباء العربية وأطلقوه على قلنسوة خاصة بالجند كانت تلبس بلا عمامة. ثم لما حدث هذا النوع الأحمر ذو الذؤابة سمته العامةُ أيضاً بذلك إلا أنها أبدلت شينه الأولى طاء فقالت فيه طربوش، وخصَّت الشربوش بغطاء قارورة التدخين المسماة بالشيشة وبالنرجيلة.

وقد ورد الشربوش بالشينين في عبارات للمؤرخين وأشعار للمولدين لا تحصى كثرة، كقول المقريزي في خططه عن أولاد شيخ الشيوخ: «وأما فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين فإن الملك الكامل جعله أحد الأمراء وألبسه الشربوش والقباء». وكقول أبي شامة في الروضتين عن مدبر أمر الموصل لسيف الدين ابن أخي نور الدين الشهيد: «فجاء ودخل على سيف الدين وألقى شربوشه بين يديه». وفي الكامل لابن الأثير أن الكندهري[1] الفرنجي صاحب صور كان عاقلاً كثير المداراة والاحتمال، ومن ذلك أنه أرسل إلى صلاح الدين يستعطفه ويستميله ويطلب منه خلعة، وقال: «أنت تعلم أن لبس القباء والشربوش عندنا عيب وأنا ألبسهما منك محبة لك». فأنفذ إليه خلعة سنية منها القباء والشربوش فلبسهما بعكا.

---

[1] اسمه عند الإفرنج «الكُنت هنري».

ولم نقف على تغيير في لفظة إلا في ترجمة نجم الدين أبي الفضائل الفقيه الحنفي التركي من المنهل الصافي لابن تغري بردي في قوله عنه نقلاً عن تاريخ حلب لابن النديم: «فقيه حسن عارف بالفقه والأصول وكان يلبس لبس الأجناد القباء[1] والتربوش» هكذا في النسخة بالمثناة الفوقية، فإن لم يكن تحريفاً من الناسخ وكان عن لغة محكية فيه عندهم فهي أصل قول العامة الآن طربوش بالطاء.

ولكنه ورد في مواضع أخرى من المنهل الصافي بالشينين على المشهور منها قوله في ترجمة الملك الناصر داود صاحب حماة لما مُثِّل بين يدي الخليفة المستنصر العباسي ببغداد وحياه بإنعامه «وخلع عليه خلة سنية وعمامة سوداء وجبة سوداء مذهبة، وخلع على أصحابه ومماليكه خلعاً جليلة وأعطاه مالاً جزيلاً وبعث في خدمته رسولاً مشربشاً من أكبر خواصه إلى الملك الكامل يشفع في الناصر المذكور». وورد (الشربيش) بالياء في أبيات لابن حجاج رواها له المحبي في كتاب ما يعول عيه في كلامه على (شؤم القز) وفسره أنه طائر يتشاءم منه، قال: «وكثيراً ما كان يتمثل به ابن حجاج في شعره كقوله:

يا سيدي عدوة ذي حرفة	**أقدم في الشؤم من القزّ**
عمامتي كانت أميرية	**مليحة الشربيش والطرْز**
ولست بالباكي على فقدها	**فالخزي أولى بي من الخزّ»**

وقد يتبادر أنه تغيير آخر في لفظة بقلب واوه ياءً، ولكنا نرجح أنه أراد به حلية مذهبة أو مرصعة كانت تزين بها العمائم، معرب (سربيج) بالباء والجيم الأعجميتين.

وصفة الشربوش على ما في خطط المقريزي أنه كان شيئاً يشبه التاج كأنه شكل مثلث يجعل على الرأس بلا عمامة. وفي تاريخ ابن الفرات أو أول من زاد في طوله الأمير عز الدين مسعود صاحب الموصل وحلب المتوفى سنة ٥٢١ ابن قسيم الدولة آق سنقر البرسقي، ونص عبارته: «وهو أول من جعل القباء يزر على الصدر وكان قديماً يزر تحت الإبط على جانب، وأول من استخرج الشربوش المطاول»[2]. ومما يدل على شيوعه بهذا الطول بعد ذلك حتى كانوا يشبهون به الشيء الطويل قول ابن الناسخ في

---

[1] كان القباء خاصاً بالجند والأمراء، أي كالمعروف اليوم بالسترة العسكرية، وكان الصاحب بن عباد يلبسه بعد توليه الوزارة انتساباً معها إلى الجندية.

[2] المطاول بمعنى الطويل من كلام العامة كما في شرح القاموس للزبيدي.

مصباح الدياجي في ترجمة الخبوشاني: «وكان من عادته إذا درس بالعجم يخرج وعلى رأسه شيء كالقلنسوة المرصعة، فلما وصل إلى مصر وجدهم بخلاف ذلك فلبس لبسهم فجلس يوماً يطالع والقلنسوة على رأسه وهي طويلة كالشربوش فلما توسط الحلقة ورآه أهلها لم يبق فيها إلا من تبسَّم». والخبوشاني هذا كان في زمن صلاح الدين الأيوبي، والظاهر أنهم تبسموا لأنهم رأوه في غير زي العلماء المألوف لهم في ذلك الزمن فاستغربوه منه.

ثم بطل استعمال الشربوش في الدولة الجركسية وأحدثوا نوعاً من القلانس سموها بالطواقي[1] وليسها رجال الدولة وجنودها قال المقريزي: «وصاروا يلبسون الطاقية على رؤوسهم بغير عمامة ويمرون كذلك في الشواطئ والأسواق والجوامع والمواكب لا يرون بذلك باساً بعد ما كان نزع العمامة عن الرأس عاراً وفضيحة. ونوَّعوا هذه الطواقي ما بين أخضر وأحمر وأزرق وغيره من الألوان. وكانت أولاً ترتفع نحو سدس ذراع ويعمل أعلاها مدوراً مسطحاً، فحدثت في أيام الملك الناصر فرج منها شيء عرف بالطواقي الجركسية يكون ارتفاع عصابة الطاقية منها نحو ثلثي ذراع وأعلاها مدور مقبب وبالغوا في تبطين الطاقية بالورق»، إلى أن قال: «إنهم جعلوا من أسفل العصابة المذكورة زيقاً من الفرو الأسود في عرض نحو ثمن ذراع يصير دائراً بجبهة الرجل وأعلى عنقه وإنهم بقوا على استعمال هذا الزي إلى زمنه وهو من أسمج ما عانوه».

ولم يكن الشربوش أول ما أطيل من القلانس في الدولة الإسلامية، بل كان لهم قبله الطويلة، وكان الخلفاء وغيرهم يلبسونها ويعتمون عليها. ويذكرون في الكتب الأوائل أو أول من لبس القلانس الطوال هشام بن عبد الملك. وقد لبس الإمام مالك رضي الله عنه الطويلة واعتم عليها. قال ابن فرحون في الديباج: «قال مالك: قلت لأمي: أذهب فأكتب العلم. فقالت: تعالَ فالبس ثياب العلم. فألبستني ثياباً مشمرة ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها ثم قالت: اذهب فاكتب الآن».

وذكر في موضع آخر أن الإمام كان إذا خرج للتحديث اغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً وتعمم ووضع على رأسه الطويلة وخرج إلى الناس خاشعاً. انتهى.

وفي خلافة أبي جعفر المنصور زاد فيها سنة ١٥٣ فجعلها مفرطة الطول على ما في الكامل لابن الأثير، وذكر الذهبي في تاريخه أنه ألزم رعيته بلبسها هذه السنة، فقال: أبو دلامة:

---

[1] تطلق العامة (الطاقية) الآن على كمة خفيفة لاصقة بالرأس تعمل من البز وغيره.

وكنـــا نرجـــي مــــن إمــــام زيــــادة فزاد الإمام المصطفى في القلانـــسِ[1]
تراها علــى هــام الرجــال كأنهــا دنــان يهــود جُلِّلَــتْ بــالبرانسِ

وفي (الأغاني) أنه أمر أصحابه بلبس السواد وقلانس طوال تدعم بعيدان من داخلــها وأن يعلقوا السيوف في المناطق ويكتبوا على ظهورهم (فســيكفيكم الله وهــو الســميع العليم). فدخل عليه أبو دلامة في هذا الزي فقال أبو جعفر: ما حالك؟ قال: شــر حــال وجهي في نصفي وكتاب الله وراء ظهري. فضحك منه وأعفاه وحده مــن ذلــك. وفي الكامل لابن الأثير أن المتوكل لما أحضر لِيُبايَع بالخلافة ألبسه القاضي أحمــد بــن أبي دواد الطويلةَ وعمَّمه عليها وقبّل ما بين عينيه وقال: السلام عليك يا أمير المــؤمنين ورحمــة الله وبركاته. وذكر المسعودي في مروج الذهب أن المستعين أول من صغّر من طولها بعــد أن كانت كأقباع القضاة وأول من وسع الأكمام فجعلها عرضها ثلاثة أشبار.

وبعد، فقد تبين من وصف الشربوش أنه لم يكن يشبه طربوش اليــوم في الهيئــة والحجم، وإن وافقه في الاسم والغاية. أما اللون فلم نقف على شيء عنه في الشــربوش وإنما ذكروا عن الطواقي الجركسية أن بعضها كان أحمر كما مرّ. وذكر ابن فضــل الله في مسالك الأبصار عن الكلوتات[2] أنها طواق صغيرة غالبها مــن الصــوف المطلــي بالأحمر. وفي زبدة الصحائف في سياحة المعارف لنوفل بن نعمــة الله الطرابلســي أن

---

[1] هي رواية ابن الأثير ومحاضرة الأوائل، والذي في الأغاني (فجاد بطول زاده في القلانس).

[2] الكُلوتة بضم الكاف واللام المخففة، لفظة فارسية تطلق عند الفرس على نوع من أغطية الرأس الــتي للصبيان ويدل على استعمالها بعد ذلك بالتخفيف ورودها به في الشعر كقول محيي الدين بن قرناص:

تبــــدي في الكُلوتـــــة والعمامـــــة كبــــدر تحــــت بــــرق في غمامــــة

وضبطها على مبارك باشا في خططه بتشديد اللام على خلاف المعروف فيها. ويقال لها: الكلفتــة أيضاً بالفاء. وكانت صفراء من لباس الدولة الأتابكية بالموصل والشام فلما غيّر صلاح الدين الأيوبي رسم الفاطميين لبسها وهو بدء اتخاذ اللون الأصفر شعاراً للمملكة المصرية في اللباس والأعلام. ثم أحدث الأشرف خليل بن قلاوون الاعتمام عليها فجاءت في غاية الحسن. فقول ابن فضل الله أنها كانت حمراء يُحمل على ما كان يلبسه غير أمراء الدولة. وفي كتاب (الألفاظ الفرنسية الدخيلة من العربية والفارسية والتركية) لبهان المطبوع بباريس سنة ١٨٦٦م أن الكَلوتة (بفتح فضم) كمة من النسيج الموصلّي تلف عليها العمامة عند الأمم الشرقية ويسميها الأتراك بــالطربوش، وإن لفظــة كلوت التي يطلقها الفرنسيس على كمة صغيرة خاصة برجال الكنيسة تستر ذروة الرأس دخيلة من العربية (أي المولدة) في رأي كترمير وقد أورد حجته على ذلك فلتراجع فيه.

السلطان عثمان الأول كان يعتم على برك خراساني من الجوخ الأحمر فلما تولى ابنه أورخان جعل عمامة السلطان وعظماء الدولة على برك أبيض وخص الأحمر بطوائف الجند. والذي في التواريخ التركية أن قلانس السلاطين ورجال الدولة وجنودها كانت بيضاء سموها بالبورك أو البُرك ــ بضم الأول ــ وسموا بورك ضباطهم الإسكوف ثم أضيف إلى البورك ذيل طويل نيط بأعلاه منديلاً من الخلف. ولكن حدث أيضاً إلباس الجنود والضباط في بعض الفرق قلانس حمراء فكان آغا اليكيجرية يعتم على قلنسوة بيضية من الجوخ الأحمر ومثلها عمامة رئيس المائة الملقب وقتئذ بالجورباجي إلا أنها كانت مدورة. وكان رئيس فرقة الحراس بالقصور والحدائق المسمين بالبستانيين (بوستانجيلر) يلبس قلنسوة حمراء طويلة تنثني من أعلاها إلى خلف. ورئيس الكيان كان يعتم على قلنسوة حمراء. وكان لرئيس النقابين (اللغمجية) قلنسوة حمراء من المخمل (القطيفة). وكان القواصة، وهم حرس الوزراء، يعتمّون فس (أي طربوش) أحمر بذؤابة زرقاء ويلبسه أيضاً جاويش غَلَطة وفرقة من عساكر البحر تسمى (قالبونْجيلَرْ) أنشئت سنة ١٠٩٣ وأخرى تسمى (جَبْلاقْلَرْ) إلا أن هذه كانت لا تعتم عليه[1]، وغير ذلك مما تركنا ذكره، وكل هذا في الجيش القديم قبل إحداث النظام الجديد. وقد راجعنا صور القلانس في كتاب (عثمانلي تشكيلات وقيافت عسكرية سي) الذي ألفه محمود شوكت باشا في تاريخ الجندية العثمانية وألحقه بصور ملونة لطوائف الجند وملابسهم إلى زمن السلطان عبد الحميد الثاني فرأينا بوركْ رئيس البستانيين الأحمر الطويل المنثني من أعلاه إلى خلف هو عين الطربوش القديم الذي كان بهذه الصفة. والظاهر أن الجنود اختصوا بلبسه بعد ذلك وسمي بالطربوش على ما يؤخذ من قول الجبرتي في حوادث سنة ١٢٣٠ «قلد الباشا عبد الله أغا المعروف بصاري جله وجعله كبيرا على طائفة الينكجرية[2] أيضاً وجعل على رأسه الطربوش الطويل المرخي على ظهره كما هي عادتهم هو وأتباعه». وقال في حوادث سنة ١٢٠٠: «وركب قائد أغا بعد صلاة

---

[1] شاهد الجبرتي هذا الطربوش بعمامته على رؤوس جنود البحر العثمانيين ووصفه في مواضع من تاريخه منها قوله عن ملابس حسن باشا القبطان الواصل إلى مصر سنة ١٢٠٠. لتأديب أمراء الجراكشة: «وفي يوم الأربعاء ركب حسن باشا وذلك إلى بولاق وهو بري الولاة وعلى رأس هيئة قليق من جلد السمور ولابس عباءة بطراز ذهب وكان قبل ذلك يركب بهيئته المعتادة وهي هيئة القباطين وهي فوقانية جوخ صاية بدلاية حرير على صدره وعلى رأسه طربوش كبير بعمم بشال أحمر».

[2] الصواب اليكيجرية، والكاف ينطق بها نوناً، ومعناها العسكر الجديد لأن معنى يكي (يني) الجديد، وجري العسكر وهي طائفة من الجند أحدثها السلطان أورخان وأباها السلطان محمود الثاني، والعامة تسميها الانكشارية.

الجمعة وعلي أغا خازندار مراد بك سابقاً وصحبتهم جملة من المماليك والعسكر وهم بالطرابيش وبيدهم مكاحل[1] البندق» ولكن لم يتعرض هنا لطوله. وأول ذكره للطرابيش في تاريخه قوله في الفتنة التي وقعت بمصر مدة باكير باشا المتولي عليها سنة ١١٤٧: «ففتحوا الخزانة وخرج منها جماعة بطرابيش وهم شاهرون السلاح». وقال في ترجمة الحاج صالح الفلاح المتوفى سنة ١١٦٧: «وكان يركب حماراً ويعتم عمة لطيفة على طربوش».

وتذكر التواريخ التركية أن العمامة المسماة بالمجوزة عند العثمانيين كانت قلنسوتها تكسى من الظاهر في أطرافها الثلاثة بكسوة حمراء تشبه الفس (أي الطربوش) وكانت لا تختلف عن السليمية إلا بهذه الكسوة، والسليمية عمامة أحدثها السلطان سليم الأول محاكياً بها تاج كيخسرو ملك فارس، فلبسها السلاطين من بعده إلى زمن إلغاء اليكيجرية. وفي عصر السلطان سليم المذكور حدث بفارس إلباس الجند قلانس حمراء من الجوخ، ففي قلائد العقيان للعبيدي أن الشاه إسماعيل (الصفوي) ملك فارس ألبس عساكره تاجاً أحمر فسموا لذلك (قزلْ باش)[2]. وفي السنا الباهر للشلي أن الذي فعل ذلك الشيخ حيدر أبو الشاه إسماعيل لما قتل أبو الشيخ جنيد واجتماع أصحابه عليه وحسنوا له الجهاد فألبسهم تيجاناً حمراً من الجوخ وسماهم الناس لذلك (قزلْ باش). وقد لبس أهلُ الأندلس القلانس الملونة من الصوف ومنها الحمراء وكانوا يسمونها بالغفارات بكسر الأول وتخفيف الفاء. قال المقري في نفح الطيب عن زيّهم: «ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشي دون طيلسان إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظّمون، وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً، والصفر مخصوصة باليهود». وجاء في معجم الملابس لدوزي عن الغفارة أن أهل الأندلس فيما يظن كانوا يريدون بها ما يسمى الآن في المغرب بالشاشية (أي الطربوش) لأنها مثلها تعمل من الصوف الأحمر وتلفّ عليها العمامة عادة. وقال في كلامه على الطربوش إنه يسمى في مصر والمغرب بالشاشية[3] وكانوا يسمونه بالأندلس بالغفارة.

---

[1] المكاحل جمع مكحلة وهي المسماة اليوم بالبندقية.

[2] معنى قزل بكسرتين أو قزيل بالياء الأحمر بالتركية، ومعنى باش الرأس، والمراد ذوو الرؤوس الحمراء.

[3] الشاشية اسم الطربوش عند جميع المغاربة إلى الآن نسبة إلى شاش العمامة الذي يلف عليه، وقد استعملت هذه اللفظة في بعض العصور بمصر أيضاً.

فيعلم من هذا أن القلانس الحمراء على اختلاف أسمائها وهيئاتها كانت من لباس الأمم الإسلامية شرقاً وغرباً منذ زمن قديم، وأن الكُلوتة عند العراقيين والشاميين والمصريين هي ما يسميه الأتراك بالطربوش على ما نقلناه عن أن في الحاشية المتقدمة. وأن البورك الأحمر الطويل المنثني من أعلاه إلى خلف أو الطربوش كما يسميه الجبرتي كان من لباس الجنود العثمانية، ويفهم من سكوت المؤرخين عن أصله أنه من ابتداع العثمانيين أو وليد تلك القلانس بالتغيير فيها والتهذيب. ولكن المشهور على الألسنة اليوم أنهم اقتبسوه من اليونان، وقد يكون كذلك، غير أننا لم نعثر فيما اطلعنا عليه على نص تاريخي يؤيده بالتصريح أو الإشارة. وقد تعدى هذا القول إلى الطربوش الآخر ذي الذؤابة فزعم بعضُهم أن السلطان محمود الثاني لما غيّر ملابس الجند اختار لهم الطربوش اليوناني، وهو زعم يشهد التاريخ ببطلانه، وسنرى في النصوص الآتية أنه ألبسهم الطربوش التونسي، وأن أول صنعه كان في فاس.

وإذا رجعنا إلى المعاجم الإفرنجية نرى دوزي لا يتعرض لأصل الطربوش في معجم الملابس، ولكنه يقول عن الفس، وهو اسم الطربوش عند الترك، أنه سمي باسم مدينة فاس، ونرى لاروس يعرِّف الطربوش (Tarbouche) بقوله: «قلنسوة للترك واليونان، حمراء اللون، ذات ذؤابة من الحرير الأزرق» ولا يزيد على ذلك. ثم نراه يقول في لفظ (فس) إنه سمي باسم مدينة فاس بالمغرب لصنعه بها وهو قلنسوة من اللبد الأحمر قد تكون لها ذؤابة غليظة من الحرير أو الصوف شاع استعمالها عند الأتراك رجالاً ونساءً. والذي في المعلمة الفرنسية الكبيرة عن الفس أنه نوع من القلانس الحمراء أو الزرقاء[١] يصنع من اللبد أو الجوخ ويقال له القلنسوة التركية واليونانية لأنه خاص بالمشرق[٢] ولا سيما في البلاد التركية. وقد سمي باسم أول مدينة صنع بها وهي مدينة فاس بالمغرب وكانوا يصبغونه بالقرمز الذي يجنى من ضواحيها. ولما كثر استعماله صنعوه أيضاً بالبلاد التركية والفرنسية والإيطالية وحمل منها إلى البلاد الشرقية، ثم قل صنعه أخيراً عند الترك ولم يبق له إلا بضعة معامل بالقسطنطينية، وانتقلت صناعته إلى النمسا ومنها كثر تصديره إلى بلاد الترك واليونان ومصر وتونس ومراكش. انتهى.

---

[١] هذا وهم خلط فيه الكاتب لون الطربوش ولون ذؤابة.

[٢] لا يخفى أنه مستعمل أيضاً في المغرب مكان صنعه، فكان الأولى أن يقال لأنه كثير الاستعمال في المشرق.

وقال بهان في معجم (الألفاظ الفرنسية الدخيلة) أن الفس سمي باسم فاس قاعدة مملكة مراكش لأنه يصنع بها وله سوق نافقة في البلاد التركية وإمارة تونس، وهو على نوعين أحمر للرجال وأبيض للنساء. وعرّف ليتريه الطربوشَ في معجمه الاشتقاقي الفرنسي بأنه قلنسوة حمراء تصنع في تونس، وقال عن الفس إنه سمي باسم فاس لصنعه بها. ولعل القارئ يرى معي أن قولهم قلنسوة للترك واليونان أو القلنسوة التركية واليونانية لا يفيد بوجه من الوجوه يونانية أصله بعدما ثبت أن أول صنعه كان في فاس، وإنما قصارى ما فيه أن اليونان لبسوه كما لبسه الأتراك.

وكذلك إذا رجعنا إلى المعاجم التركية نراها تقول عن الفاس أن الفس فتح فسكون، إنه سمي بالمغرب الأقصى وهو لباس للرأس أحمر الله عمّ استعمالُه في المملكة العثمانية وبعض بلاد إسلامية أخرى. وجاء عنه في (القاموس العثماني) المصور أنه لباس يعده العثمانيون من مفاخرهم.

والخلاصة أن الطربوش القديم الطويل المنثني إلى الخلف تركي الأصل كغيره من القلانس العثمانية على ما يؤخذ من سكوت المؤرخين عن أصله، وقد يكون مقتبساً من اليونان على ما تتداوله الألسنة استنتاجاً من كونهم لبسوه لا اعتماداً على نص تاريخي فيما نعلم. وأن الطربوش الآخر ذا الذؤابة المسمى عند الترك بالفاس أو الفس مغربي الأصل بُدئ بصنعه في مدينة فاس فسماه الترك باسمها. وأنه كان يصنع أيضاً بتونس على ما يقوله ليتيريه[1] وكان يصدر من المغرب على البلاد الشرقية فنفقت سوقه في المملكة العثمانية ولبسه رعاياها وبعضُ جنودها إلا أنه لم يعم ويصبح لباس جميع رجال الدولة وجنودها إلا في عصر السلطان محمود الثاني فإنه لما غير ملابس (العساكر المنصورة المحمدية) وهم جنود النظام الجديد الذي أحدثه، ألبسهم الطربوش التونسي

---

[1] بل لم يزل يصنع بها إلى الآن. وذكر العلامة الشيخ محمد بيرم التونسي في رحلته صفوة الاعتبار أن معول الصناع في حاضرة هذه المملكة كان على صناعته فقال: «وأما صناعة الشاشية فإنما كانت هي عيان أكثر أهل الحاضرة ومنذ صنعت الشاشية بالمعامل في أوروبا رخصت. ولا زال صناعها في تونس متمسكين بالآلات القديمة وهي تكلفها غالية، فلا زالت في تناقص على أن كانت أن تكون مقصورة على أهل القطر وقليل من غيرهم وبقي من حوانيتها نحو ثلاثين أعني الذين يخدمون حقيقة بعد أن كانت حوانيت هذه الصناعة تبلغ نحو ألف وبسبب ذلك بقي أكثر الناس في الحاضرة بلا صناعة».

ولبسه هو ورجال دولته، واقتدى الناس به في لبسه. قال محمود شوكت باشا في كتاب (عثمانلي تشكيلات وقيافت عسكرية سي) أنه لما ألبس الجنود الأقبيـــة والســـراويل الضيقة نظر فيما يلائمها من ألبسة الرأس فوقع الاختيار على الطربوش التونســـي ذي الذؤابة الزرقاء ولكن ما كان أعلاه أوسع من أسفله جعلت له بطانة من المقوى تقيـــه من التكسر والتهدف والتهدل.

أحمد تيمور

المصدر: صحيفة الفتح ــ العدد الخامس ــ ١٥ يوليو (تموز) ١٩٢٦.

٢٥. اختصار الطريق إلى التمدن

مجلة الفتح

لقد آن للرابطة الشرقية أن تشمخ اليوم بأنفها صلفاً، وتهز أعطافها مرحاً، وتكنس الشوارع بذيلها خيلاء وعجباً، كل ذلك لتلك الأيادي البيضاء التي سيسطرها لها التاريخ ويتغنى بها عنها الأحفاد، والخدمات القومية اللواتي قدمنها للشرق وشعوبه من بواكير أعمالها وجلال اقتراحاتها وسوامي أفكارها، الأمر الذي عجز عن مثله فطاحل المستعمرين ودعاة التفرنج. فقد أبلغت براقشُ الشرق في عصر يافوخها واستطلاع آرائها، وما عتمت ــ أعلى الله كعبها ــ أن كنفت الجمعية الطبية المفتتنة بعادات الغربيين والراقصة على رنين حبقهم ــ في تفضيل أحد غطائي الرأس: إما الطربوش الشرقي الذي هو مظهر من مظاهر المصريين خصوصاً وكثير من الشرقيين عموماً، أو القبعة التي جلت عن أن يقلها إلا دماغ لا ينخره سوس ولا يسمو إليه قصور، وجسم لا يدركه اعتلال ولا يعتريه انحلال ولا يظل الآدمية من الدمى المؤلهة يتعبدها الأغرار ويقدسها البسطاء ويذهبون في شأنها إلى أقصى مدى من نبذ القومية والانسلاخ عن الوطنية.

هبّت الجمعية الطبية المقدسة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فعقدت جلستها التي يترقبها الشعب وقرارها بفارغ الصبر ولسان حالها يقول:

ألم ترَ أن السيف ينقص قدرُه إذا قيل هذا السيف خير من العصا

ولا ريب أن الجمعية لم تنوِ إلا الخير لقومها الذين دهوَرَهُم الطربوشُ وحده إلى حضيض الجمود، وصب عليه وابل المصايب فاضطربت صحتهم وهزلت أجسامهم وقلت مواليدهم وكثرت وفياتهم. وبذلك تأخرت معارفهم وفسدت عقيدتهم وتصلبت أفكارهم فأصبحوا وهم متشبثون بقوميتهم وعاكفون على شعارها ومولعون بمميزاتهم و لم يعلموا ــ وهم المساكين ــ أن في زوايا القبعة الغربية من إكسير السعادة ما يقلب الأعيان ويصهر المعادن ويحيل المصري إلى خواجة إفرنسي أو إنكليزي تعنو الوجوه لقبعته وتسجد الحياة لمهابته، ويبدو للغيد الأوانس بدراً ذا هالة تحبب إليهن التفرنس والتكلتز.

أخذ المخاض تلك الجمعية فولدت قراراً فعل في النشء المصري ما تفعل النار في الهشيم قائلاً إن الطربوش غير صحي. فقال دعاة التفرنج: أجل، وإنه غير مدني ولا

علمي ولا طبيعي ولا صالح للاندماج في الغربيين رضي الله عنهم أجمعين. ونادى النشء من وراء هؤلاء: آمين يا رب العالمين!

يا لها من وجهة ولاها المصريون اليوم وجوههم بفضل هذه الرابطة الشرقية التي أخذ تطفر بالأمة نحو باحات المدنية طفرة تفتح لها باب السعادة على مصراعيه في القريب العاجل حينما يغيب عن أفقها كوكب الطربوش النحس، وتتقوض من فنائها أطناب العمائم الجوفاء، وتمتلئ الشوارع والأزقة بالبرانيط المقببة التي تأخذ بمجامع القلوب حُسناً وتملأ الأرض عدلاً وأمناً!

هناك ترى مصر والمصريين وقد انتعلوا السماكين وتربعوا ذرى المجرة واستمدوا خوص برانيطهم من سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، فيسجد لهم حينئذ الشرقيون ويتعلق بولائهم المسلمون وتخلص لهم الوداد أوروبا ويغادر الإنكليز مراكزهم بمصر متأبطين حقايبهم وفارين من البرنيطة على رأس الشرقي وهم ينشدون:

في سعة الخافقين مضطرب وفي بلاد من أختها بدل

لا جرم أن زعانف الشرقيين في اليابان والهنود والأفغان والفرس والسيام الذين أخذوا ينادون بالمحافظة على شرقيتهم والتشبث بشعار قوميتهم سيدركون خطأهم الفاضح عن قريب حينما يرون مصر المبرنطة وقد حلقت بها قبعاتها في سماء الوهم واندفع بها تفرنجها إلى أعماق الفضاء، فتشيعها عيون الشرقيين وتحتضنها حجور المستعمرين،

فيا له من عمل صالح يرفعه الله على أسفل

كيف لا تكون القبعة لباساً صحياً وهؤلاء لابسوها أضخم من لابسي الطربوش أبداناً وأجمل هنداماً وأطول أعماراً وأكثر نسلاً وأشره أكلاً وأرسخ في معاقرة الصهباء قدماً. لا يضعفون، ولا يهرمون، ولا يمرضون، ولا يموتون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، أولئك هم المطهرون!

إن الفوايد الاقتصادية والسياسية التي تنجم عن تشريف الجمجمة بهذه التحفة المباركة لأكثر بكثير من الفوائد الطبية، ولكن جمعية الأطباء لم تشأ أن تتناول من المواضيع ما ليس من شأنها. إذا فلعلّ — والرابطة الشرقية بالمرصاد نحو كل شرقي — أن تقترح على حضرات أنصار التفرنج من الاقتصاديين والسياسيين أن يفاضلوا من الوجهتين بين الطربوش وضرّته.

لا شك أن الطربوش لم يمتص من الاقتصاد شيئاً قط ولم يشم رائحة الاستعمار يوماً قط وهذه البواخر الماخرة في قنال السويس وحدها كافية لأن تشهد للبرنيطة بالفضل الاقتصادي، والهند ووحدها كافية لأن نشهد لها بالفضل السياسي.

فتبرْنَطوا يا بني مصر تقتصدوا، وتبرنطوا تستعمروا، وتبرنطوا تنصحوا. وانبذوا هذه العمائم والطرابيش القومية التي تحببكم إلى الشرق والشرقيين والإسلام والمسلمين، فإن محبة هؤلاء إياكم وعطفهم عليكم نحس مستمر، بينما هو لا يغنيكم شيئاً في مقابل ما ستغدقه عليكم أوروبا من الفضل العظيم والخير الجسيم حينما تنبذون قوميتكم وتنسلخون عن شعاركم وتتزلفون إليها بما تضحك منه عليكم في أكمامها وتجعله العامل الوحيد في اقتناصكم وإبقائكم تحت براثنها.

لا ندري أين ذهب بالرابطة الشرقية عن أن تتساءل مرة أخرى عن هذه اللغة العربية ذات الحروف الحلقية أهي من الملفوظات الصحية أم غير صحية حتى نسرع فنتبدل بها غيرها؟ وهل الكتابة بها من اليمين إلى اليسار موافقة لما عليه ساداتنا المتمدنون أن يجب أن نؤلف لجنة لتغيير هذا الخط المبتذل الذي لا يلاءم الذوق الغربي.

إن منا الرجل الذي يتردد في جسمه شيء من روح المدينة فيخجل حينما يطالع بين سادته الغربيين أو المتفرنجين جريدة عربية أو كتباً عربية لما يوجسه حينذاك في نفسه من الذل المهين بمطالعة هذه اللغة التي لا يتسنى لها إلا أن تماشي العمامة كتفاً لكتف فتذهبان معاً إلى حيث تلقي رحلها أم قشعم.

وإن منا الرجل الذي يدب في نفسه نسيمُ الحرية فيتمنى أن لو انتدبت الرابطة فسألت الأطباء عن صحية هذين الركنين اللذين عني بهما المسلمون في صلاتهم وهما الركوع والسجود، فإن القومية ليست بأهون علينا من الدين وكلاهما نضحيهما في سبيل التزلف إلى قوم لم يك ليرضيهم منا سوى النزول على حكمهم في كل شيء.

لقد جلت البرنيطة في مصر ــ بلاد العجايب ــ حتى أصبحت وهي مصدر للعزة ورمز للعظمة وأداة للتهويل على النساء والبسطاء، وتاج تتفجر من تحته ينابيع الزهو وتتدفق من زواياه عيون الغرور.

يقول المرحوم أحمد فارس في كتابه «الساق» عند تعداد صفات مصر ما لفظه: «ومن خواصها أن البرنيطة فيها تنمى وتعظم وتغلظ وتضخم وتتسع وتطول وتعرض، فإذا رأيتها على رأس صاحبها حسبتها شونة. قال الفارياق: وكثيراً ما كنتُ أتعجب من ذلك وأقول كيف صح في الإمكان وبدا للعيان أن مثل هذه الرؤوس الدميمة

الضئيلة الذميمة تقلّ هذه البرانيط المكرمة وكيف أنماها هواءُ مصر وكبَّرهـا إلى هـذه المقدار، وقد طالما كانت هناك كالتراب فأصبحت هنا كالتبر؟

يا هواء مصر يا نارها يا ماءها يا ترابها صيِّري طربوشي هذا برنيطة وإن يـك أحسن منها عند الله والناس وأفضل وأجل وأمثل وللعَيْن أبهى وأكمل، وعلى الـرأس أطبق، وبالجسم أليَق. قال: فلم يغن عني النداء شيئاً وبقي رأسي مطربشـاً، وطـرف دهري مطرفشاً... الخ».

ولم يدرِ أحمد فارس إذ ذاك أن هذه القبعة الشومة سيحلها أبناء مصر محلاً يكون وبالاً على بلادهم المسكينة تحسر من أجلها مركزها الأدبي لـدى الشـرق والعـالم الإسلامي، وتُمَكن قحف رأسها لبراثن الاستعمار، كل ما هو آت آت، والله المستعان.

أنـا ابـن جـلا وطـلاع الثنايـا مـتى أضـع (العمامـة) تعرفـوني)

مجلة: الفتح

المصدر: الفتح، صحيفة إسلامية علمية أخلاقيـة

ـــ العدد ٧ ـــ الخميس ٢٩ يوليو سنة ١٩٢٦

ـــ السنة الأولى.

٢٦. وداع العمامة

للأستاذ العلامة الشيخ علي عبد الرزاق [١٨٨٨ــ١٩٦٦]

صاحب كتاب «الإسلام وأصول الحكم»

يذكر القراء الضجة الهائلة التي قامت حول كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لمؤلفه الأستاذ الشيخ علي عبد الرزاق. فإن هذا الكتاب قد أحدث في مصر أزمة وزارية وحوكم مؤلفه في هيئة كبار العلماء وجرده مشايخ الأزهر من لقب عالم وقد اطلعنا في «السياسة الأسبوعية» على مقال كتبه الأستاذ علي عبد الرزاق في وداع العمامة قال:

من الناس فريق يدعي للملابس شأناً في الحياة عالياً، ويعدها من مرافق العيش في المقام الأول، عند مرتبة الطعام والشراب.

ذلك من غير شك هو الرأي الغالب في جميع أنحاء العالم، وهو الذي تسير عليه اليوم أنظمة الحياة المدنية، أو هو، كما يقول الفقهاء المذهب القائم عليه العمل.

النساء كلهن، لا فرق بين سن وسن، ولا بين لون ولون، ولا بين طبقة وطبقة، من أتباع ذلك المذهب، وما رأيناه بينهن استثناء.

وفضلاً عن ذلك فقد تستطيع أيضاً أن تشطر البقية القليلة من الرجال شطرين، كبيراً جداً، وصغيراً جداً، وتلحق الشطر الكبير جداً بالنساء، فإنهم كالنساء يرون في اللباس ذلك الرأي، ويتبعون ذلك المذهب، أولئك هم الأطفال أجمعون، والشباب إلا قليلاً وعدد من المشايخ غير قليل.

ومن الناس فريق يرون اللباس أمراً هيناً لا ينبغي أن يكون له عند العقل شأن، ولا أن يتخذه الناس حديثاً وشغلاً، أولئك هم الأقلون عدداً.

وعندهم أن اللباس لا يدني ناقصاً من كمال، ولا هو يترل بمراتب الفضلاء، ولا يرفع قبيحة إلى رتبة الجمال، ولا هو يذهب بروعة الحسناء، فالسيف هو السيف عاطلاً وحالياً، والفتى هو الفتى كاسياً وعارياً، والبوصة لن تصير باللباس عروسة، والجاهل الوضيع لن يغير من جهله وحقارته عمامة كالبرج، ولا أكمام كالخرج.

وهم يقولون أن من خطأ الرأي أن يزعم أناس أن بين الملابس وبين الوطنية لشيء من الاتصال فإنما الملابس طراز يكون يوماً حسناً جميلاً، ويوماً آخر منكسراً ثقيلاً، وصورة تكون عزيزة حيناً وتكون مهينة حيناً، وشكل متقلب على تقلبات الزمان، متغير كلما تغيرت به الأحوال، يحيا آونة ويموت آونة، لكن الوطن جميل لا ينكر أبداً، وعزيز لا يهون، وثابت لا يتغير، وخالد لا يموت.

ومن الضلال المبين، أن يجعلوا للملابس شأناً في الدين وأن يتخذوا منها حلالاً وحراماً، وكفراً وإسلاماً، فالدين فوق ما يصفون، والله أكبر مما يتوهمون.

ما كان لنا أن نتحدث إذن عن العمامة، فإنها هي الأخرى من مسائل اللباس، لا يحسن بالرجال أن يتحدثوا في شأنها. لكن العمامة خاصة جديرة أن تودع بكلمة على الرغم من ذلك، فللعمامة دون سائر الملابس مقام خاص، ولها في النفس مركز عزيز.

ولقد يكون الخلاص من العمامة راحة وفراقها سروراً، لكنها على ذلك جديرة أن تودع بكلمة، فرب أذى مفارق جدير بأن تتبعه كلمة وداع.

للعمامة المثل الأعلى، فقد يصاب المرء بضرس من أضراسه الغالية يأكله السوس فإذا هو عظم ناخر، يتداعى له سائر البدن بالحمى والسهر ليس في شفائه أمل كمرض السرطان، ولا إلى إصلاحه من أمل كعلماء السوء، وليس في الصبر عليه من فائدة، ولا في الخلاص من شره حيلة إلا أن ينزع نزعاً، ويجتث أصلاً وفرعاً، فإذا ما عالجه الطبيب حتى انتزعه ثم أفاق المريض ورأى ذلك الضرس مرمياً أمام عينيه لم يستطع إلا أن يلقي عليه نظرة حسيرة فيها كثير من معاني العطف والوداع، على رغم ما لقي في الخلاص منه من نعيم وفي فراقه من سرور.

جديرة أن تودع العمامة بكلمة، وإن يكن المرحوم الشيخ محمد عبده يكره العمائم ويتشاءم منها، روى عنه الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار أنه قال من أبيات له:

ولكنه دين أردت صلاحه ... أحاذر أن تقضي عليه العمائم

نعم يؤكد الثقات العارفون أن تلك الأبيات موضوعة[1] على الأستاذ الإمام رحمه الله لكن إن صح أن المرحوم الشيخ محمد عبده قال ذلك البيت أو لم يقله فمما لا نزاع فيه أنه كان يكره العمائم ويتشاءم منها إلى حد بعيد.

---

[1] الأبيات هي للأديب والشاعر المغربي «محمد أكنسوس» المتوفى عام ١٨٧٧. راجع: تاريخ الآداب العربية ـ لويس شيخو ـ ص١٥٠ ـ دار المشرق ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٩١. (م.خ).

جدير أن تودع العمامة بكلمة على الرغم من ذلك كله، وعلى ما أصاب مقامها الذي كان في بعض الأيام رفيعاً، وما صار إليه حالها الذي كان في بعض الأيام عزيزاً.

وهب العمامة كانت كما يراها الأستاذ الإمام نحساً مشؤوماً وهبها قد صارت إلى شر حال وأصبح ذليلاً مقامها الكريم، هبها كانت تاج الملوك فأمست ميسم الأجراء والعبيد، وكانت شارة العلماء المصلحين فتقلدها سواهم من الجاهلين والمفسدين، وكانت يوماً من شعائر الدين فارتدت شعاراً لحملة الشياطين، أفلم تكن لها أيام ميمونة النقيبة، فكانت زينة فوق مفارق اللابسين، وغرة كريمة يزدان بجمالها الجبين، وكانت لباس العزة وكانت لباساً كريماً، أو لم يكن لها دولة وسلطان كما لغيرها اليوم دولة وسلطان.

وللعمامة بعد ذلك مقام عندي خاص. فقد نشأت في بيت له في العمامة تاريخ قديم، حتى لأحسب قومي يلبسون العمامة منذ عرف المصريون العمامة، أو منذ عرفها العرب، فهي فينا من الأعصر الأولى أعصر التاريخ المجهول، تراث كريم تحمله الأجيال المتتابعة، ويحفظه عن الآباء والأبناء.

كذلك ورث العمامة أبي عن أجدادي، وكذلك لبستها ميراثاً عن آبائي تليداً.

ولو استطعت أن أحفظ العمامة كما حفظها أجدادي، حتى أورثها أبنائي وأحفادي لكان ذلك أحب إلي وأكرم. لكنني لا أضيق.

ليس يزهدني في العمامة أن يتغير الذوق في الناس فيروا جمالها قبحاً وتشويهاً، ولا أنها كانت الرأس فاستحالت ذنباً، وكانت كمالاً فاستحالت عيباً، وكانت جلالاً فأمست هوناً:

وكانت غياثاً ثم أضحت رزية ألا عظمت تلك الرزايا وجلت

ولا يزهدني في العمامة أن تصدف عنها الغواني وتوصد دونها الأبواب، وتغص بها المجالس، وتهزأ بها العامة، وتفزع منها الأطفال وتضيق بها دواوين الحكومة، ونوادي الكبراء، وترفضها الفنادق والقهاوي. فلقد يهون ذلك كله بجانب ما عندنا للعمامة من عهد، وما نحفظ لها من حرمة.

لكن يزهدني في العمامة ما هو شر من كل ذلك، وشر من كل شر.

أناس يا لقومي حملوا العمائم و لم يكونوا لها أهلاً، فأضاعوا كرامتها لأنهم ليست لهم كرامة، وأضاعوا حرمتها لأنهم ليست لهم حرمة، ضيعوها وكانوا مفسدين.

لم يضيع العمامة قوم يستبدلون بها غيرها، وإنما ضيعتها تلك الرؤوس تحملها وليس لها موضعاً، فتنزلها منازل الضعة، وتهوي بها إلى مطارح الهوان. ألا فخذوا بحق العمائم من تلك الرؤوس إن كنتم فاعلين، وعندها فالتمسوا الثأر يا حماة العمائم.

ليس يلام أولئك الأبرياء من طلبة دار العلوم أو من مدرسة القضاء أن يحاولوا الخلاص من العمامة، إشفاقاً على أجسامهم الناشئة وآمالهم الشابة. فما كان الشباب الطامح والأمل الناهض إلا ليترعا ذلك المترع الأبي الكريم ولكنما يلام أولئك الذين يريدون أن يضطروهم إلى العمامة اضطراراً قبل أن يفرقوا بين تلك اللحى والعمائم ويجردوا من عمائمها تلك الرؤوس العاطلة إلا من الجهل والخرافة، الخربة إلا من نزعات الشياطين وشهوات المفسدين.

عزيزة أنت علينا أيتها العمامة وكريمة، أنت بيننا أثر غال، وتراث عندنا حبيب. وما كان للأثر الغالي أن يوضع جانباً، ولا كان للتراث الحبيب أن يتخلى عنه صاحبه، لولا أناس من حملة العمائم.

كنت — أيتها العمامة — تراثاً كريماً فصرت من أجلهم تراباً، وكنت من قبلهم ماء عسير الورود، فأمسيت من أجلهم ماء تجتنب وروده الأسود.

لا رآني الله أرعى دوحة   سهلة الأكناف من شاء رعاها

باريس في ٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٦

علي عبد الرازق

المصدر: نقلاً عن: الأحرار المصورة — بيروت — العدد ٣٩ — تاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٢٦.

٢٧ـ الطربوش أم القبعة؟

رأيان لكاتبين قديرين

مصطفى صادق الرافعي ـ دكتور محمود عزمي

إن الجدال بين أنصار الطربوش وأنصار القبعة هو في الحقيقة جدال بين عقليتين تتنازعان أقطار الشرق العربي الآن ولكل فريق أدلة وحجج جديرة بالنظر والتأمل. وقد رأينا أن نطلب إلى كاتبين من أقدر كتابنا أن يبين كل منهما رأيه في هذا الشأن فالسيد مصطفى صادق الرافعي يدافع عن الطربوش والدكتور محمود عزمي يناضل عن القبعة.

لماذا أستمسك بالطربوش؟

بقلم: مصطفى صادق الرافعي

لا تسأل ما الطربوش ولكن من لابسه ولا ما القبعة ولكن من حاملها، فإنما القبعة والطربوش كلاهما كسائر العروض التجارية لا قيمة لكائن ما كان منها إلا أن يمضي منفعة ويرجع مآلاً ويخرج في صورة عمل لينقلب في صورة أجر كأن هذه الأرض بما عليها قضية مالية عند منقطع كل استدلال من أدلتها برهان من الفضة أو الذهب.

* * *

ونحن نبتاع ما شئنا منذ أصبح العالم كله سوقاً واحدة لا تنفك عروضها من سفر وتقلب، فإن صاحب الحاجة أدرى بسداد حاجته وأبصر كيف يتولاها، فحذائي مثلاً تجد فيه متانة الحربية الألمانية لأنه من ألمانيا وثيابي تكاد تستعمر جسمي لأنها من إنجلترا... ولكني عند الطربوش والقبعة أجد حداً تقف إليه ذاتيتي الفردية، فلا أرى ثمة موضع انفراد ولكن موضع مشاكلة، ولا أعرف صفة منفعة لي بل صفة حقيقة مني.

* * *

ويعترضني من هناك المعنى الذي يصير به النوع إلى الجنس والواحد إلى الجماعة وأجدني من الأمة في مثل المترلة التي يقرأ فيها العدد المجموع فلا يطلق عليه ما كان يسمى به وهو أرقام مفردة ويكون العدد مثلاً من خمسة وأربعة وستة فيقرأ مجموعاً ستمائة وخمسة وأربعين، وأنه لهو ذلك لولا مترلة الضم والاتصال وتكوين الجملة التي هي أصل في حساب الأجناس.

* * *

فالقبعة على رأس المصري منفرداً بها دون قومه بائناً من جملتهم، إنما هي مظهر من مظاهر التحلل الاجتماعي وارتكاس في منطق الجملة المصرية ونفي لهذا الرقم من عبارة بجموعة.. بل هي في الرجال مشتقة من المصدر، نفس المصدر الذي يخرج منه التهتك في النساء وكلاهما ممنوع من المخالفة وكلاهما ضد من صفة اجتماعية تقوم بها فضيلة شرقية عامة وإن كان فيما وراء ذلك ضرب من القول في توجيه القبعة ومذهب من الرأي في الاحتجاج لها.

غير أن المذاهب الفلسفية لا يعجزها أن تقيم لك البرهان جدلاً محضاً على أن حياء المرأة الفاضلة إن هو إلا رذيلة في الفن... وأن هو إلا مرض وضعف وكيت وكيت، ثم تنتهي به الفلسفة إلى أن تجعله من البلاهة والغفلة. وما الغفلة والبلاهة إلا أن تريد فلسفة من فلسفات الدنيا أن تقحم في كتاب الصلاة مثلاً فصلاً في... في... في الدعارة.

* * *

ولا يهولنك ما أقرر لك من أن القبعة على رأس المصري في مصر هتك أخلاقي أو هتك سياسي أو هتك ديني، أو من هذه كلها معا، فإنك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب، بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة وتحللت أكثر عقدها وقاربت الحرية العصرية بين النقائص حتى كادت تختلط الحدود اللغوية، فحرية المنفعة مثلاً تجعل الصادق والكاذب بمعنى واحد فلا يقال إلا أنه وجد منفعته فصدق ووجد منفعته فكذب، وما فرق بين اللفظين وجعل لكل منهما حداً محدوداً إلا جهل القدماء وفضيلة القدماء ودين القدماء وهذه الثلاثة: الجهل والفضيلة والدين هي أيضاً في المعجم اللغوي الفلسفي الجديد... مترادفات لمعنى واحد.

ومتى أزيلت الحدود بين المعاني كان طبيعياً أن يلتبس شيء بشيء وأن يحل معنى في موضع معنى وأصبح الباطل باطلا بسبب، وحقاً بسبب آخر. ولم يعد يحكم الناس إلا مجموعة من الأخلاق المتنافرة تجعل كل حقيقة في الأرض شبهة مزورة عندما لا تكون من أهوائه ونزعاته، واحتاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فصلاً مسلحاً... فيكسبون القانون بمدنيتهم قوة همجية تضطره أن يعد للوحشية الإنسانية وتدفع هذه الوحشية أن ترصد له وتترشح بجرائمها لاعتراضه. وما القبعة على رأس الشرقي إلا حد طمس حداً وفكرة هزمت فكرة ورذيلة قالت لفضيلة أنا جئت فاذهبي.

ما هو الأكبر من شيئين لا حد بينهما للصغر وما أصغر شيئين لا حد بينهما للكبر؟

* * *

إنها الفوضى كما ترى ما دام الحد لا موضع له في التمييز ولا مقر له في العرف ولا فصل به في العادة ومن هنا كان الدين عند قوم أكبر كلمات الإنسانية في كل لغاتها وأملاها بالمعنى وكان عند آخرين أصغرها وأفرغها من المعنى وما كبر عند أولئك

إلا من أنه يسع الاجتماع الإنساني وهو محدود بغاياته العليا، ولا صغر عند هـؤلاء إلا بأن الاجتماع لا يسعه فلا حد له كأنه معنى متوهم لا وجود له إلا في حروف كلمته.

* * *

فجماعة القبعة لا يرون لأنفسهم حداً يحدونها به من أخلاقنا أو ديننا أو شـرقيتنا وقد مرقوا من كل ذلك ولا أعرف أحداً منهم من أوفى على الخمسين من عمره ومنهم من جاوزها ومنهم دون ذلك على حين تاريخ القبعة فيهم لا يرجع إلى أبعد من مـدة القماط للطفل الرضيع في حول أو حولين.

أفليس لنا أن نسألهم أين كانوا من قبل وكيف ضاق بهم الطربوش بعد هذه السن؟

* * *

ولكن الطربوش لم يضق وإنما ضاقت العقول أو ضاقت الأخلاق وهـذه الأمـة منكوبة بالتقليد والمقلدين فهلا زيا مخترعاً أو إصلاحا في زي معروف، فـإذا كـانوا عاجزين عنهما فهلا عقلوا سخافة هذا التقليد وشؤم هذه المتابعة؟

يقولون أن الطربوش يوناني وتقول أنه يوناني معرب فهو في ألفاظ الحياة كألفاظ مثله في اللغة وقد أصبح رمزاً من رموزنا، ففيه من ذلك قوة السر الخفي الذي يلهمنا ما أودعه التاريخ من قوميتنا ومعاني أسلافنا أو فيه سر القوة الخفية التي تجمعنا حول المعاني الاعتبارية برمز تتمثل فيه تمثل الوطن في الراية. وهو عندنا كالاصـطلاح في الحفلـة الرسمية على ثوب رسمي لا بد منه لكل من يحضرها ليتسق به نظامها شئت أم أبيـت. وقد تقول إن في الشرق ضروباً أخرى غير الطربوش كالعمائم والقلانس فنقول لـك: إن الاصطلاح واقع عليها كذلك وهذا الاصطلاح عينه هو الذي ينفي القبعة ويلحـق لابسها بالفئة الأجنبية.

أنا أعرف أن منا قوماً يرى أحدهم في ظن نفسه أنه قانون من قوانين التطور فهو فيما يلابسه لا ينظر إلى أنه واحد من الناس بل واحد من النواميس... وكأنما حادثة لها مادتها الفعالة فيريد أن يكون على ما تقتضيه تلك المادة الوهمية القائمة بنفسه... ومـن هنا الثقل والدعوى الفارغة وما هو أكبر من الثقل وفراغ الدعوى فإنه لحق أن يكـون بعض الناس أنبياء ولكن أقبح ما في الباطل أن يظن كل إنسان نفسه نبياً.

أنا أستمسك بالطربوش لأني أريد الدقة في التعبير الذي تعبر به نفسي حين تعلن عن نسبتي وقوميتي فالطربوش وما في حكمه مما وقع الإصلاح عليه إنما هو تـدقيق في التعبير بالفكر وإخراج لهذا الفكر في أصدق ما يدل عليه وأصرح مـا يؤديـه. ثم إني مستيقن أن الأفكار الشرقية أو الإسلامية تحت القبعة هي غيرها تحت الطربـوش، لأن تغيير الرمز يتغير به ما كان يلهمه، وهذا لا يكابر فيه أحد فقد عاد إلى صبغة نفسـية كما ترى.

وأنت تعلم أن النفوس تضع من أحلامها في كل من تلابسه حتى تصبغ كل جامد من المادة بأثر من آثارها كأن الإنسان لا يكون إنساناً إلا بتحويله كل ما حوله في ألوان إنسانية. والمدنية هي التي تزيد في هذه الأحلام وتنوع منها أنواعها ولولا ذلك ما كان للرؤوس غطاء إلا ما غطاها الله به من هذا الشعر الكثيف المسترسل يضرب إلى المنكبين ويرد على الصدغين والعنق ويتم تمامه باللحية كانت مرسلة. وذلك أفضل الأغطية وأوفاها بالحاجة وأردها على الجسم بالصحة والعافية لولا النفس وأحلامها.

فنحن من الطربوش أو القبعة بإزاء مظهر فيه أحلام النفس كما فيه المنفعة لا بد من الاعتبارين جميعاً، وما نظن أحلام النفس الشرقية كأحلام النفس الغربية إلا إذا أزيح الحد الذي يفصل بينهما.

وهاهنا أمر لا بد من التنبيه إليه وذلك أن الأوروبيين لا يتخذون من القبعات إلا أغطية للطريق فهم ينزعونها في مجالسهم وبيوتهم وأماكن عملهم ومن ثم كان بناؤها عندهم على أحكام الطرق وأرواح الشارع وهندسة الثلج والضباب والرطوبة، وبلادهم تعمي الشمس فيها أكثر السنة ولا تبصر إذا أبصرت إلا في أشعة كليلة. فمن سخافة التقليد بل من الغفلة أن ننزع نحن إلى ما اتخذوه وننشأ على الوقاية من شمس أرضنا بهذه الوقاية المحكمة في حين أنه إن لم نجعل بيننا وبين الشمس ونورها وحرها ملائمة فنبرز لها ونعتادها من الصغر ونلقاها بوجوهنا — هيأنا ذلك لضرباتها عند أيسر الأسباب ووهنت فينا قوة الاحتمال ولم نعد نصلح لهذا الجو بعد، ولعله لا تمر بضعة أجيال حتى تظهر جنايتنا على أعقابنا في لعنة تعد ضربة من ضربات الطبيعة.

وأعلم أن ما يزينونه للشرقي من فضائل القبعة أن هو إلا منطق شهوات في جملته ولقد تسمع الجائع الصائم يتكلم عن الطعام فترى كلاماً في معانيه معان أخرى لا يعدها غير الجائع إلا حماقة ساعتها.

ولم أعرض في هذه الكلمة للجانب الديني ففيه كلام آخر يجعل اللعنة لعنتين... وفي واحدة لما يذهب بالقبعة.

مصطفى صادق الرافعي

لماذا لبست القبعة؟

بقلم الدكتور محمود عزمي

تفضل «الهلال» فسألني أن أفضي لقرائه بسبب لبسي القبعة. فعدت، من جانبي إلى نفسي أسائلها تاريخ هذا السبب وتطوراته، فإن له عندي تاريخاً وتطورات.

* * *

وقد رجع بي التفكير في هذا الصدد إلى أيام الصبا، أيام كنت بالمدرسة الثانوية، وأيام ظهرت كتب «قاسم أمين» عن المرأة والحجاب. فقد أثر في ذيوع بعض ما تضمنته الكتب من آراء، ثم قراءتي هذه الكتب بالذات، أثراً عجيباً جعلني أمقت الحجاب مقتاً شديداً يرجع إلى اعتبار خاص هو اعتباره من أصل غير مصري وهو اعتبار دخوله إلى العادات المصرية عن طريق تحكم بعض الفاتحين الأجانب وتملق بعض الوطنيين بالتقليد المرذول.

* * *

وكنت في تلك الأيام منتظم الذهاب إلى القرية أمضي فيها فترة العطلة المدرسية كلها فكنت أرى مظاهر السفور الطبيعي عند القرويات أثناء عملهن وأثناء راحتهن، وكنت أقارن بينه وبين ما هو متجل منه داخل دار الآثار، فكان حنقي على أولئك الأجانب من الفاتحين «الإسلاميين» يزيد، وكان تنطع بعض المفسرين لآيات القرآن يضيف إلى ذلك الحنق ما يثبت أركانه ويدعم قواعده.

* * *

وكانت تقوم حملة على «التبرج» وكانت تقوم دعوة إلى النهوض بالمشروعات الاقتصادية ولا سيما ما اتصل منها بصناعةالملبوسات، فكان هذا كله يجر إلى التفكير في الزي وما يجب أن يكون منه «حشمة ووقاراً» وما يجب أن يكون منه «مصرياً في مادته وصناعته».

* * *

وأنتج ذلك كله التفكير إلى الزي وموافقته للمظاهر القومية والأحوال الجوية، وتعدى التفكير دائرة زي السيدات إلى دائرة زي الرجال، ووضح ميل البعض بهذا الشأن الأخير إلى تقرير أن «الطربوش» ليس لباساً قومياً وليس لباساً صحياً، وذهبوا إلى حد الإعراب عن ضرورة العودة إلى ما كان يحمله «المصريون القدماء» على رؤوسهم من «عمارة» يتدلى منها على العنق ما يتدلى ليمنع عنه الشمس وما لها عليه من سوء.

وكنت أنا من هؤلاء المعربين، أنقم على الفرس ومن كانوا واسطة نقل «حجابهم» إلينا وعلى البيزنطيين ومن كانوا واسطة نقل «طربوشهم» إلينا، وكنت في ذلك أحس أني مدفوع بعامل من «الوطنية» قوي.

* * *

ثم حدث أن ذهبت إلى أوروبا أدرس بباريس فتجلت لي آيات «السفور» مما جعلني أنظر إليه على أنه وسيلة إصلاح اجتماعي كبرى، وتجلت لي آيات البشرية بما جعلني أفقه «الوطنية» على أنها إحساس غور يجب أن يتعهده المرء في عمقه لا في اتساع سطحه. وهكذا أخذت أنظر إلى حضارة القوم وإلى حضارة العالم نظرة إخاء وتضامن لا نظرة عداء وتنافس، ودعم من هذا النظر أن نظرية «التضامن» هي التي كانت تجري بها البحوث الفقهية والاجتماعية في ذلك الأوان نستمع إليها كل يوم في الدروس وفي المحاضرات ونقرؤها في البحوث والمجلات.

* * *

وإذن فقد دعتنا «البيئة المكتنفة» إلى تقرير العلائق بيننا وبين الحضارة الغالية، وكان طبيعياً أن يكون الزي — وقد خرجنا من مصر في وقت ماجت فيه الآراء باعتباراته — هو أول ما نفكر فيه من تلك العلائق. فوجدنا أننا نأخذ من حضارة اليوم الشائعة كل مظاهر زيها إلا ذلك الذي دخل إلينا عن طريق الفتح العثماني وصار رمزاً للقوة القاهرة والسلطان المستبد.

لكن هذه المشاعر قد وقفت عند حد الإحساس بها والتفكير فيها والتمدح بفضائل تنفيذها والهيام بهذا التنفيذ، ولا سيما كلما جاء الصيف وأحس المقيم منا هناك بخفة قبعة الفصل على رأسه أو أحس المقيم منا هنا بشدة «كبس» الطربوش على يافوخه.

على أنا لم نقو على تحقيق هذا الذي كانت النفوس تصبو إليه اللهم إلا واحداً لبس القبعة في مصر أياماً ثم عاد إلى الطربوش تحت تأثير ما كان الناس يقابلونه به من التهكم حيناً ومن الرمي بالزندقة والمروق والإلحاد والكفر أحياناً.

* * *

ثم جاءت الحرب الكبرى وأصيبت مصر منها بإعلان الحماية البريطانية عليها. فوجدنا طائفة من إخواننا الشرقيين يستبدلون القبعة بالطربوش هروباً من «العثمانية» وتقرباً من الدولة الحامية أو فراراً من عدوان الجنود الأستراليين. فكان من هذا أن ازداد تمسك المصريين بالطربوش يعلنون به دائماً استعدادهم إلى تحمل أكبر أنواع الأذى في سبيل عدم رضاهم عن الحماية التي فرضت عليهم فرضاً.

وتكشفت النهضة التي كانت كامنة، وتفجرت العواطف التي كانت مضغوطة، فزاد تكشفها وتفجرها ذلك الاستمساك بما يحسبه الناس مظهراً للشرقية ورمـوا للمصرية ورسخت أقدام الطربوش من جديد فوق الرؤوس جميعاً.

* * *

وفازت النهضة بأولى ثمار جهادها، وفاءت مصر بنعمة الدستور والحياة النيابية، وسمعت آذان المصريين جميعاً مبادئ الحرية يرن صداها في صلب الدستور يقـره في نصابها أبداً ويكفلها تامة ويطلقها من أغلالها إطلاقاً، كما وصلت مصر في علاقاتها مع الإنجليز إلى نوع من التفاهم يرجو الطرفان أن يستكملاه بعد حين.

* * *

فعادت إلى العقول طرائق تفكيرها المعتدل اعتدالاً يزيد قوة ما أعلنت كفالتـه في الدستور من مبادئ حرية وإطلاق. وأخذ المفكرون يعودون إلى ذكر الحضارة الغالبة في هذا العصر ـــ ولكل عصر حضارة غالبة تخضع لها الحضارات الأخـرى خضـوعاً حتمياً ـــ وضرورة الأخذ عنها مبادرة إلى الرقي وإسراعاً في الخطى نحو التقدم، وكانت فكرة الزي هي الشاغلة حيزاً كبيراً من تفكير القوم، وأدوار الانتقال تعنى دائماً بالمظاهر العرضية توطئة للعناية بالبواطن الجوهرية، فعادت حركة الكلام في القبعة والطربـوش لكن عادت في جو أصلح من ذلك الجو الأول الذي عدل صاحبنا فيه عن لبس القبعـة تحت ضغط بالإلحاد والخروج على التقاليد.

ذلك أن السيدات المصريات خطون في طريق التحرر من «الحجاب» خطـوات واسعات فسفر منهن كثيراً محترمات كل الاحترام، وذلك أن النهضـة التركيـة الـتي قوضت دعائم «الخلافة» وما كان يحيط بها من مظاهر العسـف والإذلال والجمـود والاستبداد ألقت بالطربوش إلى حضيض الغياهب وزينت الرؤوس بالقبعات تزييناً دون أن يقول فقيه إسلامي عاقل أن الأتراك خرجوا بهذا على الدين أو أصبحوا من أجلـه ملاحدة كافرين، وذلك أن الدستور المصري قد أطلق حرية الاعتقاد وكفل الجهر بـه وأباح الإلحاد لمن يشاء.

* * *

وقامت في بلاد الشرق المتكلمة باللغة العربية نهضات وثابة إلى الاستقلال والانطلاق من القيود وكثر خلالها اللجاج بين أن يعود القوم إلى المدنية العربية وأن يأخذوا من المدنيـة العصرية، وحاول البعض أن يوفق بين الرأيين ورأى البعض أن هذا التوفيق محال لانقطـاع

الصلة ــ بفعل محن التاريخ ــ بين حاضر هذه الشعوب الشرقية وماضي الأمة العربية أو الأمم الإسلامية، بتعبير أصح، وأنه لا محيص من الاختيار بين المدنيتين.

ولست أدرى على التحقيق ما هو الرأي الغالب لكني أدرى إني أنا من الذين ينادون بملء فيهم بضرورة الأخذ من المدنية العصرية وهي الحضارة الغالبة وبأن الخير كل الخير في شخوص الكتلة الشرقية المتكلمة لغة عربية إلى شواطئ البحر المتوسط الشمالية الغربية، وبأن كل نظرة إلى رمال التيه والبادية إنما تكون نكوصاً على الأعقاب في ميدان الجهاد الذي يسير فيه العالم سيراً هائل السرعة إلى الأمام.

وسط هذه التيارات المتقابلة أقبل صيف سنة ١٩٢٥، وكان علي أن أمضيه في القاهرة. وعندي أن بعض الإصلاحات الاجتماعية لا تجدي فيها المناقشة ولا يفيد الجدل، بل تجدي القدوة ويفيد العمل. من أجل هذا اعتزمت أن أنفذ ما أنا مقتنع به من رأي في صدد المدنية العصرية وفي صدد القبعة. لكن «الأخطاء الوراثية» المتراكمة كان لها في عزيمتي بعض الأثر. فجعلتني أجد من «حسن الفطن» ألا أفاجئ إخواني وأصدقائي بما سأضع على رأسي في مصر من عمارة جديدة، وأن أنذرهم قبل الموعد بأيام حتى لا ينقضوا علي بالسؤال والاستفسار، وإذن فقد حددت لنفسي اليوم الأول من شهر يوليه سنة ١٩٢٥ لألبس فيه القبعة وأخذت منذ العشرين من شهر يونيه أعلن كل من أقابله من الإخوان والأصدقاء أني مغير لباس الرأس من أول الشهر التالي.

وجاء أول الشهر وقصدت في حزم وهرولة إلى بائع القبعات بميدان «سوارس» ولاحظت أن سرعة الخطى قد أخذت تقل عندما اقتربت من الحانوت، ولاحظت أن السير قد وقف بي عند باب الحانوت، ولاحظت أني أخذت أنظر إلى العقبات المعروضة خلال الزجاج، ولاحظت أني استأنفت سيري في شارع قصر النيل دون أن أشتري القبعة ودون أن أدخل حانوت القبعات، ولاحظت أني أخذت أتهم نفسي في صوت غير خافت بأني «جبان» وبأن «الأخطاء الوراثية» لا تزال تجد مني منفذاً. ومنيت نفسي بالعودة إلى الحانوت بعد الظهر لكني لم أعد إليه عاماً كاملاً...

* * *

ومضى الصيف ومضى الخريف ومضى الشتاء ومضى الربيع وأقبل الصيف من جديد، صيف سنة ١٩٢٦، والمناقشة حول «الطربوش والقبعة» يتسع نطاقها حتى وصل إلى «الرابطة الشرقية» التي أرادت أن تتذرع «بفتوى» يصدرها الأطباء فتقدمت إلى جمعيتهم بأسئلة واستيضاحات انتهت الجمعية إلى الإجابة عنها في اجتماعها العام الذي عقدته صباح يوم الجمعة الموافق للثاني من شهر يوليه لسنة ١٩٢٦.

وقالت «هيئة كبار الأطباء» في فتواها أن الطربوش لباس رأس غير صحي وأن للباس الصحي شروطاً عددها وإذا بها متوافرة في القبعة وغير متوافرة إلا فيها.

وأعلن القرار أو أعلنت الفتوى مساء فكانت هي القاضية على «أخطائي الوراثية» من هذه الناحية إذ قصدت صباح اليوم التالي السبت الثالث من شهر يوليه لسنة ١٩٢٦ إلى بائع القبعات نفسه واشتريت قبعة الصيف وخلعت على الجوذي ما كان على رأسي قبل هذا من طربوش.

ومن ذلك اليوم ألبس القبعة متناوباً أنواعها المتمشية مع كل فصل من فصول السنة.

* * *

تلك هي ظروف لبسي القبعة وتلك هي تطورات الاعتبارات التي دفعت إلى لبسها، انتهت آخر الأمر بأن كانت اعتبارات صحة واعتبارات شخوص إلى الشمال الغربي للأخذ بالحضارة العصرية الغالبة بدل افتقاد العمر في ندب الماضي الذي ليس من سنة الكون أن يعود.

وقد قابل اثنان من أصدقائي لبسي القبعة بتعليقين أرى مناسباً أن تختم بهما هذه الكلمة.

ذهبت إلى «القدس» في اليوم التالي للبسي القبعة لأول مرة في مصر واستوقفت صديقاً من أصدقائي هناك هو «فحل من فحول الأدباء والمفكرين العرب» ـــ ولم يكن قد عرفني «بها» فلما عرفني قال على فوره: «الأن أخذ الشرقيون يفكرون برؤوسهم!».

وغداة عودتي من فلسطين تلك المرة ذاتها خرجت إلى محطة القاهرة أودع صديقاً «عالماً فاضلاً وأديباً مجيداً ظريفاً» وهو مسافر إلى أوروبا، فضمن أولى «مذكرات سفره» إلى جريدة «السياسة» إشارة إلى قبعتي وقال على لسان صديق يحدثه:

«أما العمامة العربية فقد دخلت مصر على يد الفتح الإسلامي فاتصلت بالروح الديني من أول يوم، وأما الطربوش التركي فهبط إلينا من رؤوس المتسلطين لباساً رسمياً للجنود والموظفين فهو رمز التسلط والحكم، وهذه القبعة تنتشر في الوسط الآخذ بالمذاهب الحديثة فهي تمثل لوناً خاصاً، وليس النزاع بين العمامة والطربوش والقبعة ولكنه تنازع بين صور مختلفة من التفكير والذوق يريد كل منها أن يتسود».

محمود عزمي

المصدر: مجلة الهلال ـــ الجزء ١ ـــ م ٣٦ ـــ ص٤٩ ـــ عام ١٩٢٧.

٢٨. العمائم عند العرب

نور الدين بيهم

سآتي في هذه المقالة على ذكر العمائم غير مدع الوضع أو الابتكار وإنما هي شتات جمعتها أثناء مطالعاتي أقدمها لقراء «الكشاف» علهم يجدون فيها لذة وفائدة. ولئلا يتسرب الملل إلى قلوبهم اعتزمت ذكر أشكال العمائم وألوانها عند المتأخرين والمتقدمين والمِلح التي تتعلق بها.

إن العمائم أنواع منوعة، منها «الشد» وهو قطعة من القطن الناعم يعتم الإنسان بها. وقد ذكرها المسيو هوست المستشرق الألماني في كتابه[1] إذ قال: «لا فرق بين الشد والعمامة فهو قطعة من الشاش الهندي أو من قماش آخر ناعم أبيض اللون يبسطونه بسطاً محكماً ويلفونه بلباقة فوق طربوشهم الأحمر، ويدعوه المغاربة «شاشية» ويباع في أسواق بلاد المغرب». ويزعم هوست أنه لا يحق لبس الشد إلا للأشراف والحجاج الذين يؤمون مكة لأداء فريضتهم الدينية، أضف إلى هؤلاء القواد والرؤساء والأطباء.

ويستعمل المصريون الشد في نفس المعنى الذي يستعمله المغاربة كما ذكره ابن إياس في تاريخ سلاطين المماليك[2]. وكان العرب ولا يزالون يتعممون بلف قطعة من الشاش حول رأسهم. وقد ذكر النويري في كتابه تاريخ مصر[3] ما يلي: «وتعمم بشاش دخاني عتيق».

وذكر المقريزي في كتابه تاريخ سلاطين المماليك[4]: «فأكرمه السلطان وأحسن إليه وأنعم عليه بتشريف أطلس معدني بطرز زركش وكلوقة زركش وشاش رقم وحياصة ذهب مجوهرة على عادة أكابر نواب السلطنة الشريفة».

وذكر أيضاً في مكان آخر من هذا الكتاب «وركب في الموكب بالأقبية الإسلامية والكلوقة والشاش على عادة العساكر المصرية». وكثيراً ما كانوا يضعون العمامة ويتركون طرفي قطعة الشاش يتدليان من الجهتين اليمنى واليسرى. فقد جاء في ألف ليلة

---

[1] Nachrichten von Murokos — ص١١٤.

[2] ابن إياس — المجلد — جزء ١ — صفحة ١٥٠.

[3] صفحة ١٩٣.

[4] مجلد ١ — جزء ٣ — صفحة ٦٣.

وليلة[1] طبع ألمانية «شاش بطرفين». أما ضخامة العمامة أو صغرها فكان يختلف باختلاف رتب المتعممين وسنهم. جاء في كتاب دنديني[2] في كلامه على سكان طرابلس الشام ما يلي: «وكانوا يضعون حول طاقيتهم قماشاً رقيقاً من القطن الأبيض يدعونه شاشاً ويصنعون منه عمامة يختلف حجمها باختلاف رتب الأشخاص وسنهم. فكان كبارهم وأرفعهم رتبة وأعرقهم محتداً يضعونها أضخم من سواهم وكثيراً ما كانوا يبالغون في تكبير حجمها. أما الأشراف فيضعون على رأسهم عمامة خضراء». وذكر المسيو فولكنوني[3] قال: «كان المسلمون يضعون العمامة البيضاء حول طاقية من القماش الأحمر. أما غير المسلمين فكانوا يجعلون مع اللون الأبيض لوناً آخر». ويضع بعض المسلمين عمامة ملونة مقصبة. جاء في كتاب المسيو تافرنيه أثناء كلامه على العمائم[4]: «وكانوا يضعون عمامة من قماش حريري رقيق ممزوج بالذهب والفضة ذات حجم كبير جداً ينتهي أعلاها بما يشبه باقة زهر. وهذه العمائم على وجه عام ثقيلة الوزن غالية الثمن. وأما التي كان يضعها الملوك والأعيان فأثمانها فاحشة جداً».

ورغبت النساء في أن يضع رجالهن عمامة كبيرة جداً فنهاهم النبي أو خيل لهم أنه ينهاهم عن ذلك: جاء في تاريخ مصر لابن إياس[5] ما يلي: «وفي رجب جرت حديثة وهي أن امرأة صالحة رأت النبي (ص) في منام وهو يقول لها قولي للنساء لينتهوا عن لبس الشاش وكان شيئاً قد اقترحته النساء ليلبسوه على رؤوسهم مثل سنم الجمل طوله ذراع وارتفاع ربع ذراع يزخرفونه بالذهب واللؤلؤ وبالغوا في ذلك وكان بدعة سيئة من السيئات».

ولم يقتصر المسلمون على لبس الشاشية في شبه جزيرة العرب وسوريا ومصر وبلاد العجم بل اقتدى بهم عرب المغرب أيضاً. ورد في رحلة ابن بطوطة «وقد ضربوه ضرباً كثيراً حتى سقطت عمامته وظهرت على رأسه شاشية حرير فأنكروا عليه لباسه».

---

[1] مجلد ٢ ــ صفحة ٣٣.

[2] رحلة على جبل لبنان صفحة ٤٤ و٤٥.

[3] مجلد ٢ ــ صفحة ٣٨١.

[4] مجلد ١ ــ صفحة ٦٣٠.

[5] صفحة ١٦ لحوادث عام ٧٨٧.

وجاء في كتاب دياغو دي توريس ما يلي: «وكان سكان مراكش يلبسون عوضاً عن القبعات طربوشاً أحمر اللون وعمامة كبيرة».

وكان بعض العرب يضعون فوق عمامتهم طرحة سوداء. ذكر المقريزي: «وكان يلبس طرحة على عمامته» وجاء في تاريخ مصر[1] «حضر القاضي وعلى رأسه طرحة» وكان البعض يلبسون الطرحة مع العمامة وذلك في الأعصر القديمة ثم استبدلوا العمامة المصنوعة من القماش بالطرحة كما ورد في وصف مصر[2] «إن الطرحة هي قطعة من الشاش الهندي أو الشال تتدلى وراء الرأس بعد أن يلفوها مرات عديدة حول الطربوش وكثيراً ما تكون موشاة بالذهب في أطرافها».

وقديماً كان لبس الطرحة منوطاً بقاضي القضاة وبقاضي المذهب الشافعي وذلك أيام الملك الظاهر[3] وبأمر منه. ذكر النويري[4] في كلامه على حوادث عام ٧١٦هـ ما يلي: «فوض قضاء القضاة الحنفية بمصر للقاضي سراج الدين عمر بن شهاب الدين بن محمود وطلع عليه بطرحة على عادة القضاة».

وذكر السيوطي في كتابه «حصن الخدرة»[5] قال: «وفي هذه السنة أراد السراج الهندي قاضي الحنفية أن يساوي قاضي الشافعية في لبس الطرحة وتقرير القضاة في البلاد وتقرير مودع الأيتام فأجيب إلى ذلك واتفق أنه توعك عقيب ذلك وطال مرضه إلى أن مات ولم يتم له ما أراد».

وكان الخطباء في الجوامع يلبسون الطرحة بعد أن انتشر لبسها بين القضاة وكان أول من أمر بلبس الطرحة للأشراف وكبار القواد علامة شرف وفخر الملك السعيد بركة خان عام ٦٧٦هـ. قال النويري في تاريخ مصر[6] «خلع عليه خلعة الوزارة» وكانت الخلعة جبة عنابي حمراء وفوقها فرجية زرقاء مستجبة مقندرة وطرحة. وكان لون طرحة القاضي

---

[1] نسخة المسيو كاترمير.

[2] المجلد الثامن عشر ــ صفحة ١٠٩.

[3] السيوطي ــ ترجمة دي سامي ــ صفحة ٢٦٧.

[4] تاريخ مصر ــ صفحة ٨٨.

[5] صفحة ٣٤٦.

[6] صفحة ٣٢.

أسود أما طرحة الأشراف وكبار القواد فكانت ألوانها مختلفة. ودعا بعضهم الطرحة بالطيلسان. ذكر المقريزي: «وكان يلبس الطيلسان المقوَّر ويسمى اليوم بالطرحة».

ووضع بعض المسلمين لا سيما الأعراب المصريين العمامة فوق الطرطور. جاء في كتاب ألف ليلة وليلة[1]: «أن سيدة تصارعت مع الأمير شركان وصرعته ثم قالت له ضاحكة: كأنك طرطور بدوي تقع من بطشة».

وذكر بوركهارت السويسري الألماني الجنس هذه العبارة نفسها في كتابه «الأمثال السائرة»[2] وجاء في كتاب هلفريخ: «يضع البدو على رأسهم ضرباً من القبعات الحمراء المروسة ذات الوبر ويلفون عليها قطعة من قماش أبيض».

ويعتقد البعض أن المسلمين لا سيما في مصر كانوا يلبسون أسراهم والمجرمين منهم الطرطور تشهيراً لهم وكان بعض هؤلاء الأسرى متعممين. جاء في تاريخ مصر للنويري[3]: «وأركبوه على جمل وعلى رأسه طرطور وطيف به على هذه الصفة وخلفه قرد يصفعه ثم صلب وضربت عنقه وجهزت رأسه إلى البلاد». وجاء في تاريخ مصر للنويري[4] حين ذكره حوادث عام ٧٨٧هـ: «ومن الحوادث أن السلطان رسم بإبطال ما كان يعمل يوم النيروز وهو أول يوم في السنة القبطية ومما كان يعمل في ذلك اليوم بالديار المصرية هو أنه كان يجتمع في ذلك اليوم السواد الأعظم من العوام وغيرهم من السوقة ويركبون منهم شخصاً خليعاً على حمار وهو عريان وعلى رأسه طرطور خوص فيسمونه أمير النيروز ويكون ذلك الرجل قوي الطباع فيتوجه إلى بيوت الأكابر وأعيان الناس ويقف على الأبواب ومعه السواد الأعظم والأسافل فيكتب على صاحب تلك الدار الوصولات بالجملة وكل من امتنع عن العطاء بهدلوه وشتموه ولو أنه أكبر من في القاهرة ولا يزالون مرسمين على بابه حتى يأخذوا منه ما قرروه عليه ويأخذون منه ذلك القدر من المال غصباً وكان منهم طائفة يقفون في الطرقات ويتراشقون بالماء الوسخ أو بالخمر ويتراجمون في وجوههم بالبيض ويتصافعون على رقابهم ويتراجمون بعمائمهم».

---

[1] طبع Macnaghten ـــ المجلد ١ ـــ صفحة ٣٦٥.

[2] Arab Proverbs N. 398 المثل عدد ٣٩٨.

[3] صفحة ٩٩.

[4] صفحة ١٦ و١٧.

وكان الدراويش يلبسون أيضاً الطرطور ويضعون عليه عمامة وذكر المستر لين بول[1] أن الدراويش يلبسون طربوشاً طويلاً يضعون عليه عمامة مختلفة الألوان.

وكان المسلمون يضعون فوق عمامتهم طيلساناً. جاء في تاريخ مصر[2] لابن إياس: «فلما وقعت عينه على الملك الظاهر برقوق جرى وقبل يده وقال له أنت أستاذنا كلنا ونحن مماليكك قاطبة ثم إن برقوق قام ولبس عمامته ولف عليها طيلساناً كبيراً».

أما في إسبانيا فكان المسلمون كبيرهم وصغيرهم يلبسون الطيلسان على أكتافهم ولم يؤذن بوضعه على الرأس إلا لكبار القضاة[3].

وحدثت أزمة مالية شديدة في الدولة الجركسية في مصر فنزعوا عنهم العمائم ولبسوا الطاقية دون عمامة وإليك ما جاء في وصف مصر للمقريزي[4]: «وقد كثر لبس رجال الدولة من الأمراء والمماليك والأجناد ومن يتشبه بهم للطواقي في الدولة الجركسية وصاروا يلبسون الطاقية على رؤوسهم بغير عمامة ويمرون كذلك في الشوارع والأسواق والجوامع والمواكب ولا يرون بذلك بأساً بعد ما كان نزع العمامة عن الرأس عاراً وفضيحة».

وكان العرب الأقدمون يتباهون بلبس العمامة فإن سعيد بن العاص بن أمية كان يمتاز عن غيره بلبس عمامته الجميلة[5] وكان النبي الكريم (ص) يلبس عمامة كان يعرف بها من بين خلق غفير تدعى السحاب وقد وهبها قبل وفاته إلى صهره الإمام علي (رضه)[6] وقد قيل إن ابن جبير[7] وصف عمامة ملمحاً إلى عمامة النبي (ص) قال: «عمامة شرب رقيق سحابي اللون قد علا كعبتها على رأسه كأنها سحابة مركومة وهي مصفحة بالذهب».

---

[1] المجلد الأول ــ صفحة ٣٦٩ Modern Egyptian.

[2] صفحة ٤١.

[3] ابن سعيد صفحة ١٤٨.

[4] المجلد الثاني ــ صفحة ٣٥٨.

[5] Medani Proverbia Arabica ــ المجلد الأول ــ صفحة ٣٣٣.

[6] عيون الأخبار صفحة ١٣٩.

[7] رحلته ــ صفحة ٨٣.

أما في إسبانيا وفي المغرب فكانوا يلبسون نادراً العمامة وعلى كلٍ فلم تكن معروفة في الجيش بادئ الأمر. يدلنا على ذلك النويري[1] «ثم عزم على الغزاة وتقدم إليه هشام وطلب إليه أن يتعمم هو وسائر الجند ففعل وعقد ألويته وخرجوا في العمائم وكانوا بها على أقبح زي لمخالفة العادة». وغلب على القضاة في الأندلس أن يضعوا العمامة على رؤوسهم إلا أنها كانت أكثر ضخامة من العمامة التي كان يلبسها أفراد الشعب ويتفاخر المسلمون بلبسها لا سيما العلماء.

وجرى البعض على ترك ذؤابة من العمامة تتدلى وراء الأذن وفوق الرقبة وليست العادة مبتكرة بل قديمة جداً فقد كثر استعمالها في الأزمنة الغابرة حتى ذهبت مثلاً «كل ميَّال عمامة» وفي بغداد كانوا يرخون ذؤابتين لا واحدة وكانت تدعى بغدادية.

أما الأشراف وأحفاد النبي (ص) فإنهم يلبسون في عصرنا هذا عمامة خضراء وكانوا فيما مضى يربطون قطعة من قماش أخضر إلى العمامة وذلك بأمر من الملك الأشرف شعبان سلطان مصر وسورية عام ٧٧٣هـ. بيد أن أشراف مكة المكرمة الذين تولوا إمارتها يلبسون طاقية من الحرير الملوّن المقطع قطعاً صغيرة وفوقها عمامة بيضاء تتدلى منها ذؤابة دقيقة تنتهي بشرابة صغيرة دقيقة بيضاء.

وكثيراً ما يستعمل المتعممون عمامتهم كالجيبة فيضعون بين طياتها أشياء دقيقة. ذكر ابن إياس[2] في كتابه تاريخ مصر النبذة التالية: «تغير خاطر السلطان على القاضي عبد الباسط ونقله إلى المكان الذي كان بالحوش إلى برج من أبراج القلعة فلما استقر به دخل عليه الوالي وقال له إن السلطان رسم بترع ثيابك. فعراه من ثياب بدنه حتى أخذ عمامته من على رأسه وتركه وهو عريان ودخل بأثوابه بين يدي السلطان. وكان قد وشي به عند السلطان أن معه شيئاً من السحر. فلما فتشوا عمامته وجدوا قطعة من أدم ووجدوا أوراقاً فيها أدعية جليلة وخواتم فضية لا غير فبعث السلطان يسأله عن تلك القطعة الأدم ما هي؟ فقال هذه من نعل النبي (ص) فباسها السلطان ووضعها على عينيه وأعاد إليه ثيابه ونقله إلى المكان الذي كان به أولاً». وجاء في كتاب ألف ليلة وليلة[3]: «فأخذ الكتاب نور الدين وباسه وحطه في عمامته».

---

(1) صفحة ٤٧٤.

(2) صفحة ٤٢٩.

(3) طبع Macnaghten ـــ المجلد ١ ـــ صفحة ٣١٣.

وكانوا أحياناً يضعون كيس الدراهم في عمامتهم، لذا كان قطاعو الطرق في الشرق يعمدون أولاً إلى الاستيلاء على عمامة الذين يجدونهم في طريقهم. وكانت تستعمل العمامة في أمور عديدة:

أولاً: لشد وثائق الأسير ــ جاء في كتاب ألف ليلة وليلة[1]: «اهدموه وكتفوه بعمامته وجروه على الرغم منه إلي من غير أذية حصلت له» وآخر من استعملت العمامة لشد الوثاق في الثورة السورية فإن الثوار لما اعتقلوا الشيخ أبا الخير أفندي الفراء شدوا وثاقه بعمامته وربطوه إلى شجرة.

ثانياً: لربط المتعمم نفسه بشيء من الأشياء سواء للوقاية من السقوط أو لسبب آخر. جاء في رحلة ابن بطوطة[2] «فكنت أشد نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف».

ثالثاً: لخنق الإنسان نفسه أو لخنق آخرين. ذكر ابن بطوطة[3] قال: «فدخل إلى بيته وربط عمامته بسقف البيت وأراد أن يخنق نفسه» وجاء في القرطاس[4] «فجعلوا عمامته في عنقه وشنقوه بها».

أما الهنود فكانوا يستعملونها أحياناً للدلالة على التضحية. جاء في رحلة ابن بطوطة[5]: «وجعلوا العمائم في أعناق خيلهم وهي عادة أهل الهند إذا أرادوا الموت أو الانتصار في معاركهم».

ولم يروِ التاريخ أن النساءَ لبسن العمائم لذلك كانوا إذا دفنوا رجلاً جعلوا فوق قبره هيئة عمامة على عمود ليميزوا هذا القبر عن غيره من قبور النساء.

ولم ينفرد المسلمون وحدهم بوضع العمامة بل وضعها المسيحيون أيضاً حتى أوائل القرن التاسع عشر للميلاد ولا يزال بعضهم يلبسها إلى يومنا هذا لكنهم يجعلونها من اللون الأسود عوضاً عن اللون الأبيض لأن فريقاً من الأمراء الشهابيين القاطنين

---

(1) مجلد ١ ــ صفحة ١٩٠.

(2) نسخة غيانغوس ــ صفحة ٤.

(3) صفحة ١٥٧.

(4) صفحة ٩٩.

(5) صفحة ١٥٧.

لبنان كانوا تنصروا قبل تولي الأمير بشير الشهابي الكبير وبقي الفريق الأعظم منهم متمسكاً بالدين الإسلامي. بيد أن البيئة ومساعي بعض أصحاب النفوذ أثرتا في معتقدهم فاعتنق المسيحية أكثرهم آحاداً وأفواجاً. ولما فتح إبراهيم باشا المصري سورية ولبنان بمساعدة الأمير بشير الشهابي الكبير أجبر المسلمين والدروز على الخدمة العسكرية دون المسيحيين فطلب الأمراء الشهابيون إلى الأمير بشير إعلان مسيحيتهم. فحادث الأمير بشير إبراهيم باشا في الأمر فلم يمانع ولكنه اشترط عليهم أن ينزعوا العمامة البيضاء لأنها شعار المسلمين. وبما أنهم كانوا قد اعتادوا وضع العمامة على رؤوسهم تقرر أن يستعيضوا عن العمامة البيضاء بعمامة سوداء واقتدى بهم قسم كبير من المسيحيين. ولهذا كان الأمير بشير يضع عمامة سوداء. وهكذا قل عن الشيخ ناصيف اليازجي وغيره من كبار رجالات لبنان. ولا يزال بعض الطاعنين في السن في الجبل إلى يومنا هذا يعتمّون بالعمامة السوداء. ويعتم بعض المسيحيين القاطنين القرى الإسلامية بعمامة مزركشة مقصبة. وقد شاهدنا ذلك أثناء سياحاتنا.

ووضع العمامة أيضاً المسيحيون الأوروبيون الذين اعتنقوا الديانة الإسلامية لا سيما الإنكليز منهم والألمان وحجوا إلى بيت الله الحرام. أذكر منهم الرحالة السويسري الألماني الجنس بور كهارت فإنه درس العربية في لندن وكمبرج ثم سافر إلى حلب وبقي فيها سنتين وهناك ادعى أنه هندي مسلم وذهب إلى مكة المكرمة ثم عاد إلى مصر وسار على النيل إلى دنقلة. وله كتب عن سورية وشبه جزيرة العرب. وهو أول أوروبي بلغ مكة ودخلها ووصف الحج الإسلامي وخلع عنه الثياب الأوروبية ولبس الزي العربي وكان يطلق على نفسه اسم «الشيخ إبراهيم» وقد توفي في القاهرة ودفن قريباً من باب النصر وكتب على قبره: «هو الباقي، هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعالى الشيخ الحاج إبراهيم المهدي بن عبد الله بوركهارت اللوزاني» وقد لبس العمامة والعباءة وأرسل لحيته. ولنابليون صورة عظيمة مشهورة وعلى رأسه العمامة.

نور الدين بيهم

المصدر: مجلة الكشاف ــ بيروت ــ السنة الأولى ــ العدد ٨ ــ ١٩٢٧.

٢٩. لباس الرأس
وتطوره في الشرق الأدنى

الهلال

قفز مصطفى كمال نحو الغرب قفزة كبيرة حين نزع من رأسه «القلبق» ووضع مكانه القبعة الأوروبية. وقد دهش لذلك قراء الصحف في الشرق العربي وهم بين مادح وقادح. وقد قال مصطفى كمال تبريراً لعمله أنه يرغب في أن تدخل تركيا في زمرة المتمدنين تلبسُ لباسهم وتعتاد عاداتهم فيجب عليها أن تنزع عن رأسها الطربوش هذا الأثر الشرقي الذي يذكرها على الدوام بأنها شرقية.

ولم يشذ مصطفى كمال في عنايته بتغيير اللباس عن كثير من المصلحين الذين تقدموه لأن التاريخ لا يكاد يعرف مصلحاً أهمل اللباس. والسبب في ذلك أن للباس تأثيراً في عقلية من يلبسه ومزاجه وخلقه. وكلنا يعرف ذلك ويراه بعينيه كل يوم فللملوك لباس خاص يختلفون به عن سائر أفراد الأمة. وكذلك الحال في الكهنة والجنود. فلو لم يكن للباس تأثير لما تكلفت هذه الطبقات مشقة تميزها من غيرها بزي خاص.

وقد قلنا إن معظم المصلحين وأرباب الدول قد غيروا لباس الأمة. فعل ذلك المنصور في الدولة العباسية وبطرس الأكبر في روسيا وإسماعيل باشا في مصر وزعيم طائفة البوريتان في إنجلترا. والمقام لا يتسع لشرح تطورات اللباس ولكننا نرى من المناسب لحركة مصطفى كمال الأخيرة أن نلم بشيء من تطور العمرة أي لباس الرأس.

فالإنسان في بداية حضارته لم يكن يضع شيئاً على رأسه. ولم يكن قص الشعر وتغطيته إلا من قبيل التحلي والتزين لا يقدر عليها سوى الأغنياء والأشراف. أما الفقراء فلم يكونوا يضعون شيئاً فإذا أصابهم حرّ الشمس وضعوا جزءاً من شملتهم فوق رؤوسهم. وبعض أهالي المغرب الأقصى يفعلون نحو هذا الآن.

وأول ما عرف من ملابس الرأس هو القلنسوة وهي إناء من لبد أو قماش يجوف حتى ينطبق على الرأس. وكان العرب يتعممون عليه. والقول المأثور: «العمائم تيجان العرب» يدل على شرف العمامة وأنها كانت عمرة الأشراف. وكانت الدولة الأموية شديدة الإحساس بالعصبية العربية فكانت العمامة هي اللباس الشائع في عصرها. فلما جاءت الدولة العباسية وكان الفرس يؤيدونها اتخذ رجالها اللباس الفارسي ومنه قلنسوة

طويلة تدعم بعيدان من الداخل حتى تبقى قائمة فوق الرأس. وقد حتم المنصور في سنة ١٥٣ هجرية تعميم هذا الزي ولكن رجال الدين أبوا أن يجاروه فبقوا محتفظين بعمائمهم.

ولعله مما يفيد القارئ أن نذكر له هنا ما كان يلبسه الأندلسيون. فقد جاء في نفح الطيب في صفحة /١٠٥/ قوله: «وأما زي أهل الأندلس فالغالب عليه ترك العمائم لا سيما في شرق الأندلس. فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيها قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلا وهو بعمامة. وقد تسامحوا بشرقها في ذلك. ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية في حضرة السلطان في ذلك الأوان وإليه الإشارة وقد خطب له بالملك في تلك الجهة وهو حاسر الرأس وشيبه قد غلب على سواد شعره. وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة في شرق منها أو في غرب. وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيته في جميع أحواله في بلاد الأندلس وهو دون عمامة. وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الأندلس الآن في يده. وكثيراً ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم...».

فيرى القارئ من ذلك أن مسلمي الأندلس ما عدا بعض رجال الدين في غربها كانوا لا يبالون ما يلبسون فوق رؤوسهم. وكذلك كان الحال في مصر في عهد المماليك. قال المقريزي: «كان من الرسم في الدولة التركية أن السلطان والأمراء وسائر العساكر إنما يلبسون على رؤوسهم كلوتة صفراء مضربة تضريباً عريضاً ولها كلاليب بغير عمامة فوقها. وتكون شعورهم مضفورة مدلاة بدبوقة وهي في لبس حرير إما أحمر وإما أصفر» إلى أن قال: «فلم يزل هذا زيهم منذ استولوا بديار مصر على الملك من سنة ثمان وأربعين وستمائة إلى أن قام في المملكة الملك المنصور قلاوون فغير هذا الزي بأحسن منه...».

ولم يظهر الطربوش (وأصل اسمه سربوش) إلا في القرن السابع عشر وكان قلنسوة طويلة ضخمة يشبه التاج مثلث الشكل بلا عمامة حوله يلبسه الأمراء والوزراء. ولما أباد السلطان محمود الثاني الجند الإنكشارية ونظم جنداً جديداً جعل الطربوش عمرة الرأس. فاقتدى به محمد علي في مصر وأمر الجند باتخاذ الطربوش أسوة بالأتراك. وكان مضلع الشكل له ثلاثة ضلوع أو ضلعان إثر طياته وكان زره مغربياً يشبه طرابيش العرب النازلين في غرب مصر. ثم أخذ الطربوش طول القرن الماضي يتطور إلى أن وصل إلى حالته الحاضرة. ولم يكن تطوره في ناحية المصلحة الصحية بل اتجه نحو التأنق في الزي. ولذلك فأهم نقص فيه الآن يرجع إلى عدم فائدته للصحة إذ

هو لا يظل الرأس ولا يحميه من المطر. والطربوش يختلف عن القبعة من حيث أنـــه لم يعم استعماله للآن فإننا لو فرضنا مثلاً أن عدد سكان مصر /١٤/ مليوناً فإن لابســـي الطربوش لا يزيدون عن مليون. وهذا بخلاف القبعة فإن جميع الأوروبيين يلبسونها ولعل السبب في ذلك غلاء ثمن الطربوش.

وقد يتساءل الإنسان: لَمَ لم يضع العرب أو الترك رفرفاً للطربوش أو القلنســـوة حتى يقي الوجه من الشمس؟ والجواب على ذلك أن المسلم لا يترع عمرتـــه وقـــت الصلاة ومن تقاليد هذه الصلاة أن يسجد ويجعل جبهته تلامس الأرض. فـــإذا كـــان للطربوش رفرف فإنه لا يمكنه أن يؤدي صلاته ما لم يترعه. ولكنا لا نظن أن الأتـــراك سيهملون الصلاة لاصطناعهم القبعة فلا بد أن يجدوا حلاً لذلك.

وربما كان أكبر ما هوّن على الأتراك إبدال الطربوش تلك الحرب الكبرى الـــتي أجبرت جنودهم على اتخاذ الخوذات من النحاس وأشكال أخرى من لباس الرأس توافق الحرب. فإن الجندي الذي يعيش السنوات الطويلة وليس عنده طربوش لا يغار عليـــه كما نغار نحن عليه الآن.

الهلال

المصدر: مجلة الهلال ــ س٣٤ ــ ع١ ــ أكتوبر ــ ١٩٢٧.

٣١. القبعة والبهلوية والعراقية والطربوش

مجلة الناقد

كيف قرر الغازي لبس القبعة. شاه إيران يحذو حذوه. لم يبق سوى مصر وسورية

القبعة في تركيا

أول مشهد رأيته في تركيا: ثلاثة رجال ينتظرون القطار في محطة مغمورة بالثلوج وعلى رؤوسهم ثلاث قبعات مختلفة الأنواع.

رأيت هذا المشهد وأنا قادم من سوريا — بلاد الطربوش — فسرني رؤية لباس الرأس الأوروبي منتشراً في بلاد شرقية!

لقد قال الغازي إن ثياب الشعوب المتمدنة الدولية تلاءم شعب تركيا. وأن على الأتراك أن يرتدوا الثياب الأوروبية وأن يلبسوا القبعات المختلفة. وقال أن من لا يفعل هذا يعد أحمق وجاهلاً! وفرض لبسها تحت عقاب وشدة في التنفيذ وكان لهذه التدابير أثرها الأكبر في تاريخ تركيا الحديث.

ولا تمزح تركيا بهذا القول. بل هي شديدة الحرص على تنفيذه. وإذا عنّ لك أن «تمزح» وتسير في الشوارع وعلى رأسك طربوش أحمر... فالشرطة مستعدة لإيقافك وإرسالك إلى السجن! وقد كان الغازي أول من لبس القبعة. وقد ظهر بها أمام الجمهور عام ١٩٢٥ وقال:

— يقول لكم بعض الأشياخ أني ألبس هذه القبعة اقتداء بالإفرنج وأنها شعارهم لا يبيح لنا ديننا لبسه ويصورونها لكم أقبح الصور وهم كاذبون. فإن هذه التي ترونها على رأسي هي قبعة... ولم يجيء نص على تحريم لبسها وليس يعني لبسها خروجاً على الدين.

وعلى كل منكم أن يلبس مثلها!.. فإن لها فوائد لا تنكر!..

وقامت ثورة الشعب من أجل القبعة. فأعدمت الحكومة عدداً كبيراً من المشايخ الأناضوليين دفاعاً عن «قبعة الغازي» وانتهت الثورة برضوخ الشعب التركي ورضائه عن «المظلة»!.

قامت تلك الثورة رغم أن حكومة مصطفى كمال قد صرحت مراراً عدة أن ديانة المرء في صميم قلبه لا في القبعة أو في طربوش يعلو رأسه ولكن المسلمين ما زالوا يعتبرون «الطربوش» اعتباراً خاصاً يقولون أن له قيمة رمزية لأنه يميز بين الكفرة والمسلمين!.

ولأن الطربوش من جهة أخرى لا يعيق المسلمين عن السجود على الأرض في الصلاة بينما أطراف القبعة تعوقهم عن ذلك... هذا إذا سمح لهم بالدخول فيها إلى المساجد!

ونجح الغازي بتنفيذ أغراضه وكانت قطارات خاصة تحمل أنواع القبعات كل يوم من بورسالينو وميلان وهايبيج وفيينا إلى تركيا وهي اليوم شعار التركي يلبسها برأسه مثل ما يلبسها الأوروبي تماماً.

البهلوية في إيران

ورأى رضا شاه بهلوي شاه العجم الحالي، زميله مصطفى كمال باشا يبدأ بنفسه فيرتدي القبعة ويرغم الشعب على السير على غراره. فأعلن الحرب على الثياب التقليدية القديمة وقرر تعميم الثياب الأوروبية في البلاد. ثم رأى أن يفعل ما فعله الغازي فلبس قبعة غريبة الشكل تشبه قبعات الجنود الأوروبيين وظهر أمام الشعب في حفلة كبرى وقال نفس ما قاله الغازي. وقد سميت تلك القبعة «قبعة البهلوي» كما سميت قبعة مصطفى كمال «قبعة الغازي».

وأعلن رضا شاه ــ وهو يعرف الفرق بين الشعبين التركي والفارسي ــ أن لبس هذه القبعة إجباري في الجيش... ثم عاد عام ١٩٢٩ فأعلن أن لبسها إجباري للشعب الإيراني!..

وليس في وسع أحد اليوم الخروج بلباس للرأس غير قبعة البهلوي إلا إذا شاء زيارة السجن. ودفع الغرامات. وتحمل الجلد.

وأراد الشاه أن يكون لباس الرأس موحداً في جميع البلاد الفارسية فأصدر قراراً بأن يلبس جميع رعاياه نفس القبعة وأن لا تبدل بنوع آخر.

وخالف رضا شاه الغازي فاستثنى المجتهدين من لبس القبعة وسمح لهم بالإبقاء على عمائمهم وثيابهم القديمة... أما المشايخ الاعتاديين فقد أرغموا على لبسها!.

وقد اصطدمت إصلاحات الشاه بما اصطدمت به إصلاحات الغازي في تركيا. فقاوم المظاهرات وحارب المشايخ المعترضين أشد حرب!.

وقد نمي إلى الشاه أن أحد المشايخ يخطب ضد القبعة في مسجد كوم فاستقل سيارته ودخل المسجد بقبعته وحذائه وأمسك بلحية الخطيب وأمر بجلده أمام الجمهور.

وهكذا نجح الشاه كما نجح الغازي في إرغام شعبه على لبس قبعته!.

لباس الرأس في العراق

ورأى الملك فيصل الغازي والشاه يلبسان القبعة ويرغمان الشعب على لبسها. فاختار قلنسوة «الشرطة» ولبسها هو قبل الجميع كما فعل الغازي والشاه. وتبعه الناس في لبسها.

على أن لبس هذه القلنسوة ــ التي لم يجد الملك فيصل أفضل منها ــ لم يكن إجبارياً في العراق. كما أن لون القلنسوة اختياري. وإنك لترى الحمراء منها والزرقاء.

والعادة أن يضع الرجال الرزينون هذه القلنسوة ــ ويدعوها البعض «عراقية» ــ في وسط رؤوسهم. أما الشباب فيميلونها على إحدى أذنيهم ويتركون الشعر يظهر من الطرف الآخر!.

وعندما يرى الإنسان هذه «العرقية» يحسب أن الملك قد ابتكرها ليعرض وجوه الشعب إلى الشمس... شمس العراق المحرقة!.

وهكذا أصبح الشرقيون ــ يتميزون عن بعضهم بألبسة الرأس. فإنك ترى التركي بقبعته الأوروبية. والفارسي بقبعته البهلوية. والعراقي بعراقيته الفيصلية!.

أما السوريون والمصريون فما زالوا يلبسون طرابيشهم الحمراء. فأي نوع من أنواع القبعات يستخيره مصلح جديد؟

الناقد

المصدر: مجلة الناقد ــ دمشق ــ السنة الأولى

ــ العدد ١٣ ــ تموز ــ ١٩٣٠

٣١. لباس الرأس

علي الطنطاوي

بدء المشروع وخلاصته . العقال والطلاب آراء عظماء مصر وكتابها

وبعد فهذه صورتي بعقالي أبعث إليكم بها وما لي — علم الله — في نشرها رغبة لولا طلبكم إلي ذلك وكنت أود أن أتريث حتى تتم الصورة التي أخذناها لخمسين من إخواننا الطلاب التجهيزيين ذوي العقالات... ولكني سأرسلها في العدد القادم.

ربما يعجب منا من يرى الصورة كيف عمدنا إلى العقال فاتخذناه لنا زياً وهو صعب وثقيل وما لا أدري؟.. وينكر علينا ذلك في حين أننا اصطنعنا العقال مضطرين وإليك يا سيدي البيان:

كنا نشعر كما كان يشعر غيرنا بأن هذا الطربوش ليس له أية ميزة من حيث الصحة أو الجمال، وأنه يحتاج إلى مصروف كبير يشعر به من كان له أولاد — في ثمنه وكيه وتقشيشه وقيمة طرته وما إلى ذلك، مما يبلغ في سورية أكثر من مئتي ألف ليرة في العام نقذف بها كل سنة إلى بلاد الغرب... وهذا هو الجنون بعينه — كما قال مولاي شوكت علي — لا السير في الأسواق بلا ثياب!

ولكنا مع هذا كله كنا نصبر على الطربوش ونرضى به إذ قد أصبح كأنه شعار لنا وأصبحنا نشعر بصعوبة إبداله بغيره، حتى كان ما رأينا من انتشار القبعات (البرانيط) في المصايف وغير المصايف، وانتشار هذا النوع منها الذي يسمى (البره) بين أطفالنا ويجب أن لا ننسى أن هذه القبعة ليست لنا بشعار، ولا هي مما يتناسب مع قوميتنا وإرادتنا حفظ كياننا ولا أدري كيف يضعها على رأسه من يأبى أن يحمل علم الأمة الأجنبية حمل المعظم المحترم وما هذه إلا كتلك!

رأينا كل ذاك؛ واتفق أن مر بديارنا الزعيم المسلم الكبير مولاي شوكت علي فنبهنا في خطبه وأحاديثه إلى وجوب انصرافنا عن التأنث والرقة إلى الرجولة والقوة وأن ندع ترجيل شعورنا وصبغ وجوهنا وحلق شواربنا وأن ندع التجمل للنساء ونفكر في المسائل الجدية النافعة.

وقد كان الطربوش أول ما فكرنا بتغييره لا لأنه فاسد في ذاته بل لأنه — وهذا ما أرد به على أنصار الطربوش — لا يمنع انتشار القبعة وذيوعها بيننا... نعم أنا أعلم جيداً

أن حجتهم في أن الطربوش لا يمنع الشمس حجة زائفة لأهم قد تركوا الطربوش مرة واحدة وخرطوا للطرقات مكشوفي الرؤوس!! وأنا أعلم أن بعضاً من شبابنا إنما يقلدون الغربي تقليداً أعمى بلا بصيرة ولا تعقل... ولكني لم أر بداً من السعي في إثارة قضية الطربوش من جديد!

وعرضت لنا مسألة بماذا نستبدل الطربوش؟ هذا ما كان يصعب البت فيه وقد بدأت بنشر نداء وطبعت منه كمية كبيرة وزعت في المدينة كلها ثم نشرت في القبس الأغر استفتاء في هذا الموضوع ولبثت انتظر الجواب دون أن ابدأ بشيء... غير أني فوجئت بأناس يسعون سعياً حثيثاً وفيهم الكبار والوجهاء لاتخاذ القبعة شعاراً لنا فسددنا عليهم الطريق باتخاذ العقال...

ولا أجد بداً من أن أسمي فيمن كان له فضل شيوع العقال وانتشاره. أول من خرج به إلى الناس ولبسه السيد مسلم البارودي الطالب في المعهد الطبي وتتالى لبسه في المعهد أما في التجهيز فقد ذهب به في اليوم الأول طالبان فقط هما السيدان محمود الرفاعي وناجي الطنطاوي فكان في المدرسة في اليوم التالي تماماً /٤٢/ عقالاً... أما المدارس الابتدائية فقد بدأ بالانتشار فيها لولا أن مدير البحصة منعه وطرد من جاء به ولا ندري أي قانون يخوله هذا... وتجرأ مدير التطبيقات على إلقائه على الأرض وهو شعار الجزيرة العربية وفيه معنى أربعة عشر قرناً..!!

ولا ندري كيف يدع طلابه يلبسون القبعة (البره) ويمنعهم من لبس العقال؟! وسننظر في أمر هذا المنع ونرى الطريق إلى إزالته.

نحن لا نتعصب للعقال ولا نصر عليه ونعترف بأن فيه — لمن لم يتعود عليه — بعض الصعوبة ونحن مستعدون لاتخاذ الزي الذي تتفق عليه الأمة إلا البرنيطة أو ما يشبهها فإنا لن نلبسها أبداً ولن تصبح شعاراً لنا أبداً؟.. أقول هذا وأنا أدري ما أقول!! وقد وجهت استفتاء إلى كل من يرى في نفسه الكفاءة للجواب عليه من الوجهاء وذوي المكانة وهذا نصه:

١— هل الطربوش صالح أم لا؟

٢— إن كان صالحاً فكيف نجعله شعاراً لنا ونمنع انتشار القبعة؟

٣— وإن لا... فنستبدل به ماذا؟..

وأظن سيدي الأستاذ يذكر أجوبة كبار القوم في مصر يوم أثيرت قضية القبعة من سنوات وكيف أن مصر رفضتها على لسان أعاظم زعمائها وكبار كتابها ومنهم سعد باشا زغلول (عظيم الشرق وفقيده) قال:

«وما مثل الذين يبدلون شعارهم بشعار غيرهم إلا كمثل الذين يتبرأون من أنسابهم وينتسبون إلى غيرهم واهمين أنهم يكسبون شرفاً بهذا الانتساب ولكنهم لا يكسبون إلا غضب الآباء وإلا أن يترلوا إلي غيرهم مترلة الأدعياء».

ومنهم صاحب المقتطف شيخ المجلات العربية قال:

«إذا نظرنا إلى الطربوش وإلى البرنيطة من الوجهة الاقتصادية والصحية فالمرجع عندنا أن الطربوش يفضل البرنيطة ولعل العقال أصلح منها ومنه».

وقال الشيخ ناصيف اليازجي:

«علم الله أني لو لم أجد في الأسواق عمامة لتعممت بالبساط».

وقال الأستاذ توفيق دياب:

«والطلاب الأفندية حين يريدون أن يستبدلوا القبعة بالطربوش ليس الحر ولا البرد لعمرك كلا وأية وجهة بدنية أخرى هي التي تزهد الطلاب بالطربوش».

وقال الأستاذ العقاد:

«ومن سقوط الهمة أن يتوارى الإنسان وراء القبعة خجلاً من جنسه أو تهافتاً على لذة عارضة ومن الجبن — لا من الجرأة على الجمود — أن يختلس مظهر قوم لا يحسبونه كأحدهم ولا يترلونه بينهم مترلتهم وأن لبس ما يلبسونه وتكلم بما يتكلمون».

وقال الشيخ محمد باجيد يكذب من يزعم أن ما يلبسه اليمانيون هو البرنيطة أنها مظلة عرضها نحو ذراع من خوص النخل على أس مستدير مع استطالة ودقة شديدة يستعملها الفعلة والرعاة لتقيهم وهج الشمس في الظهر وتسمى بالمظلة وهي ليست من جنس اللبان في شيء وليس لها اسم من أسمائه.

والذي يهمني في هذا المقال كلمة الدكتور محجوب ثابت التي أدلى بها في حديث له مع محرر الزهراء المصرية حين اشتدت أزمة القبعة في مصر والدكتور معروف في مصر والشام، وذو مكانة سامية فيها لأنه عضو بجامعة بروكسل الدولية، وكان مدرساً للبكترلوجيا بمدرسة الطب المصرية وأستاذاً للطب الشرعي في الجامعة... قال الأستاذ الدكتور:

«إن لباس الرأس هو العقال فليعدل إليه شبابنا إذا كانوا نابذين الطربوش لا محالة والعقال كان لباس مملكة اليمن السبأية كما دلت عليه التماثيل التي وجدت حتى الآن في جنوب الجزيرة وفي أعماق بلاد اليمن.

وكان لباس الرأس عند قدماء المصريين شبيهاً به وكذلك الحال في شمال الجزيرة العربية ولولا أن له حظاً من الجمال والهيبة والحشمة لما رأينا بعض الإفرنج في سوريا وفلسطين يتزينون به هم وصغارهم مع أنهم قادمون من بلاد عريقة في التبرنط، وقد راقني

منظر مفتش الزراعة الإنكليزي يوم رأيته أثناء تطوافي بنابلس والعقال على رأسه والعباءة مسدولة على بذلته أما غير المسلمين من الوطنيين في تلك الديار فحدث عن عقالاتهم ولا حرج وكل الذين اجتمعنا بهم من مسيحيي شرق الأردن رأيناهم تتوج رؤوسهم هاتيك العقالات ما بين مفضض ومذهب ومسود وكان ذلك زيهم حتى في الكنيسة...

إلى أن قال... إن تيجاناً كهذه تزين مثل هذه الرؤوس لا أرى مسوغاً لتقويضها وتنكيسها ولا الاستعاضة عنها بتلكم القبعات عديمة الطعم الاسطيطيقي (الجمالي) حاجبة شمس الزوراء والبهاء».

وقال في خطبة له في نادي الرابطة الشرقية:

إن الكوفية من أجمل ما تزدان به رؤوس الشرقيين فضلاً عن فائدتها الصحية في الحر والقر...

والخلاصة يا سيدي الأستاذ أننا أثرنا قضية الطربوش واصطنعنا العقال خوفاً من تسرب القبعة إلينا وقد لاقى عملنا من التشجيع فوق ما كنا ننتظر ولقد درنا منذ أسبوع في شوارع دمشق ومعنا من طلاب التجهيز فقط عدا عن المدارس الابتدائية ستون عقالاً... أما منع بعض المديرين له فقد راجعنا من أجله وزير الأوقاف فأبدى استياءه منه ووعدنا بإزالته...

محمد علي الطنطاوي

المصدر: مجلة الناقد ــ دمشق ــ السنة الأولى ــ العدد ٢٥ ــ ١٩٣١.

٣٢. صناعة الطرابيش والقّبعات

الهلال

اتجهت النية إلى إنشاء مصنع للطرابيش بالمبلغ الذي جمع لمشروع القرش وهي فكرة جليلة من جميع الوجوه فإنه إذا وجب أن تكون ملابس الإنسان من صنع بلاده فالواجب أن يكون غطاء الرأس كذلك قبل سواه.

وقد جربت صناعة الطرابيش في مصر منذ أنشأ حضرة صاحب السعادة إسماعيل عاصم باشا مصنعه في قها ونجح نجاحاً باهراً حتى خافت المصانع النمسوية أن يزاحمها ويغلبها على السوق المصرية، ولذا سعت سعياً حثيثاً حتى اشترته ثم عطلته. وما أجمل أن يكون الطربوش المصري من صنع أيد مصرية في مصنع أقامته قروش جادت بها الأمة على مختلف طبقاتها!

ولسنا ندخل هنا إلى تفاصيل تاريخ غطاء الرأس ولكنا نقول إجمالاً لهذه المناسبة أن عادة تغطية الرأس هي عادة قديمة. فاليونان القدماء مثلاً كانوا يغطون رؤوسهم بالقبعات والقلانس حين يكونون بالعراء ويمكثون به مدة طويلة. وكانت أغطية رؤوسهم لا تتعدى أشكالاً ثلاثة ويصنعونها من الجلد. كذلك قدماء المصريين كانوا يلبسون قلانس ذات شكل خاص يُرى على تماثيلهم ونقوشهم.

وقد تطور غطاء الرأس مع الزمن حتى اختلف باختلاف الذوق والمزاج والمناخ لدى كل أمة ونشأت منه أزياء خاصة للقبعات. فمثلاً شاع في عهد فريدريك الأكبر نوع من القبعات مثلث الشكل ثم ذاع زي القبعات المعروف في عهد نابليون بونابرت. وتعددت ضروب الحياة المدنية فصار للأيام المعتادة قبعة خاصة وللحفلات الرسمية قبعة أخرى وللسفر غيرها وهكذا. وفي الوقت نفسه توجد أشكال من القبعات اتخذت صبغة قومية، فهناك مثلاً «قبعة التيرول» التي يلبسها أهالي تلك المنطقة ولا يماثلهم فيها سواهم وكذلك قبعة البافاريين وغيرها.

أما في مصر فقد كانت العمامة هي الشائعة منذ بضعة قرون ولكن انتشر لبس الطرابيش انتشاراً كبيراً بين سكان المدن بينما سكان الأرياف لا يزالون يلبسون اللباد أو العمامة. وقد قامت منذ بضع سنوات حركة ترمي إلى اتخاذ القبعة بدلاً من الطربوش أسوة بما فعلته تركيا، وقيلت في تأييد هذا الرأي حجج كثيرة ورد أنصار الطربوش

بحجج أخرى ثم صدر بيان من زعيم مصر المغفور له سعد زغلول باشا يؤيد فيه الإبقاء على الطربوش فكان فيه القول الفصل وحبطت حركة القبعة بعد ذلك.

ويقول بعض المعترضين على مشروع مصنع الطرابيش أنه لا يبعد أن تقوم حركة القبعة من جديد، ولكن لو فرضنا ذلك فإنه يكون من اليسير قلب مصنع الطرابيش مصنعاً للقبعات خصوصاً أن المادة الخام التي يصنع منها الطربوش هي نفس مادة القبعة.

الهلال

المصدر: مجلة الهلال ــ السنة /٤/ ــ ج/٩/ ــ يوليو ــ ١٩٣٢.

٣٣. لماذا لا نتخذ القبعة؟

المجلة الجديدة

نزع الأتراك الطربوش واتخذوا القبعة الأوروبية. وكذلك نزع الإيرانيون عمرتهم واتخذوا القبعة. ولم يقل واحد منهم أن القبعة تزيل عن رؤوسهم شعارهم القومي أو تنقص وطنيتهم. ولكن هذا الكلام يقال في مصر ويطلب منا أن نلبس الطربوش وهو أسوأ عمرة في العالم لا يحمي الرأس من مطر الشتاء أو شمس الصيف.

وليست القبعة شعاراً وطنياً لأي أمة. لأن اليابانيين مثل الإنجليز والفرنسيين والصينيين يلبسونها وإنما هي شعار المتمدنين مثل البنطلون. ولا بد أنه كان بيننا قبل /٦٠/ سنة غربان ينعقون أيام إسماعيل باشا حين خلعنا الجبة والقفطان ولبسنا البنطلون وكانوا يعزون إلى آبائنا قلة الوطنية وضعف القومية حين اتخذوا الملابس الأوروبية.

وكلمة صغيرة للمنطق. لو كان إلغاء الطربوش ينقص الوطنية فكيف كان مقدار النقص في وطننا حين ألغينا الجبة والقفطان؟ وليس إلغاء الأول شيئاً في جانب إلغاء الثانيين.

الحقيقة أن إلغاء الطربوش يقربنا من أوروبا ويترع بنا إلى الحضارة الحديثة. وهذا هو الذي يخشاه الرجعيون الذين يكرهون الديمقراطية ومبادئ الحضارة. وهم يكرهون أوروبا لهذا السبب ولأنها ترقي الفلاحين وترفع من شأن العمال وتبني لهم المنازل وتمنحهم المعاشات أيام شيخوختهم والإعانات أيام عطلهم.

يكره الرجعيون ذلك ويكرهون أي إصلاح اجتماعي. وعندهم أن كل من يدعو إلى هذا الإصلاح شيوعي يجب أن يحرم حتى من الرعوية المصرية. ولكن موجة الحضارة تكتسحهم وقصاراهم أن يعوقوا سيرها ولكنهم لن يستطيعوا ردها. وهذه الموجة ستضع القبعة على رؤوسنا وستكسبنا العقلية الأوروبية التي تجعلنا نهتم لمترل الفلاح أكثر مما نهتم لإنشاء مفوضية في برازيل ونهتم لصحة تلاميذنا أكثر مما نهتم بمنح الوزير مرتباً يبلغ ربع عشر عزب كبيرة.

فلنتخذ القبعة كما اتخذها الأتراك والإيرانيون واليابانيون وليكن لنا منها رمز على أننا نفهم الحضارة الحديثة ونعتنق مبادئها ونسير في موكبها ولا نقف محتجزين منفصلين عنها كأننا لسنا من المتمدنين.

المجلة الجديدة

المصدر: المجلة الجديدة ـ العدد ٨ ـ السنة ٤ ـ ١٩٣٥.

٣٤. الطربوش والقبعة

المجلة الجديدة

هذا الجمود الذي نلتزمه هذا الطربوش الذي نتعلق به بلا عقل كأن كل المقصود منه أن ننفصل عن المتمدنين في القارات الخمس. ونحن نتحدى أي إنسان أن يذكر لنا أمة متمدنة لا تتخذ القبعة الآن؟ حتى اليابان والحبشة قد اتخذتاها.

القبعة تزيل الفاصل الذي يفصلنا من الأجانب المقيمين في مصر وتجعلهم يندغمون فينا. وهم إذا فعلوا ذلك أصبحوا قوة لنا فتلغى الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة بلا عناء. وتسود البلاد روح التطور وتموت الرجعية إلى غير بعث.

القبعة يمكن أن تصنع في مصر بأقل الأثمان من الرز والنخل والدبس والنباتات الأخرى. ويمكن جميع أفراد الأمة أن يلبسوها رجالاً ونساءً وأطفالاً فلاحين وحضريين فيتوحد الزي. بخلاف الطربوش الذي لم يلبسه الفلاح إلى الآن مع أنه مضى أكثر من /١٣٠/ سنة. ولا يرجى أن يلبسه الغلاء ثمنه وعدم فائدته إذ هو لا يقيه من الشمس.

وليس الطربوش عربياً حتى يقال أننا يجب أن نستبقيه لأنه عربي. فإنما هو زي تركي إذ كلنا يعرف أن العمرة العربية هي العمامة أو العقال وقد عرف الأتراك سخافته وتركوه.

المجلة الجديدة

المصدر: المجلة الجديدة ــ العدد ٩ ــ السنة ٤ ــ ١٩٣٥.

٣٥. رسالة...

«للناقد الأزهري»

في أوائل القرن الهجري الحاضر كان يقيم في باريس جماعة من التلاميذ المسلمين الذين نزحوا من بلادهم لأجل العلم والتثقف، وكان يقيم بها أيضاً عالم مسلم من أهل الجزائر اسمه «سليمان بن علي».

توجه هؤلاء التلاميذ المسلمون إلى هذا العالم الجزائري المسلم يسألونه عن حكم لبس قلنسوة النمساوي «البرنيطة» ويذكرون أن أحوال باريس تضطرهم إلى لبسها، لأنهم كلما مروا في شوارع باريس بلباسهم، توقف الناس عن يمين وشمال، وصاروا ينظرون إليهم متعجبين، ولأنهم يريدون أن يمنعوا عيونهم من ضرر البرد القارس في هذه البلاد... الخ.

درس الشيخ هذا السؤال، ووضع في الجواب عنه رسالة مفصلة سماها «أجوبة الحيارى عن حكم قلنسوة النصارى»أباح فيها لبس البرنيطة وأيد رأيه بما وسعه أن يؤيده به على طريقة فقهية سائغة.

أفزع ذلك عالماً كبيراً من علماء الأزهر في ذلك الحين هو المرحوم الشيخ محمد عليش مفتي السادة المالكية فكتب رسالة في الرد على هذا العالم الجزائري تناوله فيها بألوان من الإقذاع والتسفيه، ووصمه بالجهل، والقصور، والتهجم على الشريعة، والخروج على إجماع المسلمين... الخ.

وهذه نصوص من الرسالة «العليشية» نضعها أمام القراء، قال الشيخ بعد الديباجة:

١ــ «أقول: يا أهل الذكاء تعجبوا ممن كان عيبه مستوراً، ففضح نفسه، ونادى به عليها بين الناس وصير عيبه مشهوراً، وبيان ذلك أنه تقرر في شريعة الإسلام أن السفر لأرض العدو للتجارة جُرحة في الشهادة، ومخل بالعدالة، فضلاً عن توطنها وطول الإقامة بها، وهذا الرجل «يقصد الشيخ الجزائري» كان مجهولاً مستوراً فعرف بنفسه بأنه من علماء المسلمين خرج عن حد الشريعة وتمتك، ولم يبال بالجُرحة في شهادته، ولا باختلال عدالته، واختار مساكنة الكافرين في ديارهم، وزهد في مساكنة المسلمين وفسيح بلادهم. فيا لها من فضيحة، وما أفظعها من وقيحة! ولم يشعر بها من شدة حماقته وكثافة جهله، وشدة غباوته...».

٢ــ «يا أهل الذكاء تعجبوا ممن كان عيبه مستوراً فـأبى إى إشـاعته وصـيرورته مشهوراً»[1]، وبيان ذلك أن قوله «أتوا من بلادهم لأجل التعلم» فيـه اعتـراف بالجهل بما يطلب تعلمه وما لا يطلب، وذلك أنه قد تقرر في شريعة المسـلمين أن المطلوب تعلمه من أقسام العلم العلوم الشرعية وآلاتها وهي علوم العربية، وما زاد على ذلك لا يطلب تعلمه، بل ينهى عنه. ومن المعلوم أن النصارى لا يعلمون شيئاً من العلوم الشرعية، ولا من آلاتها بالكلية، وأن غالب علومهم راجع إلى الحياكـة والقبانة والحجامة وهي من أخس الحرف بين المسلمين. وقد تقرر في شريعتهم أنها تخل بالعدالة. وهل كذب الرب جل جلاله في قوله: «ولكـن أكثـر النـاس لا يعلمون. يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» وصـدقت أنت في زعمك يا مفتون؟ فما أقبح حالك! وما أفظع مقالك».

٣ــ «إن قوله: امتداد القلنسوة يمنع عيونهم من ضرر البرد فيه فضيحة عظيمة، ومثقبة وخيمة، إذ لم يلتفت لمنع الامتداد المذكور من السجود للملك المعبود!».

٤ــ «وقد بقيت عليك وعليهم ورطة الإقامة في بلاد الكفار بالاختيار حيث لا جمعة ولا جماعة ولا أذان ولا إقامة ولا شعيرة من شعائر الإسلام، ومحل عبادة الأصـنام والأوثان والصلبان؛ كيف يرضى بذلك من في قلبه إيمان؟ لا سيما وهو معـرض للموت في كل نَفَس وأوان، وقبورهم حفر من النار، فكيف يختار المؤمن دفنه بها؟ فاخلعوا فوراً زي الكافرين، وهاجروا لبلاد المسلمين إن كنتم مؤمنين».

٥ــ «وقوله لم يرد تحريمها لا في الكتاب ولا في السنة ولا في أقوال الأئمة فيه نـداء على نفسه بالجهل والقصور، إذ قد دل الكتاب على تحريمها بقوله: (واسـجدوا)، وبقوله: (خذوا زينتكم عند كل مسجد) وبغير ذلك من الآيات؛ ومعلوم أنها مانعة من السجود، ودلت السنة على ذلك في قوله: «أمرت أن أسـجد علـى سـبعة أعضاء» الحديث؛ وانعقد الإجماع على تحريمها ولا بد من استناده لكتاب أو سنة، وهو معصوم عن الخطأ كما هو معلوم؟ كيف يجوِّز أحد من المسلمين لبسها وهو كفر إجماعاً أو على قول؟!».

---

[1] كرر الشيخ هذه العبارة «يا أهل الذكاء تعجبوا... الخ» أربعاً وعشرين مرة في رسالته التي هي في إحدى عشرة صفحة خطبة من القطع الصغير.

٦ــ «وقوله: إن النبي صلى الله عليه وسلم لبس جبة رومية ضيقة الكمين، فضيحة فاضحة، لأن الجبة المذكورة لم يختص بها الكفار و لم تصر شعاراً لهم... وكيف تتجاسر يا أحمق يا مفتون يا غبي على نسبة لبس ملبوس النصارى الذي صار زياً لهم وعلامة على ذلهم وإهانتهم وكفرهم، إلى أشرف الخلق ومنبع الدين الحق، فأي فضيحة أفضح من هذه الفضيحة، وأي شنيعة أشنع من هذه الشنيعة، يا أعمى البصيرة، ويا خبيث السريرة! شقيت شقاوة لا تسعد بعدها أبداً، وصار دمك مهدوراً، والسعي في سفكه واجباً مشكوراً».

٧ــ وختم الشيخ رده بهذه النتيجة بعد كلام طويل:

«إنه تقرر في شريعة المسلمين أن حكم هؤلاء أمرهم بالتوبة والرجوع إلى دينهم، والتزيي بزي المسلمين. وإمهالهم لذلك ثلاثة أيام، فإن فعلوا ذلك قبلت توبتهم، وخلى سبيلهم؛ وإن تمت الأيام الثلاثة و لم يتوبوا، قطعت رقابهم بالسيف، ولا يغسلون، ولا يصلى عليهم لموتهم على الكفر... والسلام على من اتبع الهدى حامداً لمن نور قلب المؤمنين بالإيمان...».

* * *

هذه هي الرسالة العليشية، ولكل قارئ أن يحكم عليها بما يشاء، وأن ينقد أسلوبها في البحث، ولغتها في الحوار، وأدبها في المناظرة، على أن يقدر ظروف العصر الذي كتبت فيه، ونوع الثقافة التي كانت تسيطر على أهل العلم يومئذ؛ فإن كثيراً من تلك الأحوال، قد هذبه الزمان، وأصلحته الأيام.

وأهم ما في الرسالة في نظري مما ينبغي أن نستخلص منه العبرة، هو محاولة المؤلف في جد واهتمام تكفير بعض المؤمنين أو تفسيقهم لأنهم أخذوا برأي لا يوافق رأيه، ولا يتمشى فيما يحسب مع رأي جمهور المسلمين!

وهذه النزعة إلى التكفير أو التفسيق بما لا كفر فيه ولا فسوق ما تزال سائدة في جو الأزهر، وقد انبثت عدواها على يديه في كثير من أنحاء مصر والشرق، فمنكر الوسيلة والتوسل كافر عند فلان، ومنكر سحر النبي صلى الله عليه وسلم كافر عند فلان، والذي لا يتلقى بالقبول كل ما يروون من المعجزات والكرامات شاك مكذب، والذي يدعو إلى تهذيب العقائد مما ألم بها من خرافات وأوهام لا يعرفها الإسلام ضال مضل، والذي ينهى عن الإحداث في الدين والابتداع في العبادات متهجم على الشريعة، منكر لما تلقته الأمة بالقبول!

تجد هذا كله إلى الآن، وتجد العامة في أقاليم مصر وأقطار الشرق يتعاركون فيه ويختصمون عليه، ثم يتجهون إلى علماء الأزهر بأسئلتهم: ما قولكم دام فضلكم في رجل أنكر كذا أو حكم بكذا؟ أهو مؤمن أم كافر، أتطلق عليه امرأته أم تبقى في عصمته؟ فإذا بها هم ما أرادوا من فتوى شهروه في أيديهم سلاحاً ماضياً فتاكاً في وجوه خصومهم ومجادليهم، وأثاروا به حولهم من أسباب الشغب والفتنة ما الله به عليم.

وليس هذا فقط! بل إن العلماء الكبار ليتجهون أحياناً إلى جماعتهم الموقرة، فيسألونها في عناية واهتمام: ما قول سادتنا أعلام الأمة جماعة كبار العلماء فيمن قال... كذا وكذا أو ناصر كتاباً فيه كذا وكذا من الأحاديث الموهمة خلاف ما يرى جمهور المسلمين بأن أشرف على طبعه وقدم له: هل يكفر أو يفسق أو لا ولا؟

يرد مثل هذا السؤال على «الجماعة» من أحد أعضائها، فتهتم به، وتجتمع له، وتؤلف له اللجان، وتبحثه المرة بعد المرة، وتعكف عليه أكثر من عام: كل ذلك من أجل كتاب قديم نشره رجل من العلماء مع اعتراف الجميع بأن ما ورد فيه من الروايات والأحاديث قد ورد في غيره من كتب التفسير والحديث!

ففيم كل هذا؟ وأي مصلحة للإسلام والمسلمين ترجى من ورائه؟ ولماذا لم يُحكم فيما مضى، ولم تحكموا أنتم، بكفر المؤلف أو فسقه، حتى تأتوا اليوم فتتساءلوا: هل كفر الناشر أو فسق؟ تعقدون لذلك الجلسات، وترجعون فيه إلى المراجع، وتؤلفون من أجله اللجان!

اللهم إن هذه نزعة لا يسرنا أن تسود الأزهر، ولا أن تشجعها جماعة كبار علمائه. فإذا كان القديم في زمن «عليش» قد احتمل ذلك أو شرح به صدراً، فإن الجديد في زمن «المراغي» قد ملّه واحتواه وضاق به ذرعاً.

(الناقد الأزهري)

المصدر: مجلة الرسالة ــ السنة التاسعة ــ ٢٣ يونية (حزيران) ١٩٤١.

٣٦. حوار مع المفتي الأكبر

عبد المجيد سليم

إن الناحية التي تجلت فيها مواهب الأستاذ الإمام الشيخ «محمد عبده» كانت هي إدراكه الصحيح لمعاني القرآن الكريم، وفهمه الدقيق لأغراضه، وتذوقه لأسلوبه ومعجز بيانه، مع بصير عظيم بأحوال الناس، وعبر التاريخ، وأسرار تقدم الأمم والشعوب، وسنة الله في جميع الكائنات؛ يؤازر ذلك قلب جريء، وجنان ثابت، وعقل متصرف. وكان — رضي الله عنه — يعتمد في فتاواه على إدراك روح الشريعة، وتبين أغراضها العامة، لا على مناقشة المذاهب، وترجيح أقوال الفقهاء! ولذلك تأتي فتاواه غالباً مختصرة، وقد تثير خلافاً بين أهل العلم. ومن أمثلة ذلك أنه أفتى فتواه المشهورة بجواز لبس «البرنيطة»، فقامت من أجلها ضجة هائلة بين العلماء وأهل الأزهر يومئذ، فلما أردت أن أفتي في هذا الموضوع انتفعت بموضع العبرة فيه، فأخرجت فتواه التي تجيز لبس «البرنيطة» إخراجاً فقهياً مؤيداً بأقوال العلماء، جارياً على طريقتهم في الاستدلال والترجيح، وبذلك لم يستطع أحد أن يشغب على هذه الفتوى أو يثير في شأنها جدالاً.

مجلة الرسالة «مقتطف من حوار مع المفتي»

المصدر: الرسالة — العدد ٤٤٩ — السنة العاشرة — ٩ فبراير ١٩٤٢.

٣٧. مثال . . .

رأي الأزهريين في لبس القبعة

للأستاذ محمد المدني

كتبت في إحدى «مرسلاتي» كلمة موجزة عن «اختلاف الأزهريين» سجلت فيها ظاهرة غريبة ربما عدت شأناً من شؤون الأزهر الخاصة، وعلامة من علاماته المميزة: تلك هي التفاوت البعيد في النظر إلى الأشياء والحكم عليها مع أن القوم يشربون من معين واحد، ويصدرون عن ثقافة ما ترى في أصولها من تفاوت، وقد اختصرت في ذلك بعض الأمثلة، و لم أعرض لذكر الأسباب فكتب إلى كاتبان فاضلان من قراء «الرسالة» يسألني أحدهما أن أذكر بعض المثل واضحة مفصلة، ويسألني الآخر أن أبين الأسباب التي تفضي بالأزهريين إلى هذا الخلاف في الحين بعد الحين. ولست أحب أن أعرض لذكر الأسباب كما يريدني أحد هذين الكاتبين، فإنه ليعلم أن القول في ذلك مؤلم موجع في بعض نواحيه، وفي الأزهر نفوس لا تحب لها أن تألم، وجنوب عزيز علينا أن تُقض، فحسبنا أن نذكر بعض المثل الواضحة في هذا الشأن تبصرة وذكرى لعلهم يرجعون:

المثال الذي اخترته ليس فكرة من الفكَر التي تشغل الناس اليوم إنما هو فكرة تاريخية قد تداولتها عهود، ومرت بها أطوار تبتدئ من أواخر القرن الهجري الماضي: ذلك المثال هو «رأي الأزهريين في لبس البرنيطة». وقد اشتغل الأزهريون بهذا الموضوع أربع مرات: اشتغلوا به لأول مرة في عهد الشيخ محمد عليش مفتي السادة المالكية المتوفى سنة ١٢٩٩هـ، وقد سجلت «الرسالة» رأي هذا الشيخ فيما نشرته «للناقد الأزهري» (بالعدد ٤١٦ ص٨١٣ من السنة التاسعة)، وقد جاء في ختام هذا الرأي ما نصه:

«إنه تقرر في شريعة المسلمين أن حكم هؤلاء — يقصد لابسي البرنيطة — أمرهم بالتوبة والرجوع إلى دينهم، والتزيي بزي المسلمين، وإمهالهم لذلك ثلاثة أيام، فإن فعلوا ذلك قبلت توبتهم، وخلي سبيلهم؛ وإن تمت الأيام الثلاثة و لم يتوبوا قطعت رقابهم بالسيف، ولا يغسلون، ولا يصلى عليهم لموتهم على الكفر...».

واشتغل الأزهريون بهذا الموضوع مرة ثانية في عهد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه وأرضاه، حينما سأله الحاج مصطفى الترنسفالي في أنه يوجد أفراد في بلاد الترنسفال تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم وعود الفوائد عليهم فهل يجوز ذلك؟

فأجابه بفتواه المختصرة التي أقامت الأزهر يومئذ وأقعدته. وهذا نصها كما جاء في محفوظات دار الإفتاء المصرية (رقم ١٩٠ ـ ٦ شعبان ١٣٢١هـ): «أما لبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسلام والدخول في دين غيره فلا يعد مكفراً. وإذا كان اللبس لحاجة من حجب شمس أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره كذلك لزوال معنى التشبه بالمرة».

ثم عرض الأزهر لهذا الموضوع مرة ثالثة فقيل إن جماعة كبار العلماء أو لجنة منها بحثته وأصدرت فيه رأيها وهو يقضي بعدم جواز لبس البرنيطة. ولم أطلع على سند هذا الرأي لأنه ليس للجماعة مكتب ولا سجل منظم تقيد فيه بحوثها، وتسجل آراؤها. وقد أردت في العام الماضي أن أطلع على بعض الرسائل العلمية التي تنال بها عضوية الجماعة فتدافعني الموظفون في الإدارة العامة واحداً إلى واحد، ثم لم أهتد إليها ولم يبح لي أحد بسرها!

وأخيراً عرض لهذا الموضوع رجل الفقه والإفتاء الأستاذ الكبير الشيخ عبد المجيد سليم، وقد سأله مفتي مدينة كوملجنة بتراقيا الغربية بما خلاصته: «إنني بصفتي الرسمية لا أقر لمن يلبسون القبعة في بلادي ببدعتهم هذه، ولا أوقع على وراثتهم من المسلمين، ولا على زواجهم من المسلمات، فيسخطون عليّ، ويتخذونني شكية عند الناس وعند الحكومة، وفي اعتقادي أني لا أحكم فيها بغير ما حكم به الشرع الإسلامي، فإن كنت على حق فساعدوني رحمكم الله وأيدوني بكلمتكم الفصل؛ وإلا فدلوني على ما هو الحق الحقيق بالاتباع»[1].

ولم يكن فضيلة الأستاذ الكبير عضواً بجماعة كبار العلماء حين صدر رأي الذي أشرنا إليه، وإنما أسند إليه منصب الإفتاء وعين عضواً بالجماعة بعد ذلك، فماذا قال؟ إني أثبت هنا نص فتواه التي هي فصل الخطاب في هذا الباب، لما فيها من فقه جيد، ولما أرشدت إليه من مبدأ عام في الحكم على الناس بالكفر أو الإيمان:

نص الفتوى:

«...أما بعد فاعلم ـ هداني الله وإياك إلى الحق ورزقنا اتباعه وجنبنا الزلل في القول والعمل ـ أن علماءنا قالوا إن الكفر شيء عظيم فلا نجعل المؤمن كافراً متى وجدنا رواية أنه لا يكفر، فلا يكفر مسلم إلا إذا اتفق العلماء على أن ما أتى به يوجب

---

[1] الاستفتاء والفتوى مسجلات بمحفوظات دار الإفتاء المصرية «رقم ٣٤٥ـ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٧».

الردة، كما أنه لا يكفر مسلم متى كان لكلامه أو فعله احتمال ولو بعيداً يوجب عدم تفكيره، فقد روى الطحاوي عن أبي حنيفة رحمه الله وأصحابه أنه لا يخرج الرجل من الإيمان إلا جحود ما أدخله فيه، ثم ما يتيقن بأنه ردة يحكم بها له، وما يشك بأنه ردة لا يحكم بها إذ الإسلام الثابت لا يزول بشك مع أن الإسلام يعلو. وينبغي للعالم إذا رفع إليه هذا ألا يبادر بتكفير أهل الإسلام مع أنه يقضي بصحة إسلام المكره، وقد قال صاحب جامع الفصولين بعد نقله هذه العبارة ما نفسه: «أقول: قدمت هذه لتصير ميزاناً فيما نقلته في هذا الفصل من المسائل فإنه قد ذكر في بعضها أنه كفر مع أنه لا يكفر على قياس هذه المقدمة» ا هـ.

وقالوا أيضاً: إن مناط الكفر والإكفار التكذيب أو الاستخفاف بالدين، فقد نقل صاحب نور العين عن جامع الفصولين عن ابن الهمام في المسايرة أن مناط الإكفار هو التكذيب أو الاستخفاف بالدين، وقد قال في جامع الفصولين ما نصه: [من]* «شد زناراً على وسطه ودخل دار الحرب للتجارة كفر. قيل في لبس السواد وشد الفائزة على الوسط ولبس السراغج ينبغي ألا يكون كفراً، استحسنه مشايخنا في زماننا، وكذا في قلنسوة المغول إذ هذه الأشياء علامة ملكية لا تعلق لها بالدين» ا هـ.

إذا علمت هذا علمت أن مجرد لبس البرنيطة ليس كفراً لأنه لا يدل قطعاً على الاستخفاف بالدين الإسلامي ولا على التكذيب لشيء مما علم من الدين بالضرورة حتى يكون في ذلك ردة. نعم إذا وجد من لابس القبعة شيء يدل دلالة قطعية على الاستخفاف بالدين أو على تكذيب شيء مما علم من الدين بالضرورة كان ذلك ردة فيكفر. وعلى ذلك يكفر كل من حبذ أو استحسن ما هو كفر إذا وجد منه ما يدل على ذلك دلالة قطعية، وإذا لبسها قاصداً التشبه بغير المسلمين ولم يوجد منه ما يدل على الاستخفاف بالدين ولا على التكذيب لشيء مما علم من الدين بالضرورة كان آثماً فقط لما روى أبو داود في سننه: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أبو النضر — يعني هشام بن القاسم — حدثنا عبد الرحمن بن ثابت. حدثنا حسّان بن عطية عن أبي جنيب الجرشي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تشبه بقوم فهو منهم» قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا إسناد جيد، وبين ذلك في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» ومعنى قوله عليه

---

* زيادة يقتضيها النص. (م.خ).

الصلاة والسلام «فهو منهم» أنه كافر مثلهم إن تشبه بهم فيما هو كفر كأن عظم يوم عيدهم تبجيلاً لدينهم، أو لبس زنارهم، أو ما هو من شعارهم قاصداً بذلك التشبه بهم استخفافاً بالإسلام كما قيد به أبو السعود والحموي على الأشباه، وإلا فهو مثلهم في الإثم فقط لا في الكفر كما في الفتاوى المهدية. وإنما شرطنا في الإثم قصد التشبه لأن في الحديث ما يدل على ذلك إذ لفظ التشبه يدل على القصد؛ ومن أجل ذلك قال صاحب البحر ما نصه: «ثم اعلم أن التشبه بأهل الكتاب لا يكره في كل شيء، فأنا نأكل ونشرب كما يفعلون، إنما الحرام هو التشبه فيما كان مذموماً وفيما يقصد به التشبه. كذا ذكره قاضيخان في شرح الجامع الصغير».

وكتب ابن عابدين في حاشيته على البحر تعليقاً على هذا ما نصه: «أقول: قال في الذخيرة البرهانية قبيل كتاب التحري. قال هشام: رأيت على أبي يوسف نعلين مخصوفين بمسامير فقلت: أترى بهذا الحديد بأساً؟ قال: لا. فقلت: إن سفيان وثور بن زيد رحمهما الله تعالى كرها ذلك لأن فيه تشبهاً بالرهبان: فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس النعال التي لها شعر وإنها من لباس الرهبان. فقد أشار إلى أن صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد لا تضر، وقد تعلق بها النوع من الأحكام صلاح العباد، فإن الأرض مما لا يمكن قطع المسافة البعيدة فيها إلا بهذا النوع» اهـ.

وعلى هذا فهؤلاء الناس الذين لبسوا القبعة آثمون إذا قصدوا من لبسها التشبه بالكفار. أما إذا لبسوها غير قاصدين التشبه بهم كأن كان لبسهم إياها لدفع برد أو حر أو غير ذلك من المصالح فلا إثم. وهذا كله إذا لم يوجد منهم ما يدل دلالة قطعية على استخفافهم بالدين أو تكذيبهم لشيء مما علم من الدين بالضرورة وإلا كانوا كفاراً مرتدين يحكم عليهم بأحكام المرتدين من عدم صحة أنكحتهم وعدم توريثهم من الغير إلى غير ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم».

* * *

أما بعد. فهذا مثال نذكره لينتفع به من يريد الانتفاع، وليعلم الذين يعجلون بالحكم على آراء الناس أن الريث أولى بهم وأجدر أن يهديهم سبيل الرشاد، فإن قوماً منا قد اقترنت بعض الفكر العلمية في أذهانهم بقداسة تجعلهم ينفرون ممن يعرض لها بوزن أو تمحيص ولو زيف أدلتها، وبين ما فيها من خطأ، فتراهم يجزعون لما يصيب هذه الفكر ويضطربون، وتراهم يسفون أحياناً ويتزيدون، وربما أضافوا إلى الباحثين ما لم يقولوا، أو أولوا في كلامهم ما لم يقصدوا؛ ذلك بأنهم لا يرجون علماً، ولا

يقصدون حقاً، وإنما يريدون أن يثيروا كلاماً في مقابلة كلام ليقول العامة الذين لا يفقهون: لقد رد فلان على فلان! وآية ذلك أن كلامهم لا يصبر على البحث، ولا يثبت أمام النقاش العلمي، فتراه يتخاذل ويتهالك ويذوب كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس، ولو شئنا لضربنا في ذلك الأمثال، ولكنا نضن بأنفسنا وبقرائنا أن نشتغل بأكثر من هذا المثال.

محمد محمد المدني

المدرس بكلية الشريعة

المصدر: الرسالة ــ العدد ٤٦٧ ــ السنة العاشرة ــ ١٥ يونيه ١٩٤٢.

٣٨. معركة الطربوش والعمة والبرنيطة

جمال بدوي

من دار العلوم بدأت الثورة ضد العمة والدعوة إلى ارتداء البدلة والطربوش.
فكري أباظة يؤيد تغيير الزي الأزهري لأنه غير مناسب للعصر.
مباراة لتصميم طربوش جديد

حينما كانت المعركة الدستورية على أشدها في عام ١٩٢٦، اندلعت فجأة معركة جانبية مثلثة الأطراف بين: الطربوش والقبعة والعمامة، ولم تلبث أن تحولت إلى حرب ضروس بين أنصار كل من أطراف الثالوث، وبدأت المعركة من كلية دار العلوم حيث ظهرت الدعوى إلى التخلي عن الزي الأزهري المكون من الجبة والقفطان والعمامة، وارتداء البدلة والطربوش كغطاء للرأس، وفي الوقت نفسه دخلت القبعة إلى الحلبة لتطيح بالطربوش عن عرشه الذي تربع عليه عدة قرون باعتباره رمزاً للسيادة التركية التي تخلصت منها مصر بعد سقوط الخلافة العثمانية في عام ١٩٢٤ وانتصار الثورة الكمالية، ونحن نعرف أن مصطفى كمال تشدد في إزالة كل معالم العثمانية، وفرض على الأتراك لبس القبعة والملابس الأوروبية، وسرت العدوى إلى مصر على أساس أن الأتراك منبع الطربوش، قد خلعوه... فلماذا نتمسك به في مصر؟ كما أن الطربوش يرمز إلى العنجهية التركية التي أذاقت المصريين الوبال (...) ولكن أنصار الطربوش رفضوا هذا التبرير وحجتهم في ذلك أن الطربوش اكتسب، من طول استعماله، صفة المواطنة، وصار رمزاً للقومية المصرية والانتماء الوطني في مواجهة الهجمة الأوروبية الاستعمارية، وأن التخلي عنه سيؤدي إلى الذوبان في موجة التغريب التي اتسع مداها في ذلك الوقت... وكان رمزها القبعة أو البرنيطة كما كانت تسمى حينئذ.

ومن مفارقات هذه المعركة أنه في الوقت الذي تخلى فيه طلبة الأزهر ودار العلوم عن العمامة وارتدوا الطربوش، كان طلبة المدارس الأميرية يستبدلون القبعة بالطربوش، وإزاء هذه الفوضى في الزي وغطاء الرأس، تدخلت وزارة المعارف وأصدرت قرار بإلزام طلبة دار العلوم، وكذلك أساتذة اللغة العربية بلبس العمامة والزي الأزهري «لأن هذا زيهم من قديم الزمان وقد أصبحوا معروفين به فلا يصح تغييره».

ولم يستسلم طلبة دار العلوم لهذا القرار، وبدأوا يجمعون الفتاوى والآراء الفقهية، التي تثبت أن الزي ليس من جوهر الدين، وساندهم في ذلك بعض المشايخ مثل الأستاذ

محمد شاكر وكيل الأزهر سابقاً، إذ أفتى بأن الدين الإسلامي لا يطلب إلا ما يستر العورة، لأنه دين النفوس والقلوب، ولا يجب على المرء إذا أسلم خلع زيه من أجل إسلامه، ولا حرج في لبس كل ما يجري به الوقت.

ودخل إلى المعركة كبار الكتاب والأدباء والصحفيين، فكتب الأستاذ فكري أباظة في «المصور» تحت عنوان (الحرب الطاحنة) إن لهيب هذه الحرب سوف يمتد إلى الأرياف وقراها في القريب العاجل، وستصل العدوى من دار العلوم إلى القضاء الشرعي، فالأزهر، فالجامع الأحمدي، فالمعهد الدسوقي، فمعهد الزقازيق ثم تصل إلى مدارس المعلمين، والمكاتب الأولية، ولا نعلم لمن سيكتب النصر: أللطربوش ـــ أم للعمة؟.

ويستطرد فكري أباظة قائلاً للأساتذة رافعي علم الثورة، إن الزي ما كان في وقت من الأوقات أصلاً من أصول الشرائع، وإنما هو مظهر من مظاهر الذوق، فتغييره لا علاقة له بالشرع، وإنما علاقته بالذوق فقط، والذوق مسألة شخصية يجب ألا تخضع إلا لمجرد الاختيار، ولو سئلت رأيي لملت إلى الثائرين على العمة والجبة والقفطان والمركوب أيضاً... وإن كان يعزّ عليّ أن أحرم من مشاهدة العمة «المقلوظة» و«القفطان» المزهر... والمركوب الخطير الشأن.

ثم يقول فكري أباظة إنه سمع من أهل العلم والدراية، إن زي العمامة والجبة يرجع إلى أصل يهودي لا علاقة للإسلام به، وبرفع النظر عن هذا، فمن واجب العدالة أن تتكلم في الموضوع بصراحة: إن الزي الذي يريد الثائرون أن يتحرروا منه هو في الواقع عقبة في طريق المستقبل، ليقل طلبة دار العلوم ما شاءوا في العلانية، وليسمحوا لي أن أفضي بما يعتقدون في السر؟!، هم يعتقدون أن الزي عقبة من عقبات الترقي والتقدم في الوظائف، وفي الأعمال الحرة... هم ينظرون إلى جميع الدوائر الحكومية فيرون أن النعيم كله، أو أغلبيته الساحقة ـــ للطرابيش ـــ لا للعمم! ما رأوا في حياتهم وزيراً بعمة، ولا مديراً بعمة، ولا رئيس مصلحة بعمة، ولا حكمدار بوليس بعمة، ولا مأمور مركز بعمة... وهم يتساءلون: لم لا يكون عندهم أمل الوصول إلى هذه المراكز؟ ولم يحجزون أنفسهم في حيز «العمم» الضيق... وهو لضيقه لا يسع ألوف المعممين؟!.

ويتناول فكري أباظة الجانب العاطفي في أزمة المعممين فيقول: مَنْ منَ الآنسات الرقيقات تقبل اليوم أن تصطدم ليلة العرس بعمة؟ قد يكون الخطيب ظريفاً رشيقاً وسيماً، ولكن العمة الخطيرة، القفطان الخطير، والمركوب (الأخطر) عقبات في طريق الزواج، والعروس المسكينة إن فعلت كانت محل تهكم الصديقات والزميلات...

ولكن... أليس التطور سريعاً والطفرة خطيرة؟.. وإذا كانت «العمة» ستتحول بهذه السرعة إلى طربوش، فهل يتأخر الطربوش عن أن ينقلب إلى برنيطة؟، وإذا تم هذا فلن يبقى إلا أن تصبح العمة... برنيطة بعد اجتياز تلك المرحلة... فهل يقبل الأساتذة الثائرون من طلبة دار العلوم أن يصبحوا في العهد القريب «خواجات» ومع ذلك يحفظون أحاديث البخاري، ويقرأون في كتاب الزمخشري والقلقشندي؟، والله إنها... «لعبارة».

القبعة تدخل المعركة

وبعد أن كانت المعركة دائرة بين الطربوش والعمامة، دخلت القبعة طرفاً ثالثاً، ولكنها ركزت كل سهامها إلى الطربوش، وتحاشت الصدام مع العمامة لما تحمله من بعد ديني، ولو شئنا الدقة لقلنا أن القبعة اتخذت من الطربوش ستاراً لمحاربة العمة، وفطنت مجلة «الهلال» إلى أن الجدال بين أنصار الطربوش وأنصار القبعة هو في الحقيقة جدال بين عقليتين تتنازعان أقطار الشرق العربي في ذلك الوقت، ولكل فريق أدلة وحجج جديرة بالنظر والتأمل، واستطلعت «الهلال» رأي اثنين من كبار الكتاب أحدهما يدافع عن الطربوش وهو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، والثاني يناضل عن القبعة، وهو الدكتور محمود عزمي.

فكان مما قاله الرافعي: لا تسأل ما الطربوش، ولكن من لابسه، ولا ما القبعة، ولكن من حاملها، فإنما القبعة والطربوش كلاهما كسائر العروض التجارية لا قيمة لكائن ما كان منها إلا أن يمضي منفعة، ويخرج في صورة عمل لينقلب في صورة أجر، كأن هذه الأرض بما عليها قضية مالية عند منقطع كل استدلال من أدلتها برهان من الفضة أو الذهب، ونحن نبتاع ما شئنا منذ أصبح العالم كله سوقاً واحدة لا تنفك عروضها من سفر وتقلب، فإن صاحب الحاجة أدرى بسداد حاجته وأبصر كيف يتولاها، فحذائي أنا مثلاً تجد فيه متانة الحربية الألمانية، لأنه من ألمانيا، وثيابي تكاد تستعمر جسمي لأنها من إنجلترا... ولكني عند الطربوش والقبعة أجد حداً تقف إليه ذاتيتي الفردية، فلا أرى ثمة موضع انفراد، ولكن موضع مشاكله، ولا أعرف صفة منفعة لي، بل صفة حقيقة مني.

ثم يقول الرافعي: فالقبعة على رأس المصري منفرداً بها دون قومه، بائناً من جملتهم، إنما هو مظهر من مظاهر التحلل الاجتماعي، وارتكاس من منطق الجملة المصرية، ونفي لهذا الرقم الفردي من عبارة مجموعة، بل هي في الرجال مشتقة من المصدر، المصدر نفسه الذي يخرج منه التهتك في النساء، وكلاهما مترع من المخالفة،

وكلاهما ضد من صفة اجتماعية تقوم بها فضيلة شرقية عامة، وإن كان فيما وراء ذلك ضرب من القول في توجيه القبعة، ومذهب من الرأي في الاحتجاج.

ولا يهولنك ما أقرر لك من أن القبعة على رأس المصري في مصر تهتك أخلاقي، أو تهتك سياسي، أو تهتك ديني، أو من هذه كلها معاً، فإنك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب، بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة، وتحللت أكثر عقدها، وقاربت الحرية العصرية بين النقائص حتى كادت تختلط الحدود اللغوية، فحرية المنفعة مثلاً تجعل الصادق والكاذب بمعنى واحد، فلا يقال إلا أنه وجد منفعته فصدق، ووجد منفعته فكذب، وما فرق بين اللفظين وجعل لكل منهما حداً محدوداً سوى جهل القدماء، وفضيلة القدماء، ودين القدماء.

ثم يقول الرافعي عن الطربوش: فإن الطربوش لم يضق، وإنما ضاقت العقول، أو ضاقت الأخلاق، وهذه الأمة منكوبة بالتقليد والمقلدين، فهلا زيا تخترعا أو إصلاحاً في زي معروف، فإذا كانوا عاجزين عنهما، فهلا عقلوا سخافة هذا التقليد وشؤم هذه المتابعة؟.

يقولون إن الطربوش يوناني، وأنه يوناني معرب، فهو في ألفاظ الحياة كألفاظ مثله في اللغة، وقد أصبح رمزاً من رموزنا، ففيه من ذلك قوة السر الخفي الذي يلهمنا ما أودعه التاريخ من قوميتنا ومعاني أسلافنا أو فيه سر القوة الخفية التي تجمعنا حول المعاني الاعتبارية برمز تتمثل فيه تمثل الوطن في الراية، وهو عندنا كالاصطلاح في الحفلة الرسمية على ثوب رسمي لا بد منه لكل من يحضرها ليتسق به نظامها شئت أم أبيت، وقد تقول إن في الشرق ضروباً أخرى غير الطربوش كالعمائم والقلانس، فنقول لك: إن الاصطلاح واقع عليها كذلك، وهذا الاصطلاح عينه هو الذي ينفي القبعة ويلحق لابسها بالفئة الأجنبية.

ثم قال: أنا أستمسك بالطربوش لأني أريد الدقة في التعبير الذي تعبر به نفسي حين تعلن عن نسبتي وقوميتي، فالطربوش إنما هو تدقيق في التعبير بالفكر، وإخراج لهذا الفكر في أصدق ما يدل عليه، وأصرح ما يؤديه، ثم إني مستيقن أن الأفكار الشرقية أو الإسلامية تحت القبعة هي غيرها تحت الطربوش، لأن تغيير الرمز يتغير به ما كان يلهمه، وهذا لا يكابر فيه أحد، فقد عاد إلى صبغة نفسية.

عزمي يتحدى الشرق

أما الدكتور محمود عزمي فقال في موضع دفاعه عن القبعة في إطار إيمانه الشديد بكل مظاهر الحياة الأوروبية، أنا من الذين ينادون بملء فيهم بضرورة الأخذ من المدنية

العصرية، وأن الخير كل الخير في شخوص الكتلة الشرقية المتكلمة لغة عربية إلى شواطئ البحر المتوسط الشمالية الغربية، وبأن كل نظرة إلى رمال التيه والبادية إنما تكون نكوصاً على الأعقاب. ثم قال:

وسط هذه التيارات المتقابلة أقبل صيف سنة ١٩٢٥، وكان علي أن أمضيه في القاهرة، وعندي أن بعض الإصلاحات الاجتماعية لا تجدي فيها المناقشة ولا يفيد الجدل، بل تجدي القدوة ويفيد العمل، من أجل هذا اعتزمت أن أنفذ ما أنا مقتنع به من رأيي في صدد المدنية العصرية وفي صدد القبعة، لكن «الأخطاء الوراثية» المتراكمة كان لها في عزيمتي بعض الأثر، فجعلتني أجد من «حسن الفطن» ألا أفاجئ إخواني وأصدقائي بما سأضع على رأسي في مصر من عمارة جديدة، وأن أنذرهم قبل الموعد بأيام حتى لا ينقضوا علي بالسؤال والاستفسار، وأذن فقد حددت لنفسي اليوم الأول من شهر يوليو سنة ١٩٢٥ لألبس فيه القبعة وأخذت منذ العشرين من شهر يونيه أعلن كل من أقابله من الأخوان والأصدقاء أني مغير لباس الرأس من أول الشهر التالي.

وجاء أول الشهر وقصدت في حزم وهرولة إلى بائع القبعات بميدان «سوارس» ولاحظت أن سرعة الخطى قد أخذت تقل عندما اقتربت من الحانوت، ولاحظت أن السير قد وقف بي عند باب الحانوت، ولاحظت أني أخذت أنظر إلى القبعات المعروضة خلال الزجاج، ولاحظت أني استأنفت سيري في شارع قصر النيل دون أن أشتري القبعة ودون أن أدخل حانوت القبعات، ولاحظت أني أخذت أتهم نفسي في صوت غير خافت بأني «جبان» وبأن «الأخطاء الوراثية» لا تزال تجد مني منفذاً... ومنيت نفسي بالعودة إلى الحانوت بعد الظهر لكني لم أعد إليه عاماً كاملاً.

مضى الصيف ومضى الخريف ومضى الشتاء ومضى الربيع وأقبل الصيف من جديد، صيف سنة ١٩٢٦، والمناقشة حول «الطربوش والقبعة» يتسع نطاقها حتى وصل إلى «الرابطة الشرقية» التي أرادت أن تتذرع «بفتوى» يصدرها الأطباء فتقدمت إلى جمعيتهم بأسئلة واستيضاحات انتهت الجمعية إلى الإجابة عنها في اجتماعها العام الذي عقدته صباح يوم الجمعة الموافق للثاني من شهر يوليه لسنة ١٩٢٦.

وقالت «هيئة كبار الأطباء» في فتواها أن الطربوش لباس رأس غير صحي وأن للباس الصحي شروطاً عددتها وإذا بها متوفرة في القبعة وغير متوفرة إلا فيها.

وأعلن القرار أو أعلنت الفتوى مساءً فكانت هي القاضية على «أخطائي الوراثية» من هذه الناحية إذ قصدت صباح اليوم التالي السبت الثالث من شهر يوليو

لسنة ١٩٢٦ إلى بائع القبعات نفسه واشتريت قبعة الصيف وخلعت على الحوذي ما كان على رأسي قبل هذا من طربوش.

ومنذ ذلك اليوم ألبس القبعة متناوباً أنواعها المتماشية مع كل فصل من فصول السنة.

تلك هي ظروف لبسي القبعة وتلك هي تطورات الاعتبارات التي دفعت إلى لبسها، انتهت آخر الأمر بأن كانت اعتبارات شخوص إلى الشمال الغربي للأخذ بالحضارة العصرية الغالبة بدل افتقاد العمر في ندب الماضي الذي ليس من سنة الكون أن يعود.

الأطباء يعارضون الطربوش

وإشارة إلى الدكتور محمود عزمي إلى قرار جمعية الأطباء، كانت موضوع الغلاف على صفحات «المصور» يوم ٩ يوليو ١٩٢٦، ونشرت الخبر تحت عنوان: «قرار الأطباء في لباس الرأس... الأستاذ محمود عزمي أول من يعمل بـه»، وجاء في الخبر أن جمعية الرابطة الشرقية وجهت أسئلة إلى جمعية الأطباء في القاهرة تختص بلباس الرأس من الوجهة الصحية وأن تبدي رأيها الصريح في أيهما أو في: الطربوش أم القبعة؟ فاجتمعت هيئة الأطباء وبعد مناقشات طويلة أصدرت قراراً مؤداه أن الطربوش ليس لباساً صحياً، وفي اليوم التالي زار إدارة «المصور» الأستاذ محمود عزمي لابساً القبعة بعد أن خلع الطربوش عملاً بقرار الأطباء، وقال إنه أصبح من المحتم لبس القبعة وهي التي تتوافر فيها الشروط التي استلزمها الأطباء للباس الرأس الصحي إلى أن يتفق «الفنانون» على ما يريد الأطباء أن تقام له مسابقة، ثم أضاف: على أني أرى الاحتفاظ بالطربوش ليكون بالنسبة للمصريين بمثابة القبعة العالية عند الغربيين تلبس في الحفلات والرسميات على الردنجوت وملابس السهرة.

ونشرت «المصور» صورة كبيرة لجمعية الأطباء، وإلى جانبها صورة محمود عزمي لابساً القبعة، وأعلن بعض الأطباء أنهم قرروا الاقتداء به في لبس القبعة مؤقتاً إلى أن يتم الاتفاق على لباس للرأس في مصر.

ويبدو أن المسابقة لقيت استجابة عند كثير من المصريين وشجعتهم على التفكير في صناعة غطاء جديد للرأس يحل محل الطربوش، وبدأت «المصور» تنشر ما يبعث به «المخترعون» فنشر على غلاف الصفحة الأولى ثلاث صور لنماذج طربوش جديد مسجلة باسم الأديب شعبان أفندي زكي، وهي مقتبسة من لباس الرأس الفرعوني والعربي والإفرنجي، ومكون من ثلاث قطع متماسكة، الأول: الكساء الخارجي من قماش مصري مخطط بلونين أحمر وأزرق، والثاني: القالب الداخلي وهو الحافظ لكيان الكساء ومبطن

بقماش خفيف يغطي الرأس، والثالث: المظلة وهي تتصل بالقالب وتفصل عنه بكبسول، وحرصت «المصور» على أن تسجل أنها لا تقصد من نشر هذه الصور الانتصار لفريق على آخر، بل إثبات أثر تغيير الزي في شكل شخص واحد، وكأنما حرصت «المصور» على أن تقف موقف الحياد في هذا النزاع الذي اتخذ صبغة قومية.

وفي عدد آخر نشرت «المصور» صورتين لطربوش جديد بعث بهما حنا أفندي مارون الذي ابتكر غطاء للرأس، وهو كالطربوش ولكنه له (رفرف) غير منفصل لحماية الرأس من الشمس وقماشه كقماش الطربوش وفي الصيف يمكن صنعه من الخوص، وفي الطربوش الأول الذي لبسه صاحب الابتكار شريط مثل شريط القبعة وفي كليهما (زر) يشبه زر الطربوش، أما تعليق محرر «المصور» فهو: يجب علينا أن نختار أحد الاثنين: الطربوش أو البرنيطة، أما إتعاب الذهن لصنع غطاء آخر للرأس فجهد ضائع.

وامتدت عدوى الابتكار إلى كبار الشخصيات والمفكرين والمؤرخين ومنهم أحمد شفيق باشا فقد ذهب إلى الاجتماع الخاص الذي عقدته جمعية الرابطة الشرقية، وعرض عليهم نموذجين لغطاء الرأس أحدهما يشبه الطربوش لكنه مصنوع من خوص صيفاً، ومن فلين شتاءً، وهو ذو حافتين يسهل انتزاعهما، والآخر هو الفيصلية (نسبة إلى فيصل ملك العراق) وكان يلبسها الضباط السوريون في الحكومة الفيصلية، وهذا الغطاء يشبه (الأنورية) المعروفة نسبة إلى القائد التركي الشهير أنور باشا، ونشرت «المصور» ثلاث صور تمثل سعادة شفيق باشا بهذين الغطاءين على رأسه، وهو يرتدي البدلة التي اقترح أن تستعمل بدلاً من البدلة الإفرنجية، وهي عبارة عن رداء واسع كالجاكتة ولباس أسفل واسع كالسراويل.

وانضم المواطن هاشم أفندي توكل إلى طابور المخترعين، ونشرت له «المصور» صورتين له وهو يرتدي طربوشاً صحياً يقي لابسه حر الصيف ومطر الشتاء، ويحافظ على النمط الشرقي للطربوش.

القضية تجتاز الحدود

ودخلت السياسة إلى معركة الطربوش والبرنيطة بعد أن أصدرت اللجنة التنفيذية للطلبة بياناً شديد اللهجة ضد وزير المعارف، فتصدى لهم النائب الوفدي المعروف حسن يس، وتحامل على الطلبة المناصرين للقبعة، وقال إن لبس القبعة فتنة وبدعة وخيانة وطنية، ولكن لجنة الطلبة ردت له الصاع صاعين، وقالت إذا أصر وزير المعارف على إلزام الطلبة بارتداء الطربوش، فإنهم سوف يرتدون (البانامـا) أثناء

الصيف، وشرع بعضهم في شراء نوع من البرانيط لا يزيد ثمنه على خمسة قروش كمقدمة لارتداء زي خاص من البرانيط بعد ابتداء العام الدراسي.

و لم تلبث معركة الطربوش والبرنيطة أن اجتازت الحدود المصرية ودخلت دائرة الاهتمام في الدول العربية وبعض الدول الإسلامية.

معركة الطربوش تنتشر من طنجة إلى أفغانستان

ملك الأفغان يطلب من السفير المصري نبذ الطربوش.

محمود عزمي يعود إلى الطربوش بعد أن قاد المعركة دفاعاً عن البرنيطة.

فكري أباظة: لن ألبس القبعة... إلا إذا كان لها «زر».

الهلباوي: لماذا إقحام الدين في مسألة الأذواق؟

اتسعت معركة الطربوش والعمامة والقبعة على المستويين المحلي والخارجي، ففي الداخل لم تقتصر المطالبة على تغيير غطاء الرأس، أو استبدال البدلة بالجبة والقفطان. وإنما تطرقت إلى مراجعة كل القضايا الاجتماعية التي اكتسبت صفة الثبات مثل: تعدد الزوجات، والطلاق، والزواج من الأجنبيات، والتقاليد السائدة في الأفراح والمآتم وحفلات الزار وغيرها، وكأنما كان المخزون الاجتماعي في حاجة إلى عود ثقاب كي يشتعل. فكان «الطربوش» هو عود الثقاب الذي فتح الباب أمام المراجعة والنقد لكل موروث اجتماعي، والتطلع إلى حياة عصرية لا تمس جوهر الدين، ولا تسيء إلى ثوابت العقيدة، وعلى المستوى الخارجي تجاوزت الأزمة حدود مصر إلى الأقطار المجاورة، و لم تلبث الضجة أن اتسعت حتى غمر صداها كل الأقطار الإسلامية من طنجة على المحيط الأطلسي، إلى كابول عاصمة أفغانستان حيث كان الملك «أمان الله خان» يقود حركة تغيير عنيفة ضد التقاليد الشرقية ففرض على شعبه خلع الملابس الوطنية وارتداء الملابس الأوروبية، فوجد في معركة الطربوش المصرية حجة تعضد حملته. وكانت مثار حوار بينه وبين السفير المصري حسن باشا نشأت.

ولا شك أنه كان للفتوى التي أصدرها شيخ الأزهر المفتي بتحريم لبس القبعة، أثر فعال في تزكية نار المعركة واستندت الدولة إلى هذه الفتوى في حظر وضع القبعة على رؤوس الطلاب، وأصدر مدير المعارف ـ علي بك ماهر ـ قراراً بذلك، فما كان من طلبة دار العلوم إلا أن أعلنوا تحديهم للقرار بطريقة عملية، فانتهزوا فرصة افتتاح المعرض الزراعي الصناعي بأرض الجزيرة في مارس ١٩٢٦ وذهبوا إلى المعرض وهم يرتدون البدلة والطربوش والتقطت «المصور» صورة جماعية لهم وهم يجلسون أمام

سراي وزارة المعارف، وفي تعليق «المصور» قال إنه لا يرى غضاضة في ارتدائهم هـذا اللباس الذي يلبسه عظماء الدولة ورجال الحكومة وعموم الطلبة.

وكما توقع فكري أباظة، فقد اتسعت حركة التمرد بين رجال التعليم الأولى في المديريات، وبعثوا من مديرية الشرقية بياناً إلى «المصور» قالوا فيه أنهم اجتمعوا وقرروا تغيير زيهم (العمامة وملحقاتها) واستبداله بالزي الذي يرتديه جلالة مليك البلاد، أسوة بطلبة دار العلوم.وكأنما أراد هؤلاء أن يحتموا بالزي الذي يرتديه الملك، لمواجهة قرارات التحريم الدينية والحكومية. وعلق على البيان كاتب بالمصور كان ينشر مقالاته الأسبوعية بانتظام تحت عنوان (أمالي الأسبوع) وتوقيع «محدث» فقال: سنرى قريباً معركة حامية بين هؤلاء المعلمين المطربشين، ووزير المعارف، والشيخ عبد العزيز جاويش مراقب التعليم الأولي، فالوزير يجاهر بأن طلبة دار العلوم لا يستحقون أن يكونوا في مصاف الأفندية، وجاويش يكره أوروبا وتقليد الأوروبيين في كل ما يقربنا منهم، ولكن أيام البرلمان قد قربت، ولا بد من تنفيذ الدستور الذي يقرر للمصريين حرية ملابسهم، ومتى تطربش معلمو الكتاتيب في الأرياف، فلن يمضي زمن حتى يقتدي بهم تلاميذهم.

وبالفعل... احتدمت المعركة الانتخابية في مايو ١٩٢٦ فكانت أزمة الطربوش والعمة والقبعة عنصراً من عناصر الصراع بين مرشحي حزب الحكومة (الاتحاد) والأحزاب الثلاثة المؤتلفة وهي: الوفد، والأحرار، والوطني. وأخذ مرشحو الاتحاد يفخرون بأن حكومتهم حين منعت المصريين من لبس القبعة، إنما منعت أكبر ضرر كان ممكناً أن يحيط بمصر وبنيها، ورأوا في هذا الإجراء حرباً على المبدع والضلالات التي أريد بها إفساد الناس في أمور دينهم ودنياهم. وهنا تصدت جريدة «السياسة» الأسبوعية لهذه المزاعم. وقال كاتب كان يوقع مقالاته باسم «قدامة»: لا تظنوا أن وزارة زيور أبطلت القوانين الوضعية من مختلطة وأهلية، وسارت على ما جاء في كتاب الله المبين وسنة رسوله الأمين، أو أنها قضت على العادات المفسدة للأخلاق والمزرية بالشرف، أو أنها أغلقت بيوت الدعارة ومنعت الكشف على المومسات لإعطائهن شهادة رسمية بصلاحيتهن لما يحترفن من الفجور... أو أوصدت أبواب المواخر والخمامير... لم تفعل الحكومة شيئاً من ذلك وإنما عملت على ما هو أجدى نفعاً للأمة: فقررت فصل كل طالب يغير زيه القومي، ليظهر بهذا الزي المضيع للقومية المصرية، الهادم لأصول الشريعة الحنيفية الذي يتوارى به مرشحو حزب الحكومة (!!).

الهلباوي ينتقد (رجال الدين)

وكان مقر جمعية الرابطة الشرقية ويرأسها السيد عبد الحميد البكري نقيب الأشراف هو الميدان الذي احتضن كل فصائل المعركة، وكانت تضم نخبة العلماء والمفكرين والسياسيين المصريين، والعرب والمسلمين والمقيمين بمصر، ومن فوق منبرها تبارى هؤلاء الأعلام في عرض وجهات نظرهم، ومنهم السياسي والمحامي المعروف إبراهيم بك الهلباوي، فقد ألقى على جمهور الرابطة خطاباً مستفيضاً أشار فيه إلى النزعة القوية التي أظهرها طلبة دار العلوم لاستبدال الجبة والقفطان والعمامة، بالسترة والبنطلون والطربوش، وحمل حملة شديدة على المعارضة الشديدة من جانب الجهات الدينية والحكومية وتصميمها على إكراه الطلبة على البقاء على القديم، وليس من المستغرب أن يلاقي كل جديد معارضة في طريقه، ولو ترك هذا النضال لمجراه العادي، لما استحق تلك الأهمية التي أخذها، ولكن الأمر الذي لم يكن من المستحسن الدخول فيه هو إدخال الدين في مثل هذه المواضيع التي منشؤها ومرجع الكلمة فيها لأذواق الناس وميولهم.

ووجه الهلباوي النقد الصريح إلى شيوخ الأزهر فقال: أني لا أدري كيف أن أئمة الدين السمح يقبلون في الزمن الماضي خلع العمة واستبدالها بالطربوش تقليداً للأروام وتشبهاً بهم، ويرون اليوم منكراً إذا استبدل المسلم الطربوش بما يلبسه الغربي، مع أن الطربوش ليس غطاء للرأس في عهد الإسلام ولا بعده بعدة قرون؟!.. لذلك يكون من العبث أن تتدخل أي سلطة بين الناس وأذواقهم.

خوفاً من الاتهام بالمروق

وكان المنتظر أن تصدر جمعية الرابطة الشرقية قراراً حاسماً في القضية ولكنها آثرت التهرب من القرار حتى لا تتورط في الانحياز إلى القبعة ضد العمة والطربوش، فتتهم بالمروق والخروج على الشريعة، وأحالت الموضوع إلى جمعية الأطباء التي كانت بمثابة نقابة، ولم تشأ النقابة أن تتعرض للمسألة من جانبها الديني، واقتصر قرارها على الناحية الصحية فقط، وتبيان الأضرار التي يتسبب فيها الطربوش وعدم صلاحيته كغطاء للرأس، وشرحت النقابة مواصفات اللباس الصحي بحيث يقي الجبهة من تأثير أشعة الشمس على العينين والنخاع المستطيل... الخ وتصورت الجمعية أنها بهذه (الفتوى) قد أخلت مسؤوليتها بما لا يغضب رجال الدين.

وتلقف الأستاذ فكري أباظة الفتوى وعلق عليها في «المصور» قائلاً: إنها فتوى فنية من اختصاصيين لا تقبل المناقشة. ومن القواعد الشرعية المسلم بها أنه يحرم «قطعاً»

اختيار الضرر. وتفضيله على الفائدة، فنقابة الأطباء قد أصدرت أيضاً قراراً شرعياً وإن كان ضمنياً، ولو اتبع العلماء روح التشريع الديني لوجب عليهم أن يلبسوا «القبعة» ولو على الجبب والقفاطين، وقد تحادثت مع كثيرين من مختلفي الطبقات، فوجدت أن الأغلبية الساحقة تحبذ لبس القبعة. وتود تنفيذ ذلك لولا أنها «مكسوفة». ويسلم الجميع بأن الطربوش لم يكن في وقت من الأوقات لباساً شرعياً، وأن العمامة في الواقع أفيد من الوجهة الصحية وخصوصاً إذا كانت من تلك العمامات المنبسطة الكبيرة لا من تلك العمامات «المقلوزة» التي يلبسها الشيوخ «المتفرنجون».

ثم يقول فكري أباظة: ولا يستطيع متعنت أن يقول بلهجة الحزم والجزم أن الطربوش لباس قومي: لأن أغلبية المصريين لا يلبسون الطرابيش من جهة، ولأن صناعة الطرابيش صناعة «نمساوية» ولم تكن في وقت من الأوقات صناعة وطنية إلا حيناً من الدهر، ثم فشل المشروع وأقفلت أبواب «الفاوريقة» الوطنية إلى الأبد... إذن ما الذي يأسف عليه أنصار الطربوش بعد هذه البيانات الحاسمة؟ أهو القوام؟ أم اللون؟ لم يبقَ سادتي القراء بعد هذا إلا «الزر»!! ويخيل إلي أنه يعز على كثيرين أن يهجروا «الزر» الذي لازمهم بدون معنى زمناً طويلاً. فإن كانت مسألة الزر هي العقبة في طريق الصحة العامة، فليبتكر لنا خبراء الأزياء «قبعة بزر» ليرضى بها وعنها الأبرار الأخيار أنصار «الأزرار»!!

والعجيب أن فكري أباظة اختتم مقاله المؤيد لنقبعة بقوله: لا يفهم القراء من هذا أنني ممن عزموا على لبس القبعة، أعترف بأنه ليست عندي الشجاعة الكافية للإقدام على هذا التطور العظيم، وسأظل ألبس الطربوش وزر الطربوش حتى يفتي صاحب الفضيلة المفتي بأن لبس القبعة حلال، كما أفتى «للأدى در مندهاي» بتلك الفتوى العصرية العجيبة... والله أعلم...

روشتة لعلاج الأمراض الاجتماعية

وشجعت فتوى نقابة الأطباء، المؤرخ الكبير أحمد شفيق باشا أن يغوص في أحشاء المشاكل الاجتماعية حين رأى أن معركة العمة والطربوش والبرنيطة قد أخذت دوراً مهماً من شأنه إقلاق الخواطر، وتحدى مميزاتنا القومية، وانقسم القوم إلى موافق ومخالف حتى خيف أن تجري الأمور على غير المألوف، فدعا شفيق باشا أعضاء الرابطة الشرقية إلى اجتماع خاص بمنزله لمناقشة ثلاثة أمور طرحها وهي:

- هل يجب أن نستمر، نحن الشرقيين، على تقاليدنا ومظاهرنا كما هي؟ أم نندمج في العادات والأخلاق الغربية؟ أم نحافظ على تقاليدنا وعاداتنا الحسنة، ونستبدل بعض الظواهر والتقاليد القديمة بأخرى غربية، مما يفيدنا ولا يتنافى مع العادات القومية الصحيحة.
- فإذا تقرر التجديد فما هي المظاهر القديمة التي يلزم تغييرها بمظاهر جديدة تنطبق على قواعد الصحة والاقتصاد؟
- وهل ينبغي إذا تقرر تجديد الزي أن تتميز كل فئة بزي مخصوص يناسب حالتها وطقوسها الذاتية؟

وبعد مناقشات استقر رأي الحاضرين على وجوب تقليد الشرقيين للغربيين فيما هو أصلح لهم بالنسبة لاحتياجاتهم المختلفة، ولا يتنافى مع القومية الشرقية وشكلت لجنة فرعية تضم رجال الطب والاقتصاد والاجتماع وغيرهم، وعقدت اللجنة جلسة في ١٢ مايو ١٩٢٦ وتقدم شفيق باشا إليها باقتراح ينحصر فيما يلي:

١- الملابس والأزياء: ويدخل فيها بالطبع لباس الرأس من حيث الصحة وسهولة الاستعمال والمتوافق مع الشعائر الدينية والاقتصادية.
٢- الزواج: وكل ما يتعلق به من حيث الكفاءة والسن والتعارف بين الخطيبين والمهر والهدايا ونفقات الزفاف وغير ذلك.
٣- تعدد الزوجات وما يتصل به وأسبابه ونتائجه.
٤- الطلاق وما يرتبط به.
٥- التزوج من الأجنبيات وفوائده الضارة.
٦- المأتم: والعادات المتبعة الآن في مصر.

وعرض... شفيق باشا على أعضاء اللجنة نماذج لبدلة من ابتكاره. وكذلك غطاء للرأس عرضنا صوره في العدد الماضي. وانتهت اللجنة إلى أنها لا تزال مقيدة بالمبدأ العام لمجلس إدارة الرابطة، وهو: ضرورة التمشي مع الأصلح في حدود المميزات الشرقية والاحتفاظ بالتقاليد القومية، مع ضرورة التمسك بالزي القومي الذي أقره العرف مع العمل على تحسينه من الوجهتين الصحية والاقتصادية.

كل واحد حر...!

كان الناس يتابعون هذه المساجلات على صفحات الجرائد والمجلات، فيتملكهم الحماس حيناً، والفتور أحياناً، حتى غلب عليهم الملل والضجر من كثرة الجدل. وتعبيراً

عن هذه الحالة بعث أحد القراء إلى «المصور» برسالة قال فيها: «ألم توجد قضية تشغل رؤوس المفكرين غير قضية لباس الرأس؟ أرجو من هؤلاء المخترعين أن يصرفوا هذا الذكاء النادر عن هذا التيار غير النافع، ويستعملوه في اختراع شيء ينفع الأمة، ويتركوا الطربوش... اللي مضايقهم واللي أخذنا عليه»...

وعلق محرر المصور... على الرسالة بقوله: حقاً يا حضرة المراسل، لقد أصبحت مشكلة غطاء الرأس تشغل الناس إلى حد أهملوا معه أعمالهم وأشغالهم وواجباتهم المقدسة لإجهاد الفكر في حل هذه المشكلة التي جعلوها معضلة وطنية قومية كبرى. لقد تضايقت أنا أيضاً مثلما تضايقت أنت من هذه العاصفة الهوجاء التي هبت حول هذه المسألة البسيطة... كل واحد حر في أن يضع على رأسه الغطاء الذي يريد.. اللي عاوز يلبس طربوش... أو برنيطة أو قاووق أو كوفيةوعقال... يلبس... واللي عاوز يمشي عاري الرأس يمشي عاري الرأس، ولكن فضونا يا قوم من هذا المشكل، فأمامنا، ما هو أعظم وأهم...

معركة الطربوش في أفغانستان

وفي الوقت الذي هدأت فيه معركة الطربوش في مصر نراها قد تفجرت في مواقع أخرى من العالم الإسلامي ومنها أفغانستان حيث كان ملكها «أمان الله» يخوض حرباً ضد مظاهر الحياة الشرقية في بلاده، ومنها الزي، على نمط الحركة الكمالية في تركيا، وخاض في سبيل ذلك حرباً ضارية في مواجهة التيار المحافظ، حتى أطاحت بعرشه في عام ١٩٢٩.

في العام السابق قام الملك أمان بجولة واسعة زار خلالها مصر والدول الأوروبية وكان يتابع باهتمام أنباء المعركة الدائرة في مصر حول «الطربوش». وفي ختام جولته زار إيران. وكان حسن نشأت باشا سفيراً لمصر في ظهران. ويروى في مقال له في (الهلال) ما جرى بينه وبين ملك الأفغان أثناء حفل العشاء الذي أقامه الشاه رضا بهلوي. ووقف السفير المصري ضمن الضيوف وهو يرتدي حلة التشريفة وعلى رأسه الطربوش. في انتظار مرور الشاه والملك للمصافحة، وما كاد الملك يلمح السفير المصري حتى تنحى عن الشاه، واندفع نحو نشأت ووجه إليه كلمات بالفارسية لم يفهمها. وتولى المترجم تفسيرها. وقال للسفير: إن جلالة الملك يسألك: ألا يزال المصريون يلبسون الطربوش حتى اليوم برغم ما أوصاهم به جلالته قبل سفره من مصر؟ فأجاب السفير: نعم، أن المصريين لا يزالون يلبسون الطربوش، وسيظلون يلبسونه إلى أجل بعيد.

فعاد الملك يسأل في دهشة: كيف يحدث هذا بعد الوصية التي قدمتها إليهم على لسان صحافتهم؟ فأجاب نشأت بأن المحافظة على تقاليد الآباء والأجداد هي قوام الحياة المصرية، ولهذا لا يترك المصريون الطربوش لأنه من تلك التقاليد. فقال جلالته: ولكن الطربوش لم يكن في وقت ما شعاراً للمسلمين، والرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته لم يلبسوه فعاد السفير يقول: ليس من المصريين من يعتقد أن الطربوش رمز للإسلام، بل هم يعلمون أنهم أخذوه عن الأتراك الذين أخذوه عن اليونان، غير أنه أصبح من التقاليد المرعية التي يحافظون عليها، وهنا قال جلالته: إن التقدم العصري يقتضي نبذ الطربوش. فقال نشأت: ما دمتم قد سمحتم بذكر الدين في هذا المقام، فأرجو أن تسمحوا لي بأن أبين لكم أن الله عز وجل قد ذكر المؤمنين بأن التغيير في سبيل الرقي المطلوب لا يكون بتغيير الأزياء الخارجية، وإنما بتغيير ما انطوت عليه النفوس، قال تعالى: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

واستغرق هذا الحوار بين الملك والسفير المصري وقتاً طويلاً، بينما توقف الموكب كله عن السير، حتى استاء الشاه «رضا» من إغفاله واقفاً فألقى بجسمه الضخم على مقعد.

وبعد عودة الملك أمان الله إلى بلاده أصدر أمراً عاماً بنبذ الزي الوطني، وفرض الزي الإفرنجي والقبعات بالقوة، وأمر بإحضار جميع أعضاء المجلس الوطني، وهم زعماء العشائر، ثم استدعى فرقة من الحلاقين وأمرهم بقص لحاهم، ثم نزع عنهم ثيابهم الوطنية وألبسهم بذلات (ردنجوت) كان قد أحضرها معه من أوروبا، ووضع القبعات على رؤوسهم، ولم يسمح لهم بممارسة أعمالهم إلا بعد ذلك، فعادوا ساخطين ثائرين. وكان ذلك من الأسباب التي حفزتهم على الثورة وخلع الملك أمان الله.

أين القبعة يا عزمي؟

ووصلت أصداء معركة الطربوش والقبعة إلى كل الأقطار العربية، وكان أهلها يتابعون ما تنشره الصحف المصرية من آراء وصور وخطب وفتاوى، وكانت الجمعيات الثقافية تبعث إلى جمعية الرابطة الشرقية برسائل تقول فيها إنها تنتظر قرار الرابطة حتى تسير على هديه. ووصلت أنباء الدعوة التي كان يتزعمها الدكتور محمود عزمي إلى مدينة طنجة الساحلية على المحيط الأطلسي، ويروي الدكتور حسين مؤنس في كتابه (مصر ورسالتها) قصة سمعها من أحد أبناء هذه المدينة للدلالة على ذيوع الثقافة المصرية في كل ربوع البلاد العربية، واهتمام المواطنين العرب بكل ما يجري في مصر، ففي عام ١٩٤٧ بعد عشرين سنة من اشتعال معركة الطربوش والقبعة ذهب الدكتور محمود عزمي في زيارة صحفية إلى

طنجة، وبينما هو يجلس وحيداً على شاطئ المحيط، فوجئ بصوت يهيب به: أين القبعة يـــا دكتور؟ فوجم الرجل، إذ أن قائل هذه العبارة لا بد أن يكون قد تابع عزمـــي في مراحـــل حياته كلها، ومنها انحيازه الحماسي للقبعة، ومع أن محمود عزمي قد أقلع عن لبس البرنيطة وعاد إلى لبس الطربوش، ومرت على ذلك سنوات وسنوات حتى نسي النـــاس في مصـــر قبعته وحكاياتها، فإن المواطن الطنجي لم ينس، وجاءت عبارته مثار أعمق عاطفة إنسانية في قلب ذلك المصري الكريم الذي أطربه أن يجد على ساحل الأطلسي من يعرف عنه ذلـــك كله، فاعتنقه اعتناق الشقيق للشقيق.

جمال بدوي

المصدر: مجلـــة المصـــور ــ ٧٥ عامـــاً ــ

شاهد عيـــان علـــى الحيـــاة المصـــرية ــ

دار الهلال ــ مصر ٢٠٠١.

قضية المشد

٣٩. باب المراسلات

التمدن والمشدُّ

حضرة الفاضل منشئ الهلال الأغر

قال أحد فلاسفة هذا العصر إن الحضارة قد بلغت في المغرب أوجها وأدركت منتهاها وفي زعمه أنه لا يمضي زمن طويل حتى تأخذ في التقهقر فتعود تلك البلاد رويداً رويداً على حالتها الهمجية الأولى. وأسند قوله هذا على ما جلبته الحضارة من الحيف والمضار على النوع الإنساني مما يدل على انقلابها ودنو أجلها وبرهانه على ذلك قياسي وذلك أن كل أمر يحدث في الكون يمر في أدوار أشبه بأدوار الحياة فإذا بلغ منتهاه من الارتقاء يعود فيأخذ في التقهقر حتى تعمل به يد الاضمحلال فيزول تماما فالإنسان مثلاً يبتدئ بدور الطفولية ويتدرج منها إلى الشبيبة فالكهولة ومنها يأخذ في التقهقر تدريجياً إلى الشيخوخة فالهرم إلى أن يضمحل. وعلى ما أرى أن ذلك القول حق إذ لا يخفى على المراقب المختبر أن المضار الناتجة عن التمدن آخذة في الزيادة وسرعة الانتشار يوماً فيوماً حتى لحق بعضها بشرقنا ولا تلبث أن تنشب أظفارها في كل بقعة ارتفعت فيها الحضارة. وأنواع تلك المضار كثيرة لا أقصد البحث فيها لأن ذلك يستدعي فصولاً إضافية مما تقصر عنه هذه العجالة إنما المراد الكلام عن واحدة منها وهي استعمال المشد (Corset).

المشد جزءٌ مهم من ثياب النساء الإفرنجيات والمتفرنجات تشد به المرأة خصرها لتخفي غلظهُ الطبيعي أو تكسبهُ نحولاً اصطناعياً يروق منظره. ولفظة مشد التي يسمي بها السوريون هذا الحزام ينطبق معناها على المراد منه تماماً على أن البعض يطلق عليه كلمة كورسه وهي اسمهُ الإفرنجي كما ندعو أكثر الأشياء الدخيلة علينا من المغرب و لم يكن يعرفها آباؤُنا وأجدادنا بأسمائها الإفرنجية.

والمشد حديث العهد يقال إن السبب في استنباطه أن امرأة افرنسية ذات جمال فتان وقوام عادل يضرب بهما المثل داهمها السمن فغلظ خصرها وحط من قدر حسنها فعيرتها رفيقاتها المناظرات لها في الجمال فعملت بها الغيرة فأخذت تشد خصرها بحزام عريض لتكسبه شكلاً حسناً فنجح عملها وكفت رفيقاتها عن تعييرها وقد أعجبت حيلتها هذه كل غليظات الخصور نحيفات العقول اللواتي سمعن بها فحذون حذوها. وزادت كل

واحدة في إتقان صنعه حتى انتهى إلى الشكل الذي هو عليه الآن. وقد انتشر استخدام المشد في المغرب بسرعة كلية وعمَّ كل البلاد التي دخلها الإفرنج حتى أصبحت تلك الآلة الضاغطة في أيامنا هذه من أهم لزوميات النساء والبنات الإفرنجيات والمتفرنجات تلبسه غليظات الخصر ونحيلاتهُ على حد سواء وكل منهن تبالغ جهدها في زيادة الضغط لتحرز المقام الأوَّل في رقة الخصر وقد يأخذك العجب إذا وجدت بين رهط من لابسات المشد مما تراه من رقة الخصر وضخامة الصدر والأوراك فيخال لك أن المرأة نحلة مجسمة يكاد خصرها ينقد إن هي حاولت الانحناء فتتذكر حينئذ قول الشاعر:

وبخصرها هيفٌ يزينهُ   فإذا تنوءُ يكاد ينقدُّ

والغريب أن بعض النساء اعتدن لبس المشد منذ الصغر فلا يكتفين بلبسه في الأندية والاحتفالات التي تستدعي إتقان الملبوس بل يلبسنه أينما كنَّ حتى في بيوتهنَّ ومن النساء من تلبسه منذ قيامها من النوم ولا تبدأ عملاً بدونه وأغرب من هذا وذاك أن من المتفرنجات من يتعذر عليها الرقاد إذا خلعنه فهي تلبسه نهاراً وليلاً ولا تنزعهُ إلا إذا اتسخ فتبدله بآخر نظيف كما تفعله بباقي ثيابها الضرورة فتأمل.

وإذ قد عرفت ما هو المشد والسبب الذي وجد لأجله أعرني أذناً صاغية فأذكر لك الأضرار التي تنتج عن استعماله فإذا أمعنت النظر في لابسة المشد تحققت أنه ضاغط يكتنف قسمين من جسمها أعلى البطن وأسفل الصدر وهما يحتويان أعضاء التنفس الرئيسية في حفظ الحياة وهي القلب والرئتان والكبد والمعدة والأمعاء. فتضييق المشد على هذه الأعضاء يسبب أضراراً تختلف باختلاف العضو الذي أنهكه الضغط وأضعف عملهُ. فوقوع الضغط على الرئتين يضعف حركتهما فينتج ضيق النفس والخفقان وقد يضعف نموهما في الفتيات اللواتي يستعملن المشد قبل إدراك سن الحلم مما يؤول أحياناً إلى الهزال والنحول وربما ساقهن إلى داء السل لعجز الرئتين عن القيام بوظيفتهما وهذه حقائق لا ريب فيها أثبتتها دقة الباحثين ونباهة المراقبين من أطباء عصرنا الذين لا يسعنا إلاّ الرضوخ لما يقولونه. أما القلب فتضعف حركته من شدة الضغط فيعتري الامرأة خفقان شديد ويتضخم القلب من الجهاد في العمل للمحافظة على نظام الدورة الدموية التي تتوقف الحياة عليها. وإذا طالت مدة الضغط عجز القلب عن المقاومة فتختل حركة الدورة الدموية وتصبح الحياة على شفيرها. ووقوع الضغط على الأمعاء يعيق سير المواد الغذائية فيها وربما نتج عن ذلك إمساك شديد يكثر حدوثه في لابسات المشد. أما

المعدة فيقع عليها معظم التضييق لوجودها في منتصف الخصر فيضعف عملها وبعض النساء إذا لبست المشد لا تقوى على تناول أسهل الأطعمة هضماً ومتى تكرَّر عسر الهضم نشأت النزلات المعدية الحادة التي لا تلبث أن تصير مزمنة وهي من أقبح الأمراض لتعذر شفائها. والكبد لا يصيبه أقلُّ مما يصيب المعدة لوقوعه في جوارها فتكثر فيه الاحتقانات وربما لحقهُ من استمرار الضغط ضمور أو انحراف فقد ذكر أحد المشرحين أنه شاهد في جثث نساء أفرطن من لبس المشد في حياتهنَّ آثار الضلوع مرسومة في الكبد على شكل خطوط قنوية غائرة في سطحه. وفي جسم الامرأة عضو آخر مهم غير التي ذكرتها يضرُّ به فعل المشد وهو الرحم لا سيما مدة الحبل حيث يقع الضغط عليه مباشرة فينتج عن ذلك أضرار جمة أهمها الإجهاض والأنزفة والانقلابات الرحمية. ثم إن المشد إذا استعمل منذ الحداثة يعيق نمو الثديين ويغير شكلهما فتغور الحلمة وتفقد وظيفتها فيتعذر الإرضاع بها بعد الزواج لقصور الطفل عن التقاطها ولا يخفى على ذوات الحلمات الغائرة من عرائس آيامنا ما ينتج عن ذلك من الصعوبة في إيجاد طريقة لإرضاع المولود وأخرى للتخلص من احتقان الثدي.

هذه هي بعض أضرار المشد مشروحة بلا غلو ولا مبالغة وأوجّه الكلام الآن إلى الجنس اللطيف علهنَّ ينبذن المشد جانباً مكتفيات بما أعطين من الجمال الطبيعي تاركات التجمل الاصطناعي على أني لم آت بما تقدم إلاَّ حباً بالنفع العام وخلاصة ما يقال أن الجمال الحقيقي لا يتم إلاَّ بالصحة الجيدة والمشد مضر بالصحة والسلام.

القاهرة

الدكتور شدودي

المصدر: مجلة الهلال ـــ ١٨٩٥/١٠/١.

٤٠. باب المقالات

المشدُّ

الهلال

المشدُّ ويسميه الإفرنج كورسيه (Corset) أداة تتخذها النساء لشد أوساطهنَّ وضغطها حتى تدق خصورهنَّ وتمشق قاماتهنَّ ولو أورثهنَّ ذلك سقم الأجسام وقصر الأعمار وهي آفة من آفات التمدن الحديث نعوذ بالله منها فالمشد لا نزيد القراء ولا سيما السيدات الفاضلات علماً بأنه من أكثر العوائد ضرراً وأشرها عاقبة فقد طالما شاهد سيداتنا ذلك وسمعنه إذ لا يخلو أنهنَّ عرفن صديقة لهنَّ قضت حياتها عليلة وأخرى ساقت نفسها إلى حتفها في عنفوان شبابها وأخرى شوَّهت جسمها وعطلت أهم أعضائها وأصبحت حملاً ثقيلاً على كاهل الهيئة الاجتماعية وكل ذلك من عواقب استخدام المشد. والغريب أنه شائع أيضاً بين الفئة العاقلة من السيدات وأغرب من ذلك أنهنَّ يتحدثن بأضراره ويشاهدن عواقبه شهادة عين وبعضهنَّ يذقن مره بأنفسهنَّ وهنَّ مع ذلك لا يزددن إلاَّ رغبة وإعجاباً به فإذا همَّت ابنة أواخر القرن التاسع عشر بزيارة جاءت بتلك الآلة الجهنمية وإذا لم يكن في البيت من يساعدها في لبسه استدعت جارتها وكلفتها (والدنيا قرض ووفاء) أن تساعدها في شده فتتعاونان في ذلك وهي تنظر إلى المرآة حتى ترى الخصر قد نحل واستدق ولا تبالي بما ضاق من صدرها والحصر من أحشائها أو تلبد من أمعائها وقد تفعل ذلك قبيل أوان الطعام لئلا يحول امتلاء معدتها بينها وبين ما تريد ثم تتناول الغداء أو العشاء وقد يلذُّ لها التأنق فتكثر من الألوان متجاهلة عما تقاسيه من ثقل الطعام وما يعقبه من عسر الهضم فلا تلبث أن تشعر بالتخم المعدية والقراقر البطنية على أن ذلك مغتفر عندها بجانب ما تؤانسه من دقة الخصر واعتدال القوام.

مهلاً أيتها السيدات الفاضلات لا تزيدكن علماً أن التبرج صورة زائلة والصحة جوهرة ثمينة إذا فقدت قد يستحيل استرجاعها فهلاَّ أقلعتنَّ عن هذه الآفة الوخيمة واكتفيتن بما منحتكن الطبيعة من الجمال والزينة هل ضرَّ ملكات الجمال اللواتي نبغن قبل شيوع المشد أنهنَّ لم يلبسنهُ وهل قلل ذلك شيئاً من منزلتهنَّ.

وقد يعتذر بعض السيدات بأنهن إنما يستخدمن المشد لمجرد التدفئة أو شد الأوساط وربما قلن إنهُ عادة قديمة اتخذها اليونان والرومان منذ أجيال. نقول نعم قد اتخذوه رجالاً

ونساءً ولكنه لم يكن حقيقة إلاّ منطقة عريضة من نسيج يشدون بها أوساطهم إذا ركبوا الأفراس في ساحة السباق صوناً للجزع من كثرة الاهتزاز وكذلك يفعل الآن بعض أهل البادية إذا ركبوا فرساً أو هجيناً سريعاً وقد يتخذه بعضهم لشد أوساط الأطفال في أوائل أيامهم خوفاً عليهم من ليٍّ أو صدع أو فكش أو كسر ولكن ذلك شيء والمشد الذي نحن في صدده شيءٌ آخر ولبيان أضرار هذه العادة تشريحياً نقول:

تقسم الأحشاء في الإنسان إلى قسمين أحشاء صدرية موضوعة في التجويف الصدري وأحشاء بطنية موضوعة في التجويف البطني وأهم الأحشاء الصدرية القلب والرئتان وأهم الأحشاء البطنية المعدة والأمعاء والكبد والطحال ولكل من هذه الأعضاء عمل خاص به لا يتم إلاّ إذا كان ذلك العضو مستقرًّا في مكانه مطلق الحرية في حركاته فإذا ضغط ضعف عمله وقد يبطل فضغط الصدر يضيقه فتنحصر الرئتان فيضعف التنفس فيقلُّ تأكد الدم فيفسد ويتلبك عمل القلب والضغط على الأحشاء البطنية يعيق حركات المعدة والأمعاء ويعطل عمل الكبد فيختل الهضم وتسوء التغذية وكل ذلك مما يعطل عمل الأحشاء البطنية ويضعف الأعمال الحيوية وما عاقبة ذلك إلاّ المرض والسقم والمشدُّ أكبر مساعد على ذلك.

وترى في الشكل أمامك صورة الجزع في حالتيه مع المشد وبدونه فالشكل الأوّل صورتهُ بدون المشد فالأحشاء البطنية فيه بمواقعها الطبيعية ففي القسم العلوي منه وهو التجويف الصدري الرئتان والقلب وفي القسم السفلي وهو التجويف البطني الكبد والمعدة والأمعاء فترى الرئتين مالئتين التجويف الصدري والقلب بينهما في سعة وترى الكبد والمعدة شاغلتين مكان الخصر وعليهما أهم أعمال الهضم وتحتها الأمعاء وكل من هذه الأحشاء في مقره الطبيعي يعملٍ عمله بنشاط وراحة فالرئتان تعملان عمل التنفس بالتمدد والانقباض وذلك لا يتم إلاّ إذا كان الجدار الصدري مطلقاً يتحرَّك بسهولة فإذا ضغط أعيق التنفس فتسرع الدورة ويقلُّ التأكسد فيفسد الدم كما تقدم ومثل ذلك الكبد فبالضغط يضعف عملها فيتلبك الهضم وتسوءُ التغذية. فإذا تأملت في الشكل الثاني رأيت الضغط قد ضيق التجويف الصدري وقلّل حجم الرئتين حتى ضغطت على القلب وترى الخصر قد ضاق حتى لم يسع غير الكبد وقد ذهب بالمعدة إلى أسفل الأحشاء البطنية ناهيك عما لحق بالأمعاء من الضرر ومن غريب ما رواه الأطباء الذين شرحوا جثث المغرمات بالمشد أنهم شاهدوا الكبد قد تشوَّه شكلها وارتسمت صور الأضلاع عليها كأنها غرست فيها.

ومن الأمراض الناجمة عن استخدام المشد السلّ وسائر أمراض القلب والدسبيسيا بأنواعها وسائر أمراض الكبد وغيرها مما لا يقع تحت الحصر. وزد على ذلك أنه تقرر لدى علماء الفنون الجميلة أن المشد يشوه شكل الصدر ويبعده عن حدود الجمال الطبيعي.

فالمشد ليس فقط مضرًّا بالصحة بل هو مفسد لتكوين الأحشاء وذاهب بالجمال فيا حبذا لو اشتغلت السيدات عنه بما هو أحفظ لصحتهنّ وأجدى لمنازلهنّ وأولادهنّ والله يهدي من يشاء.

الهلال

المصدر: مجلة الهلال ١٥/١٠/١٨٩٦.

٤١. كورسيه (مشد) صحي جديد

جاء في «طبيب العائلة» ما نصهُ:

«ليست هذه أوَّل مرة تكلمنا فيها عن الكورسيه تلك الآلة المضرة بصحة السيدات بل المؤثرة على أخلاقهنَّ. فقد أبنَّا في الأعداد السابقة الأضرار الناتجة من استعمالها ونحن إنما نعلل النفس بالمستحيل إذا أشرنا عليهنَّ بترك الكورسيه والاستغناء عنه كلية فإن ذلك لدى السواد الأعظم منهنَّ من قبيل الضرب على حديد بارد أو الكتابة على صفحات الماء ولا شك عندنا أن كلامنا يذهب كله أدراج الرياح ولا يلتفتن إليه.

ولعلمنا ذلك جئنا اليوم نطلب منهنَّ أن يخترن من الضررين أخفهما فقد اخترعت إحدى الطبيبات السيدة جاش ساروت (Gaches Sarraute) مشدّاً صحياً جديداً لا يسبب الأضرار الناشئة عن الكورسيه العادي المستعمل الآن وقدمت إلى أكاديمية الطب الفرنساوية ثلاث رسوم مأخوذة بواسطة أشعة رتنجن. فالرسم الأوَّل يمثل امرأة عارية بشكلها الطبيعي. والرسم الثاني يمثل تلك الامرأة لابسة الكورسيه العادي (وفي هذا الرسم يظهر ضغط الكورسيه على المعدة والأمعاء والكبد) والرسم الثالث تمثلها لابسة الكورسيه الصحي وفيه يظهر الفرق بين الاثنين وعدم ضغط هذا الكورسيه على الأعضاء. وبالاختصار إن للكورسيه على العموم شروطاً صحية يلزم أن تكون مستكملة فيه منها أن لا يغير شكل الثديين وأن لا يضغط على المعدة والأمعاء وأن لا يشد على الجانبين شدّاً زائداً فإذا جمع هذه الشروط خفَّ ضرره كثيراً».

الهلال

المصدر: مجلة الهلال ١٨٩٧/٥/١

٤٢. أضرار المشدّ (البوستو)

نجيب الحدّاد [١٨٦٨–١٨٩٩]

من يرى القامة الحسناء مائلة يحسبها غصن بانة. ويبصر الجسم اللطيف يجرحه النسيم ويدمي لمس الحرير بنانه. ويختال لديه القدّ الرشيق تكاد تجرح عطفيه الثياب. ويخطر أمامه القوام المترف تكاد تؤثر في أعطافه ثنايا الجلباب. ولا يأسف على ذلك الخصر النحيل تضغطه عوامل الصنعة ومزاعم التحسين. وذلك الجسم الناعم تشدد أيدي القسوة فتضيّع ما فيه من اللطافة واللين. وهو يعلم أن ربّته تؤثر فيها كسف اللامس العاشق كما تؤثر في وجناتها لحظات المغرم الواقع. بل أية عين ترى الحسناء تشدّ بأطراف مشدّها القاسي تلك القامة الهيفاء. وتبصر ذلك العطف الناحل تنضمّ أعضاؤه المترفة تحت أيدي الحسان من النساء. وطمعاً في زخرف باطل لا يريد القوام حسناً كما يزيد من السقم والداء. ولا تحزن على تلك الجسوم بما يصيبها من أنواع الاعتلال وتدمع لتلك الأعطاف الناحلة أن تزيدها ربّاتها انتحالاً على انتحال. وما برح المرء عدوّ نفسه وما زال الحسن مجلبة الوبال.

وقد قرأنا في إحدى الجرائد الأوروبية الأخيرة مقالة تحت هذا العنوان دلّت على كره الإفرنج أنفسهم لهذا النوع المضرّ من ملابس النساء وطول كتابتهم فيه وطعنهم على استعماله حتى لقد سمعنا أن بعضهم نشر في إحدى المجلاّت مقالة يطلب فيها من الحكومة الفرنسوية أن تضع ضريبة على كل امرأة تشدّ خصرها بمشدّ فأحبت جريدة الغولوا أن تعرف آراء الناس في هذا الأمر ونشرت شيئاً عن ذلك المعنى فكان من أجوبة الباريزيين عليه ما يأتي:

أخبركم أنني أكره استعمال المشد كل الكره لأنه مضرّ بالجسم ومعطّل للجمال ينقص محاسن الحسناء ولا يزيد جمال سواها. وليس من قصدنا الآن بيان مضرات المشد لجسم من حيث الطب ولا تفصيل الأمراض التي تنشأ عنه فإن ذلك من شؤون الأطباء ولهم وحدهم العلم الصحيح في حقيقة أضراره. ولكن الذي نريد بيانه هنا مضراته الأدبية من تعطيل الحسن وإيقاف الحركة وتقييد الجسم وإيراد ما يراه الناس فيه من سوء الوضع وكراهة الاستعمال وشدة الضغط على قوام تمدّ الكف منه إلى خصر نحيل فلا تقع إلا على مثل الدرع الثقيل يليق أن يرتديه الفارس الكميُّ لا قَدُّ المرأة الهيفاء التي حصّنها الله بلين القوام فجعله صلباً قاسياً وميزها بميل المعاطف ورقّة الخصر فجعلته

بيدها جامداً جاسياً وعسى أن يقع كلامنا لدى نساء الشرق موقع الاستحسان بعد أن نقلنا لهم من كلام أهل الغرب الناقلين عنهم هذا الاستعمال ما فيه الكفاية عن مزيد البيان. فإن القوام إذا لم يزينه جمال الطبيعة لم تفده صنعة الجمال.

والخصر الناحل في غنى عن هذا المشد الذي لا يفيد سواه في حال. ورحم الله شيخنا اليازجي حيث قال:

إن المليحة من كانت محاسنها من صنعة الله لا من صنعة البشر

نجيب الحدّاد

المصدر: منتخبات نجيب الحداد

لا مكان للطبع ولا تاريخ

طبع الكتاب للمرة الأولى في مصر، ١٩٠٣.

٤٣. الفصل الخامس عشر

«جناية أوروبا»

أحمد فتحي

وأخذ فريد في إعداد معدات الحفلة التي وعد بها فلما تأهب للعمل وكان الوقت صيفاً أصلح حديقة منزله ورتب فيها المقاعد على أحسن نسق فكان المنظر مبهجاً والاحتفال عظيماً. ودعا كبراء المدينة وعظماءَها من الأعيان والحكام والإخوان والأصحاب فأرسل إلى كل منهم بطاقة الدعوة مطبوعة على هذه الصورة:

حضرة الأفخم

بما أن مهنتي تدعوني للاطلاع على جميع الآلام والأمراض فقد اطلعت منها على ما لا يحصى وباشرت ما لا يحصر وكنت أصف لكل داء دواءَهُ الذي قررته له آباؤنا الحكماء من قبل أو ما اكتشفه الأطباء العظماء من قديم وحديث فكان بقدرة الله يتم بواسطته شفاءُ غالب المرضى.

إلا أن داءً وبيلاً يختص بالنساء ظهر حديثاً لم تكن أجدادنا تعلمه وفشا بينهن ففتك بأكثرهنَّ فتكاً ذريعاً حتى صارت من تموت من الغربيات عموماً والمتمدنات من غيرهنَّ خصوصاً تذهب شهيدته إلا قليلاً وهنَّ غير شاعرات.

وإنما قلت من الغربيات عموماً لأن جرثومة الداء خرجت من الغرب ولذلك قام علماؤه وحكماؤه قومةً واحدة لمقاومته وأخذوا في وصف الدواء الشافي منه.

وإني خدمةً للإنسانية ودرءاً لشر هذا الداء الخبيث عن نساء بلادنا عزمت هذه الليلة على دعوة العقلاء أمثالكم ليسمعوا من لسان طبيب وصف هذا المرض وأعراضه والدواء الوحيد لاستئصاله عسى أن يوفقنا الله ويمنحنا قوةً نقف بها في وجهه كي لا ينتشر بين نسائنا فيهلكهنَّ أو يضرّ بهنَّ. وعسى أن تشرفونا في منزلنا بالحمراء في الساعة الرابعة من مساء اليوم

الداعي

الدكتور فريد

ولما تم توزيع أوراق الدعوة وأخذ كلٌّ من المدعوّين بطاقته واطلّع عليها اشتغلت أفكارهم وحارت أفهامهم وانتظروا قدوم تلك الساعة.

ووصلت إحدى تلك البطاقات إلى يد صادق فعرف أنه لا داء غير ما قال له عنه ولا مرض إلاّ المشدّ. وقد تحقق ما ذكر إذ كان يرى ابنتهُ تتقدم إلى الصحة يومياً بعد تركها للمشدّ فعزم على تلبية الدعوة والذهاب في الموعد.

ولم يحلّ الميقات حتى توافدت الوفود وتقاطر المدعوون إلى منزل فريد فكان يستقبلهم وإبراهيم بالبشاشة والإكرام وحالما يجلس أحدهم كان يؤتى بالقهوة إليه. حتى إذا تم عقد نظام الجمع وغصت بهم الحديقة والغرف المطلة عليها قام فريد وكان جالساً بجانب صادق يحادثهُ وربما كان يسأله عن صحة كريمته ويستفسر منه عن حالتها. وصعد على درج يرتفع عن الأرض قليلاً تكسوه سجادة عجمية جميلة الشكل وفي منتصف الصف أمام الجمع صورة معلقة مسدول عليها ستار فلا يظهر منها غير جزء من إطارها الخشبي المزخرف.

فلما وقف فريد في موقف الخطابة على الدرج اتجهت إليه الأنظار وتحولت نحوه الأفكار ولما رأى تطاول الأعناق إليه ابتدأ بالكلام فأنصت الجمع فقال:

أيها السادة العظماء والأصحاء الأعزاء

أرحب بكم وأهديكم شكري لتلبيتكم دعوتي وتشريفكم بيتي وأشكركم عن الإنسانية شكراً جزيلاً. كيف لا وقد جئتم اليوم مشمرين عن ساعد المساعدة للوقوف على معرفة داء فاتك لتردوه والتحقق من دوائه لتصفوه فتخدموا الإنسانية وتنفعوا العباد. فعسى الله أن يهدينا إلى سبيل الرشاد ويوفقنا إلى ما نرجو أنه أعظم موفق وأكرم هاد.

وبعد فكلكم يعلم ما للطب من الفضل على العالم أجمع فهو أساس الأعمال وسيد الفنون ولا يسعنا إلاّ الإذعان لأحكامه إذا اعترانا ألمٌ أو مرض... ومن يتصفح تاريخ الطب من نشأته إلى يومنا هذا يرى اكتشافات الأطباء العظيمة من التلقيح الجدري واستعمال المصل في علاج الدفتيريا وأبحاثهم في علاج الكوليرا وكيفية انتشارها والوقاية منها واكتشاف حقيقة الاختمار وعلاج الكلب على يد باستور وتقدم علم الجراحة واستعمال الكهرباء لشفاء الأمراض وغيرها من الاكتشافات التي لا يحصى عددها ويتعذر عليّ إيرادها لضيق المقام. فطالما انتشل الدكتور جنر باكتشافه التلقيح ألوفاً من الناس كادوا يهلكون من الجدري. وكم حفظ الدكتور رو (ROUX) أطفالاً من غائلة الدفتيريا. وكم غيرهم من الأطباء نفعوا العالم وحفظوا حياة الناس من فتك الأمراض الوبيلة كالكوليرا والطاعون وغيرهما[١].

---

[١] جرجس باسيل عطا الله.

يرى كل هذه الاكتشافات الباهرة ثم يعجب إذ يعلم أن الطب مع كل ما ذكر لم يزل عاجزاً عن إحدى العلل وكيف له بها وإنما هي داءٌ أوجده عقل الإنسان وصنعت جراثيمه يدهُ الأثيمة. ولو كان من الأدواء الطبيعية لهزمهُ العلم على أهون سبيل.

ذلك داءٌ أخرجته أوروبا من خزينة مخترعاتها فجنت به على نفسها والعالم أعظم جناية فقد أضرت به نساء بلادها وغيرهنَّ ممن أُصبنَ به. ولقد تعجبون أشدَّ العجب إذا قلت لكم إنه لا داء ولا مرض بل هو بعض الأزياء من ثياب النساء اخترعته لهنَّ أوروبا فما لبث أن سرى حبهُ في قلوبهنَّ وولعنَ به حتى أخذ لونهنَّ في الاصفرار وجسمهنَّ في الاضمحلال (إعجاب واستحسان).

ذلكم المشدُّ أيها السادة ويسميه الإفرنج كورسيه (Corset).

«جلبة واستغراب».

نعم هو تلك الأداة التي تتخذها النساء لشد أوساطهنَّ وضغطها حتى تدقَّ خصورهنَّ وتمشق قاماتهنّ ولو أورثهنَّ ذلك سقم الأجسام وقصر الأعمار وهي آفة من آفات التمدن الحديث نعوذ بالله منها.

فمن يرى القامة الهيفاء مائلة يحسبها غصن بانة. ويبصر الجسم اللطيف يجرحه النسيم ويدمي لمس الحرير بنانه. ويختال لديه القدُّ الرشيق تكاد تجرح عطفيهِ الثياب. ويخطر أمامه القوام المترف تكاد تؤثر في أعطافه ثنايا الجلباب. ولا يأسف على ذلك الخصر النحيل تضغطه عوامل الصنعة ومزاعم التحسين. وذلك الجسم الناعم تشدُّهُ أيدي القسوة فتضيع ما فيه من اللطافة واللين. وهو يعلم أن ربته تؤثر فيها كف اللامس العاشق. كما تؤثر في وجناتها لحظات المغرم الوامق.بل أيّة عين ترى الحسناء تشد بأطراف مشدها القاسي تلك القامة الهيفاء. وتبصر ذلك العطف الناحل تنضمُّ أعضاؤه المترفة تحت مشد الحسان من النساء. طمعاً في زخرف باطل لا يزيد القوام حسناً كما يزيده من السقم والداء. ولا تحزن على تلك الجسوم بما يصيبها من أنواع الاعتلال. وتدمع لتلك الأعطاف الناحلة أن تزيدها رباتها انتحالاً على انتحال. وما برح المرء عدوٌّ نفسه وما زال الحسن مجلبة الوبال. وأي وبال أعظم من أن تجلب السيدة العلة لنفسها وتشوه بيدها جسمها وتعطل أهم أعضائها وتصبح حملاً ثقيلاً على كاهل الهيئة الاجتماعية وتسوق نفسها إلى حتفها في عنفوان شبابها باستعمالها المُشد «استحسان».

مهلاً أيتها السيدات الفاضلات لا أزيدكنّ علماً بأن التبرج صورة زائلة والصحة جوهرة ثمينة إذا فقدت قد يستحيل استرجاعها. فهلاّ أقلعتنَّ عن هذه الآفة الوخيم

واكتفيتنَّ بما منحتكنّ الطبيعة من الجمال؟ هل ضرَّ ملكات الجمال اللواتي نـبغنَ قبـل شيوع المشدّ أُهنَّ لم يلبسنهُ وهل قلَّلَ ذلك شيئاً من منزلتهنّ؟؟ قد يعتذر بعض السيدات بأهنّ إنما يستخدمن المشدَّ لمجرد التدفئة أو شدّ الأوساط وربما قلن إنه عادة قديمة اتخذها اليونان والرومان منذ قرون. أقول نعم قد استعمله في القدم كثير من النساء والرجـال ولكنه لم يكن بالحقيقة إلا منطقة عريضة من نسيج يشدون بها أوسـاطهن إذا ركبـوا الأفراس في ساحة السباق صوناً للجزع من كثرة الاهتزاز. وكذلك يفعل الآن بعـض أهل البادية إذا ركبوا فرساً جموحاً أو هجيناً سريعاً. وقد يتخذه بعضهم لشدّ أوسـاط الأطفال في أوائل أيامهم خوفاً عليهم من ليّ أو صدع أو كسر ولكـن ذلـك شـيءٌ والمشد الأوروباوي الذي نحن بصدده شيءٌ آخر فهو من حديد كالدرع الثقيل يليق أن يرتديه للفارس الكميُّ لا قدُّ المرأة الهيفاء التي خصها الله بلين القوام فجعلتهُ صلباً قاسياً. وميزها بلين المعاطف ورقة الخصر فجعلته بيدها جامداً جاسياً. عداما قررتـه علمـاء الفنون الجميلة من أن المشدَّ يشوه شكل الصدور ويغير هيئة الثديين فيذهب بالمحاسـن الطبيعية ويطفئ أنوار الجمال الأصلية ولا يزيد المرأة إلا قبحاً وتشويهاً فإن القوام إذا لم يزينه جمال الطبيعة لم تفدهُ صنعة الجمال. والخصر الناحل في غنى عن هذا المشد الـذي لا يفيد سواه في حال. ورحم الله شاعر زمانه الشيخ اليازجي حيث قال:

إن المليحـة مـن كانـت محاسـنها   من صنعة الله لا من صـنعة البشـر

وما أتى فريد على هذا الحد من كلامه حتى صفق له الحضور طـويلاً وهرجـوا فيما بينهم علامة التعجب والإعجاب. فسكت قليلاً حتى أنصت الجمع فقال:

الفصل السادس عشر

«مضار المشد تشريحياً»

هذه أيها السادة مضار المشد الأدبية أما مضاره الطبية فأكثر من ذلك وأوخـم عاقبة فإن السيدة لتلبس مشدها وهي تنظر إلى المرآة معجبة بنفسها حين ترى الخصـر قد نحل واستدق ولا تبالي بما قد ضاق من صدرها والهصر من أحشائها أو تلبـد مـن أمعائها وقد تفعل ذلك قبيل أوان الطعام لئلا يحول امتلاء معدهّا بينها وبين ما تريد من تصغير خصرها رغبة في الجمال على زعمها ثم تتناول الغداء أو العشاء وقد يلـذ لهـا التأنق فتكثر من الألوان متجاهلة عما تقاسيه من ثقل الطعام وما يعقبه من عسر الهضم

فلا تلبث أن تشعر بالتخم المعدية والقراقر البطنية على أن ذلك مغتفر عندها بجانب ما تؤانسه من دقة الخصر واعتدال القوام وبروز الأعضاء.

ولبيان مضار المشد تشريحياً أقول لكم إن الأحشاء في الإنسان تقسم الأحشاء إلى قسمين: أحشاء صدرية موضوعة في التجويف الصدري. وأحشاء بطنية موضوعة في التجويف البطني. وأهم الأحشاء الصدرية القلب والرئتان. وأهم الأحشاء البطنية المعدة والأمعاء والكبد. ولكل من هذه الأعضاء عمل خاص به لا يتم إلا إذا كان ذلك العضو مستقراً في مكانه مطلق الحرية في حركاته فإذا ضغط ضعف عمله وقد يطل. فضغط الصدر يضيقه فتنحصر الرئتان فيضعف التنفس فيقل تأكسد الدم فيفسد ويتلبك عمل القلب. والضغط على الأحشاء البطنية يعوق حركات المعدة والأمعاء ويعطل عمل الكبد فيختل الهضم وتسوء التغذية. وكل ذلك مما يعطل عمل الأحشاء البطنية ويضعف الأعمال الحيوية وما عاقبة ذلك إلا المرض والسقم والمشد أكبر مساعد على ذلك. (استحسان شديد).

ثم مد يده إلى الصورة المعلقة خلفه على الحائط فرفع الستار عنها فتحولت إليها أنظار الجمع فقال كلكم يرى في الشكل أمامه صورة الجزء في حالتيه مع المشد وبدونه. فالشكل الأول صورته بدون المشد تظهر فيه الأحشاء البطنية بمواقعها الطبيعية ففي القسم العلوي منه وهو التجويف الصدري الرئتان والقلب وفي القسم السفلي وهو التجويف البطني الكبد والمعدة والأمعاء فترى الرئتين مالئتين التجويف الصدري والقلب بينهما في سعة وترى الكبد والمعدة شاغلتين مكان الخصر وعنيهما أهم أعمال الهضم وتحتها الأمعاء وكل من هذه الأحشاء في مقره الطبيعي يعمل عمله بنشاط وراحة. فالرئتان تعملان عمل التنفس بالتمدد والانقباض وذلك لا يتم إلا إذا كان الجدار الصدري مطلقاً يتحرك بسهولة فإذا ضغط عيق التنفس فتسرع الدورة ويقل التأكسد فيفسد الدم كما تقدم. ومثل ذلك الكبد فبالضغط يضعف عملها فيتلبك الهضم وتسوء التغذية. فإذا تأملتم في الشكل الثاني رأيتم الضغط قد ضيق التجويف الصدري وقلّل حجم الرئتين حتى ضغطت على القلب. وترون الخصر قد ضاق حتى لم يسع غير الكبد وقد ذهب بالمعدة إلى أسفل الأحشاء البطنية. فضلاً عما لحق بالأمعاء من الضرر[1].

---

[1] الهلال.

ولم يأت فريد إلى هذا الحد من كلامه حتى تمامس الحضور أولاً ثم علت ضجة الدهشة بينهم وكثر التفات بعضهم إلى بعض علامة الاستغراب فمن قائل أعوذ بالله من المشد. ومن قائل لا جزى الله مخترعه خيراً إلا غير ذلك من عبارات التأفف والحقد والاستياء لما أثر فيهم من كلام الخطيب.

ولكن فريداً تحرك في موقفه استعداداً للكلام فسكت الجميع فقال مستأنفاً: وأي ضرر أيها السادة أكثر من أن تفقد الأعضاء أشكالها الطبيعية فلقد أبان تشريح جثث المغرمات بالمشد أن الكبد قد تشوه شكلها وارتسمت صور الأضلاع عليها كأنها غرست فيها وأن غدداً عديدة ناتئة قد أخذت تنمو في الأحشاء الصدرية وتحت الآباط[1] هذا عدا ما ينتجه من الأمراض الوبيلة كالسل والدسبيسيا بأنواعها وسائر أمراض القلب والكبد وغيرها مما لا يقع تحت الحصر. «جلبة شديدة».

هذا بعض من كل مما ينتج عن تلك الجناية الفظيعة التي جنتها أوروبا على نفسها والعالم باستنباطها هذا الزي من لبس النساء ولقد أحست بضرره الفاحش وعاقبته الوخيمة فقام عقلاؤها يقلبون له ظهر المجن ويحثون النساء على تركه وينذرونهن بسوء العافية إذا أصررن على استعماله. واشتغلت جرائدهم حيناً من الدهر ولا تزال تشتغل بنشر المقالات الدالة على كره الإفرنج أنفسهم له حتى لقد نشر بعضهم في إحدى المجلات الباريزية مقالة يطلب فيها من الحكومة الفرنساوية أن تضع ضريبة على كل امرأة تشد المشد. وأحبت جريدة الغولوا أن تعرف آراء الناس في هذا الأمر فنشرت شيئاً عن ذلك المعنى فكان من أجوبة الباريزيين أن قال: «أخبركم أني أكره استعمال المشد كل الكره لأنه مضر بالجسم ومعطل للجمال ينقص محاسن الحسناء ولا يزيد جمال سواها»[2].

وطلب أحدهم أن تتألف جمعية تحرم على أعضائها الاقتران بمن تستعمل المشد من النساء. وأحصى أحد الأطباء الأوروبيين حوادث الإجهاض فراعته كثرتها فدأب على معرفة السبب فوجد أن جلّها مسبب عن استعمال صاحباته للمشد «دهشة عظيمة».

وأفاضت جرائدنا العربية على اختلافها في هذا الموضوع ونقلت أقوال الإفرنج فيه وآرائها هي عنه ومنها ما جاء في مجلة طبيب العائلة الغراء في الجزء الرابع من السنة الحادية عشرة وهو هذا بنصه الشائق:

---

[1] سليم زاكي كوهين.

[2] المرحوم الشيخ نجيب الحداد.

«لم تخلُ سنة من سني طبيب العائلة الماضية من مقالة أو نبذة أو كلمة عن أضرار لبس المشد للنساء ولكن يظهر أنه كلما أكثر المرشد الصحي من تبيان أضرار هذه الآلة الضاغطة زاد النساء في لبسه اتباعاً للتقليد والمودة! فكأنه يكتب لأناس لا ينظرون ولا يسمعون أو يكتب على صفحات الماء أو كأنه يعظ في الصحراء على قول المثل الفرنساوي. ولكن على المرشد الصحي فرض يجب أن يؤديه فقد خصص نفسه لإرشاد الجمهور إلى ما فيه نفعهم فهو يواصل السير في طريق الإرشاد ويترك القراء مخيرين في العمل بنصائحه واتباع إرشاداته أو عدم الاهتمام بها ولذلك أردنا أن نذكر في هذه السنة أيضاً كلمة عن أضرار المشد (وهي ليست بالأخيرة) لعلّها تؤثر بعض التأثير في سيداتنا السيدات إذ ربما كنَّ في هذه الأيام أحدَّ بصراً أو سمعاً من ذي قبل.

يشكو أغلب النساء الدسبيسيا أو عسر الهضم مع أنهنَّ لا يدخنَّ ولا يكثرنَ من شرب المسكرات كما هو الحال في الرجال فمن أين تأتيهنَّ هذه الدسبيسيا؟ — من المشد في غالب الأحيان لأن هذه الأداة تعوق التنفس وتضايق الوظائف الهضمية وبنوع خاص وظائف الكبد والمعدة والأمعاء والكلى فيما يتعلق بالكبد نكتفي بوضع الرسم المندرج هنا تحت أعين القراء فهو يدل على التغييرات التي تحصل في شكل الكبد من ضغط المشد عليه. أما الرسم المدلول عليه بخطوط فهو يبين الشكل الطبيعي للكبد ومن مقارنة الرسمين يتضح للناظر مقدار الضرر الذي يحدثه المشد في الكبد من حيث تأخير الدورة الدموية فيه ومنعه من تأدية وظيفته. أما المعدة فالمشد يخنقها من وسطها بضغطه عليها ويحدث فيها تمدداً ويقلل إفراز عصيرها الهضمي. وإذا نظرنا إلى الأمعاء نجد أن المشد يضغط على المستقيم فينتج من ذلك إمساك يشكو منه أغلب النساء وتتولد منه اضطرابات في أعضاء الرحم.

وفضلاً عن ذلك فإن المشد يسبب انتقال الكلية من مكانها مما يترتب عليه ظواهر دسبيسية شديدة. وقد قال ليندر إن الكلية المنتقلة تشاهد بمعدل /١٧/ في المائة. ومن جهة أخرى اتضح من الإحصاءات أنه بين /٤٨/ امرأة مصابة بانتقال الكلية /٣٣/ كنَّ مصابات بالدسبيسيا مع أنه بين /١٧٤/ امرأة غير مصابة بانتقال الكلية /٤٠/ فقط كنَّ مصابات بالدسبيسيا.

هذه أضرار المشد الأكثر أهمية أردنا ذكرها هنا إرشاداً للسيدات فلعلهنَّ يجتنبنها أو على الأقل يستعملن مشداً يكون قليل الضغط على أهم وظائف الجسم — انتهى كلام مجلة طبيب العائلة».

نعم ولا تكفي عدة أيام لشرح أضرار هذه الآفة الوخيمة ولكن أختم كلامي الآن راجياً أن يكون له الوقع الحسن في نفوسكم فتنبهوا إلى مضار هذا النوع من ملابس النساء

وتشددوا النكير على رباته فلا تسمحوا بدخوله في منازلكم والوصول إلى نسائكم لئلا ينفث بينهنَّ سمومه القتالة ويحرمهنَّ الراحة ويسوقهنَّ إلى الشقاء الدائم والمرض الطويل. وأظن كلاً منكم الآن قد هاج صدره غضباً على هذه الآلة الجهنمية بعد أن سمع بعض أضرارها الأدبية والطبية وعلم كره الإفرنج أنفسهم لها وآراءهم فيها وهم الذين استنبطوها وجنوا على أنفسهم وعلينا بإيجادها أعظم جناية. ولكنهم كما سمعتم قاموا الآن في شدة مقاومتهم لها يبررون خطأهم الذي ارتكبوه باختراعها أسأل الله أن يقينا شر أزيائهم الحديثة فكم من مرض وخيم تحت حسنها الظاهر وجمالها الخارجي.

ثم نزل فريد عن الدرج فصفق الجمع تصفيقاً شديداً دوت له أنحاء الحديقة ورددت صداه الحمراء بأجمعها... ونادى إبراهيم الخدم فأحضروا كؤوس الحلوى والمرطبات فشرب القوم وقاموا يشكرون فريداً على اهتمامه الجزيل وخدمته الشريفة وغيرته على بنات وطنه. وانصرفوا يرددون أقواله الحكيمة ونصائحه الذهبية وما منهم إلا من أخذت بلبه واستحوذت على قلبه.

وخرج صادق فشيعه فريد إلى الباب وودعه هناك ووعده بالذهاب إلى منزله في الصباح ليعود ابنته فشكره وذهب. وإبراهيم يلاحظهما من بعيد وقد تحقق تفاني صاحبه في حب ابنة صادق فكان لإخلاصه في صحبته يسأل الله أن يتمم له رغائبه ويبلغه أمانيه. وبعد قليل ودعه الآخر وانصرف إلى منزله على أمل اللقاء قبل ظهر الغد.

الفصل السابع عشر

صحة النساء في تركهن المشد

ودخل فريد بعد العشاء إلى غرفة نومه حيث سهر قسماً كبيراً من الليل في التفكير ثم نام واستيقظ عند بزوغ الفجر فاستعد للذهاب إلى محل أشغاله وفي عزمه أن ييمم بعد ذلك كعبة آماله ومحط رغائبه. فلبث في المستشفى أولاً إلى الساعة العاشرة ورجع إلى منزله فوجد عربة إبراهيم في انتظاره لتنقله إلى المدينة فركبها إلى بيت صادق حيث وجده متأهباً لاستقباله فحياه وأقام معه في غرفة الجلوس ريثما أخبر الخادمُ أهل المنزل بقدومه. فكانت ساعة شديدة على قلب الفتاة. ولنسمها لك أيها المطالع وندع عنك الرمز والتلميح. فاسمها «وحيدة» كما أنها وحيدة في الجمال والظرف واللطف وكرم الأخلاق فلما سمعت وحيدة بقدوم فريد اهتز قلبها من عاملين عامل الطبيعة الذي اعتاد أن يمد يده لقلب المحب ساعة رؤية حبيبه أو ذكر اسمه. وعامل البغتة والخوف من أن يفتضح سر فؤادها المكنون أمام والدها. ولا نقول من عامل السرور بلقائها لأنها في هذه الحالة أقرب

إلى الفزع والفرق منها إلى الفرح والجذل. فشدّت عزمها وقوت جنانها وقامت إلى غرفتها تتشح بوشاحها استعدادا لمقابلة الطبيب كما هو في عين أهلها والحبيب كما هو في عين قلبها. فما هي إلا هنيهة حتى جاء والدها يستقدمها فخرجت معه والجد ظاهر عليها والقوة بادية في مشيتها. وما هي إلا لحظة حتى وقفت على باب الغرفة حيث فريد في انتظارها. وهناك سطا عليها سلطان الهوى فسلبها القوة ومد عامل الطبيعة يده إلى قلبها. وأسدل الاضطراب على وجهها نقابه الأصفر. ولكنها بعد قليل تماسكت وعادت إلى الجلد والتحذر فخطت عتبة الباب وهلّت في فضاء الغرفة فسطع بياضاً واكتسى وجه فريد بذلك احمراراً ووقع بصره على الأرض بغير إرادته وانخفض رأسه غير أنه أسرع فتغلب على عامل الطبيعة وتشدد ورفع جفنيه وشخص في وجه ذاك الملاك الذي هبط عليه يوحي إلى قلبه آيات الحب ويلقنه لواعج الغرام.

ولما وقع عليها بصره ورأى ذاك الجمال القديم وتلك المحاسن أحسّ بهزّة شديدة في أعضائه ثم اشتدت مفاصله وتشنجت أعصابه فلم يشعر بعدها إلاّ وهو واقف على قدميه وقد حاول عبثاً أن يثبت في مجلسه.

فلما رأى من نفسه ذلك عمد إلى رشاده ورجع إلى صوابه وأراد مغالطة صادق فالتفت إليه وحرّك لسانه برنة الجد قائلا:

ألا ترى تغييراً بيّناً وبوناً شاسعاً بين الماضي والحال؟

قال صادق لا شك في ذلك وما هو إلا فضلك العميم وحذقك العظيم.

قال عفواً. وإنما قصدت إلفات فكرت إلى أقوالي في المجمع. وهذا حال ابنتك مصداق لها.

قال أنا أول مصدق. ولقد عرفت قصدك من الدعوة ساعة وصول البطاقة وكان المساعد لي على معرفتي سبب ما كنت أراه من تحسن صحتها يوماً بعد يوم.

قال فريد لا جدال في أن المشد يفعل بالأجسام ما لا تفعله الأسقام. ولا سقام إلا منه. والتفت إلى وحيدة وقال وهو يشجع نفسه ويحاذر عثرة لسانه:

لا شك في زوال ما كنت تشعرين به من آلام القلب والكبد. وكاد يشرق بريقه من الاضطراب أمام حاكمة قلبه ومالكة لبه فسكت.

فلمحت وحيدة ما به وما كادت تهنئ نفسها حتى أحست بالعدوى منه وشعرت بسرعة خفقان قلبها ورعشة خفيفة في جسمها لحظهما منها فريد فصار كل منهما يهنئ نفسه على مبادلته الهوى ومشاركته في الهيام.

ولكن وحيدة رأت سكوت فريد قد طال أمده فخافت ظهور حاله لوالدها. فرأت أن تجيبه على سؤاله لتنتشله من هوّة التفكير فقالت:

لقد زال كل ألم والحمد لله.

فانتقض جسم فريد انتفاضاً أخرجه من غيابه التأمل فحول نظره إلى صادق وابتسم علامة نجاحه في المعالجة فأظهر له صادق ثناياه جواباً على ابتسامه ثم مشى نحوهما ووقف بجانبهما وقال:

إنها اليوم لا تشعر بشيء من الآلام ولا تشتكي عسر الهضم. وصحتها بوجه الإجمال جيدة.

قال فريد يجب أن يكون ذلك. كيف لا وهي لم تعد تلبس المشد وما كان المرض إلا منه. وحوّل حديثه إليها قائلاً: عساكِ أن لا ترجعي إليه بعد أن تحققتِ منه الضرر.

قالت قد ألقيته في غيابة الصندوق ولن أمد إليه يدي.

قال تحسنين صنعاً. والآن يلزمك الاعتدال في كل أعمالك حتى يتم الشفاء فلا تخلفي مواقيت الأكل ولا تكثري من أنواع الأطعمة ولا تستعملي ما يسبب عسر الهضم كالنوع قبل تمام عمل المعدة أي قبل ساعتين ولا تدخلي طعاماً على طعام وتتعرضي للبرد. وعليك أن تخرجي إلى الخلوات وتتريضي في الفلوات.

والتفت إلى صادق وقال متمماً كلامه: فإن خير علاج يصفه الطبيب في أكثر الأمراض التعرض للشمس واستنشاق هواء الخلاء.

قال صادق حقيقة إنه خير دواء شاف.

وعلى ذلك استأذن فريد في الأنصراف وخرج يكرر وصيته بالخروج إلى الخلاء كل يوم وكان بوده لو يقيم يومهُ لولا خوفه من ظهور حاله.

وشيعه صادق إلى العربة وودعه وعاد معجباً بمروءته.

أحمد فتحي

المصدر: الفصول ١٥-١٦-١٧ من رواية:

«جناية أوروبا على نفسها والعالم»

تأليف: أحمد فتحي - مطبعة المعارف

مصر، ١٩٠٦.

الفهرس

محمد كامل الخطيب

ولدت في مدينة طرطوس، على ساحل البحر الأبيض المتوسط عام ١٩٤٨، درست المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية في هذه المدينة، وفي عام ١٩٦٧ حصلت على الشهادة الثانوية، وجئت إلى دمشق، حيث درست الأدب العربي في جامعتها، وبعدها أديت الخدمة العسكرية في اللاذقية وحلب، مدة ثلاثة أعوام، وبعد أن سرحت أوائل عام ١٩٧٦، تسكعت مدة عامين، وكنت أفكر بالذهاب إلى باريس للدراسة، إلى أن اشتغلت في وزارة الثقافة في دمشق منذ عام ١٩٧٨.

٢٠٠٨

صدر للمؤلف الكتب التالية

١. قصص قصيرة:

١ــ الأزمنة الحديثة	١٩٧٤	الطبعة الثانية	١٩٩٩
٢ــ جيران البحر	١٩٧٦		١٩٩٩
٣ــ النخلة المضيئة	١٩٧٩		٢٠٠٠
٤ــ المدن الساحلية	١٩٧٩		٢٠٠٠
٥ــ بلاد... كالزيتون	١٩٨٧		٢٠٠٠
٦ــ ثلاثة فناجين قهوة	١٩٩٩		
٧ــ صور قديس مجهول	٢٠٠٣		

٢. روايات:

١ــ هكذا... كالنهر	١٩٨٦	مترجمة الى الانكليزية
٢ــ الأشجار الصغيرة	١٩٩٩	مكتوبة عام ١٩٨٧
٣ــ أجمل السنوات	١٩٩٩	

٣. نقد:

١ــ المغامرة المعقدة	١٩٧٦	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢ــ السهم والدائرة	١٩٧٩		
٣ــ الرواية والواقع	١٩٨١		
٤ــ انكسار الأحلام	١٩٨٧		٢٠٠٠
٥ــ تكوين الرواية العربية	١٩٩٠		٢٠٠٠
٦ــ الرواية واليوتوبيا	١٩٩٥		
٧ــ اليوتوبيا المفقودة	٢٠٠١		

٤. دراسات فكرية:

١ـ مسائل راهنة	١٩٨٦
٢ـ الثقافة، السياسة، السلطة	١٩٨٩
٣ـ المجتمع المدني والعلمنة	١٩٩٢
٤ـ وردة للمختلف	٢٠٠٠
٥ـ بلاد أخرى: مقالة في المجتمع المدني	٢٠٠١
٦ـ آخر أخبار المسألة الشرقية: مايزال الرجل مريضاً	٢٠٠٣
٧ـ العرب وجهة نظر عربية: ماذا لو كنا كذلك؟!	٢٠٠٥
٨ـ وردة أم قنبلة ؟ اعادة تكوين سوريا	٢٠٠٦
٩ـ أحمر وأسود وألوان أخرى: السياسة والدين والمجتمع المدني	٢٠٠٨
١٠ـ صناعة الكتاب في سوريا: تاريخها ـ واقعها ـ آفاقها	٢٠٠٨

٥. تحرير وتقديم:

١ـ سليم خياطة: الأعمال الكاملة ١ـ٢	١٩٨٩-١٩٩٠
٢ـ رحلة إلى الأندلس: أحمد زكي	١٩٩٢
٣ـ كامل عياد: مختارات ١-٢	١٩٩٤
٤ـ عبد الرحمن الشهبندر: الأعمال الكاملة ١ـ٤	١٩٩٤
٥ـ المؤتمر العربي الأول: باريس، ١٩١٣	١٩٩٦
٦ـ رحلات في الزمان والمكان	٢٠٠٠
٧ـ فؤاد الشمالي: كتابات مجهولة	٢٠٠١
٨ـ آراء الدكتور شبلي شميل	٢٠٠٥
٩ـ سعيد حورانية: الأعمال القصصية الكاملة	٢٠٠٥
١٠ـ صباح محي الدين: الأعمال القصصية الكاملة	٢٠٠٥

٦ ـ سلسلة قضايا وحوارات النهضة العربية: تحرير وتقديم:

«موسوعة الثقافة العربية الحديثة»	١٨٠٠–٢٠٠٠

آ ـ الأرضية العامة:

١ـ الإصلاح والنهضة ١–٢	١٩٩٢
٢ـ القديم والجديد	١٩٨٩
٣ـ الشرق والغرب ١–٢	١٩٩١

ب ـ قضايا فكرية واجتماعية:

٤ـ القومية والوحدة ١–٣	١٩٩٢
٥ـ الاشتراكية	١٩٩١
٦ـ قضية المرأة ١–٣	١٩٩٩
٧ـ قضية الفلسفة	١٩٩٧
٨ـ حقوق الإنسان وحرياته ١–٤	٢٠٠٥
٩ـ قضية اللغة العربية ١–٤	٢٠٠٤
١٠ـ حرية الاعتقاد الديني	٢٠٠٥
١١ـ قضية الملابس	٢٠٠٨

ج ـ الأجناس الأدبية:

١٢ـ نظرية الرواية	١٩٩٠
١٣ـ نظرية المسرح ١–٢	١٩٩٤
١٤ـ نظرية الشعر ١–٨	١٩٩٦–١٩٩٧
١٥ـ نظرية النقد ١–٣	٢٠٠٢

د ـ مقدمة عامة للفترة وللمشروع:

١٦ـ تكوين النهضة العربية ـ مقدمة المشروع ١٨٠٠–٢٠٠٠	٢٠٠١

قضايا وحوارات النهضة العربية

موسوعة الثقافة العربية الحديثة ١٨٠٠-٢٠٠٠

تحرير وتقديم: محمد كامل الخطيب

تقدم «موسوعة الثقافة العربية» تغطية تكوينية وتوثيقية شاملة ومتتابعة زمنياً لمناحي ومحاور الثقافة العربية الحديثة وقضاياها في الفترة ما بين ١٨٠٠-٢٠٠٠ وهي الفترة المعروفة بـ "عصر النهضة العربية".

يقوم منهج هذه الموسوعة على تقديم هذه المناحي والمحاور، أو هذه القضايا بطريقة سجالية ومتسلسلة حوارياً وزمنياً، ومرتبة حسب موضوعاتها، وعبر مختلف وجهات النظر، منذ نشأت هذه القضايا والموضوعات، إلى أن دخلت واستقرت في نسيج الثقافة العربية، وكوّنت سلسلتها الثقافية المتجددة.

في سبيل ذلك قام المحرر بتتبع تاريخي لهذه المحاور في المصادر الأساسية من مجلات وكتب ومصادر أخرى منذ بدأت الطباعة في البلاد العربية، ثم رتبت هذه القضايا في محاور عامة وخاصة على النحو التالي:

١- **المقدمة: تكوين النهضة العربية.**

أ- المحاور العامة:

٢- **الإصلاح والنهضة ٣- القديم والجديد ٤- الشرق والغرب**

ب- المحاور الخاصة: وتقسم إلى قسمين: ثقافي واجتماعي

١- القسم الثقافي:

٥- نظرية الشعر ٦- نظرية المسرح ٧- نظرية الرواية ٨- نظرية النقد ٩- قضية الفلسفة ١٠- قضية اللغة.

٢- المحور الاجتماعي:

١١- القومية والوحدة ١٢- الاشتراكية ١٣- قضية المرأة ١٤- حقوق الانسان وحرياته ١٥- حرية الاعتقاد الديني ١٦- قضية الملابس.

صدرت أجزاء هذه الموسوعة ما بين عامي ١٩٨٩-٢٠٠٨.